

محمد الحسن

رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامي
بأهـنـد

الإسلام الممتحن

تقديم المفكر الاسلامي الكبير

أبو الحسن الندوي

المختار الاسلامي

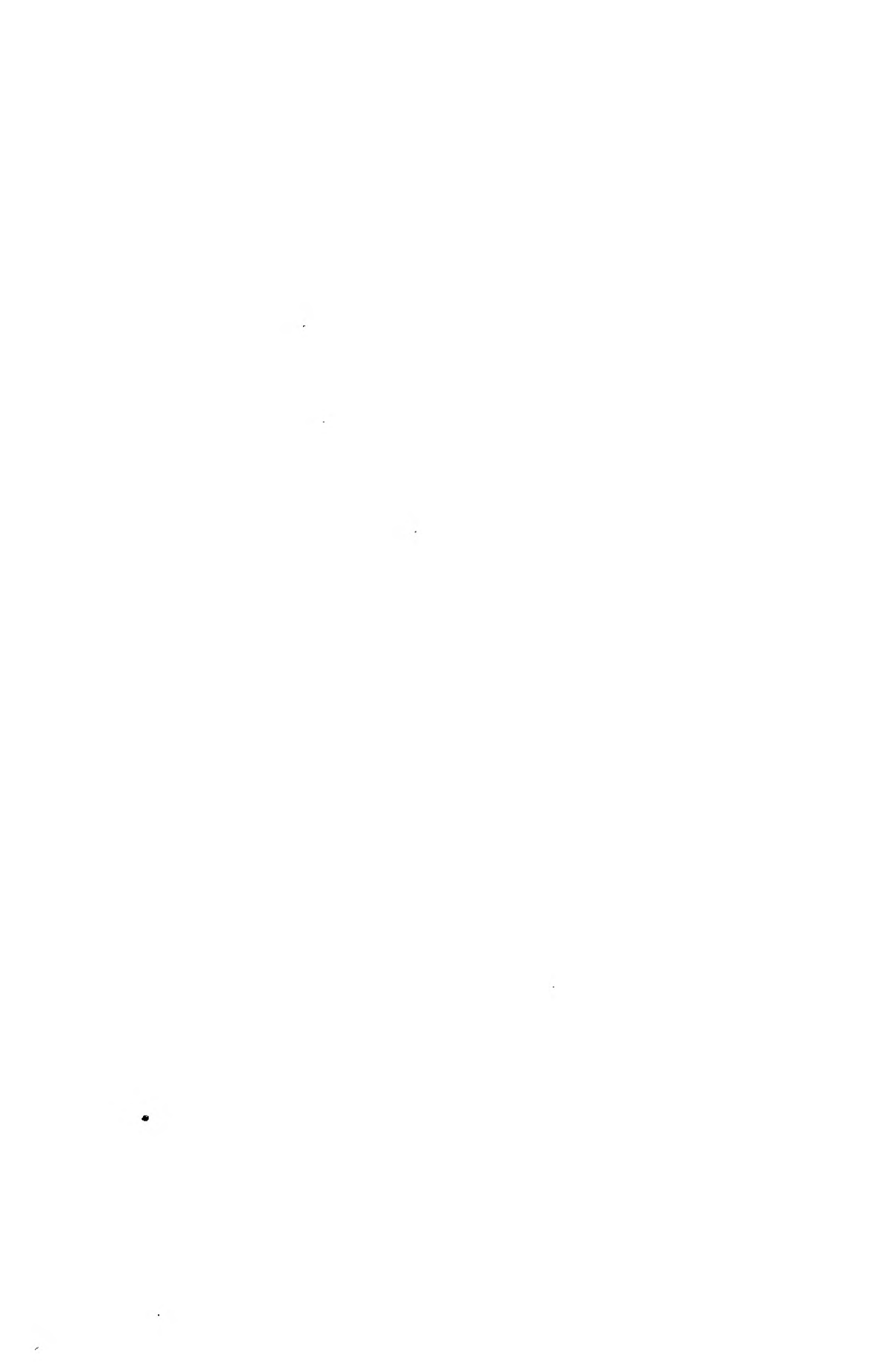
للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة - ص ١٧٠٧ ب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بين يدي الكتاب

هذا الكتاب تعود قصته الى ابريل ١٩٥٤م

وذلك حين نشرت مجلة المسلمون ٠٠ في القاهرة أول مقال لصاحبه وهو في العقد الثاني من عمره ، تحت عنوان « العالم الاسلامي على مفترق الطرق » *

وكان أخير ما صدر عن هذا القلم عند كتابة هذه السطور مقالة عن الامام الشهيد تحت عنوان « حسن البنا في محراب التاريخ الاسلامي » وهي ضريبة حب أحببت أن أدفعها - وان تأخرت - راضيا مسرورا ، ومع ذلك الفاصل الطويل بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٧٥ الذي ليس طويلا بحساب الزمن بقدر ما هو طويل بحساب المد الفكري وانحساره - جاءت هذه المقالات أو الافتتاحيات التي نشرت في مجلة « البعث الاسلامي » في أوقات متفاوتة ، وتنوعت موضوعاتها وظروفها وملابساتها ، تضرب على وتر واحد ، وتربطها رابطة واحدة ، يطيب لي أن أعبر عنها برابطة « الحب في الله والبغض في الله » *

وذلك كله دفعني الى أن أتوجه بهذا الكتاب الى من علمني الكتابة وأنشأ في نفسي - الى جنب والدي رحمه الله -

حب هذه اللغة الكريمة وحب أهلها ، وحب الاسلام والمسلمين
والاهتمام بشؤون العالم الاسلامي الفكرية والاجتماعية
والسياسية ، وهو عمنا سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني
الندوي اطال الله بقاءه ، ففضل مشكورا بتقديم هذا الكتاب .

والله تعالى أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه ، ويجد فيه
الشباب المسلم الحائر ما يعيد ثقته بهذا الدين ، ويقوى ايمانه
بالله ، ويشرح صدره للاسلام ، ويثبت أقدامه في صراع الحق
والضلال ، والنور والظلام .

وقفة قد يقفها القارىء حين لا يرى في هذه المقالات
وقد كتبت في أدق فترة وأحرجها في تاريخ هذه الأمة الحديث
انعكاسا لهذه الحوادث ودراسة لهذه الأوضاع ، وتفسيرا
لهذه التطورات التي شهدتها أرض النيل ، لا سيما إذ أخذت
هذه الحوادث والتطورات « وأبطالها وشخصياتها » بوجه
خاص قسما كبيرا من وقت الكاتب وقلمه ، وموعدا مع
هذا الجزء الهام من التاريخ في كتاب مستقل أسميته « مصر
تتنفس » ولعلها تنفست ، ولعلها تستجيب ، وموعدا مع
هذا الكتاب الجديد - إذا شاءت ارادة الله وحكمته وسمحت .

مصر الموقرة وسمحت - قريب .

لكهنؤ (الهند)

محمد الحسيني

غرة ربيع الأول ١٣٩٥ هـ

تقديم الكتاب

بقلم :

أبى الحسن على الحسنى الندوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .
أما بعد ، فقد بقيت فترة من الزمن ، أتهيّب تقديم هذه
المجموعة من مقالات ابن أخى محمد الحسنى ، التى أسماها
« الاسلام الممتحن » ، وما كان تقديم الكتب والمؤلفات
لمشاهير الكتاب والمغمورين منهم ، بدعا من الأمر ،
بالنسبة الى ، حتى خفت أن يطفى التقديم على التأليف ،
وأتهم بالتوسع والسخاء فى تقديم الكتب وتصديرها .
وما ذلك إلا لأن الصلة بينى وبين صاحب هذا الكتاب صلة
الأب بالابن والأستاذ بالتلميذ ، وكنت أشعر - وأنا أحدث
نفسى بكتابة هذا التقديم - بأنى أقدم لكتاب من كتبى ،
وأتورط بذلك أحيانا فى الاعتراف لنفسى بالاجادة والتوفيق
والتهنئة والتقريظ ، وذلك مما لم تستحسنه الشرائع ، وعلم
الأخلاق ، والآداب السليمة ، وتحاشيت عنه بقدر الامكان .

ثم حاسبت نفسى على هذا الشعور ، محاسبة أمينة
محايدة ، وحللتة تحليلا نفسيا ، فوجدت أن نصيب العاطفة
فيه أكبر من نصيب العقل ، والخوف من قالة الناس وحدثهم

قد غدى هذا الشعور ، وأفاض عليه لونا خلقيا ، ورأيت أننى إذا استسلمت لهذا الشعور ، فقد فرطت فى تأدية أمانة والقيام بشهادة ، والشهادة للأقربين ليست أقل وجوبا من الشهادة على الأقربين ، فان الله تعالى حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (١) فانه يقول كذلك : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعماء يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا » (٢) .

ثم ان قصة البيئة التى نشأ فيها الكاتب ، والعوامل التى كونت هذه العقلية التى صدرت عنها هذه الفكرة ، والدوافع التى دفعته الى كتابة هذه المقالات ، والتركيب النفسى والمزيج الثقافى الحضارى الذى ورثه عن آبائه ، وتلقاه من مجتمعه ، والأحداث الجسيمة الأليمة التى وقعت فى الوطن الاسلامى الكبير ، فعاصرها وعاشها ، واكتوى بنارها ، وساهم فى عارها ، لا يحسن حكايتها الا من شهد فصولها ، وخاض معركتها ، وسائر ركبها ، وقد كان فى بعض الأحيان شاهد عيان ، والسابق الى الميدان .

ان صاحب هذه المجموعة نشأ فى بيئة آمنت بأن

(١) سورة النساء الآية ٣٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٥٨ .

الاسلام هو رسالة الله الأخيرة الخالدة ، وأنها هو الحق الذى ليس بعده الا الضلال ، والسعادة التى ليس وراءها الا الشقاوة ، وأنه للانسانية كسفينة نوح ، لا ينجو الا من ركبها وأوى اليها ، وأن نهاية كل من استغنى عنها واعتصم بجبل ، نهاية ولده الشارد المارد الذى قال « سأوى الى جبل يعصمنى من الماء » وكان جواب نوح « لا عاصم اليوم من أمر الله » وكانت عاقبته أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين .

وآمنت بأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى العربى - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل ، وامام الكل ، ومدير السبل ، لكل عصر ولكل جيل ، وأن الله قد ربط مصير العرب بمصير الاسلام ، وعقد ناصيتهم به ، فلا عز لهم ولا سعادة ، ولا نهوض لهم ولا قيادة ، الا بالانضواء الى رايته ، والانصهار فى بوتقة تعاليمه ، والتفانى فى سبيله ، وان أعدى عدو لهم من ينادى بالجاهلية ، ويهتف بالقومية والعنصرية ، أو الوطنية والاشتراكية ، أو فلسفة من الفلسفات الملحدة ، فيحاول أن يحول بينهم وبين الاسلام .

وآمنت بأن الاسلام وحدة لا تتجزأ ، ومنهج للحياة كامل شامل ، وأنه عقيدة وأخلاق ، وسياسة وعلم ، وعقل وعاطفة ، وحضارة وثقافة ، وله موازينه الخاصة ، وقيمه المعينة ، ومقاديره المحدودة ، ومقاييسه المعروفة ، ولا يحتاج الى تليق أو تطعيم ، أو مساومة أو تنازل .

انه قد عاش فى ظلال تاريخ الدعوة الاسلامية ، وقصة

بطولاتها ومعجزاتها وصنائعها وعجائبها . تتلى في بيته وأسرته الملاحم الاسلامية التي نظمها بعض أفراد أسرته المتقدمين في الشعر الأردى القوى المثير ، مقتبسة من فتوح الشام للواقدى والأغانى الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية وأخبار الصحابة وفضل الحضارة الاسلامية ودور العرب في بناء العالم الجديد . وانقاذ الانسانية من أعدائها . فامتزج كله بلحمه ودمه ، وتكونت به عقليته ونفسيته . وأحب الرسول وأصحابه والعرب حبا لا يمكن تجريده منه فى مرحلة من مراحل الثقافة ، وفى فترة من فترات الحياة ، وفى بيئة من البيئات . وأصبح هذا الحب ، وهذه العاطفة ، تلهب شعوره ، وتدفق قريحته ، وتجرى قلمه ، وأصبحت له مصدر الالهام ومنبع الايمان والحنان .

انه ولد فى أسرة كان شعارها منذ زمن طويل ، الجمع بين العقيدة السلفية النقية ، وبين الربانية الصحيحة الصافية ، وبين الزهادة والعبادة ، وبين بذل الجهد لاعلاء كلمة الله ورفع راية الجهاد حيناً بعد حين ، والسعى الحثيث فى الجمع بين اشراق القلب وصفاء الروح وقوة العاطفة ، وبين التفنن فى العلوم والذوق الأصيل للأدب والشعر . وأورث كل ذلك من تراث وتاريخ ودم وعرق تقديره لاكسیر الحب وقوة العاطفة ، وسلم بذلك من الجفاف الروحى والاستخفاف بالعاطفة والحاجة الى تزكية النفس والشحنة الايمانية الروحية ، الاستخفاف الذى أصبح شعار الكتاب والدعاة فى عصره ، الذين نشأوا بعيدين عن هذه البيئة الجامعة والتربية المزدوجة .

انه نشأ وترعرع في عصر تغنى بشعر اقبال ، وكانت له فيه دولة وصوله ، وهو شعر الحب والطموح ، وشعر الايمان والحنان ، وشعر الثقة بصلاحية الاسلام ، والايمان بخلوده ، فأساغه عقله المتفتح وذوقه الناشئ ، وجعله جزءا من أجزاء ثقافته وأساسا من أسس تفكيره .

انه نشأ في حجر والد مؤمن جمع بين سلامة العقيدة وقوة الايمان والقلب المتفتح والعقل النير الواسع ، والعلم الحديث الأحداث وحب الواقعية والجد ، لا يرى تناقضا بين العلم والدين والتقديم والحديث ، وقد اقتبس من الثقافتين : القديمة والحديثة والغربية والشرقية ، أفضل عناصرهما وأجملها ، فمزج بينها مزجا جميلا ، فأصبح برزخا بين بحرین لا يبغيان ، شديد الحب لله ولرسوله ولعشيرته وقومه وللغته وبلاده ، شديد البغض شديد البراءة عن كل ما يخالف الدين الحنيف من عقائد وأعمال وفلسفات واتجاهات ، عميق الفهم للاسلام ، ووثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية ، شديد الغيرة على الاسلام ، عظيم الحب لمركزه ومقدساته ، متقشفا في الحياة الفردية ، متوسعا في فهم القضايا العلمية والاسلامية ، شديدا في الحدود والنصوص ، مرنا في المباحث والاستفادة بالحكمة والتجارب .

ذلكم أخي وأستاذي ومربي عقلي وثقافتى ، ذلكم والد هذا الكاتب العزيز الدكتور عبد العلي بن العلامة عبد الحى الحسنى .

نشأ هذا الشاب تحت ظلال هذه التربية وفي حجر هذه البيئة ، ثم لما عقل وثقف وعاصر الأحداث ، فتح عينيه على مجتمع اسلامى حائر بين الاسلام والجاهلية والدين والعلمانية ، قادة الفكر فيه مذنبون وأولياء الأمور فيه مضطربون ، وأكثرهم منافقون ، يتخذون الدين حيلة ووسيلة للوصول الى أغراضهم ، والهتاف بالاسلام سلماً للوصول الى كراسى الحكم ، وقنطرة للعبور الى شاطئ السيادة والقيادة والركوب على أعناق الشعوب المسلمة الساذجة التي لا تفهم الا لغة القرآن والحب والحنان ، ولا تتحرك ولا تتحمس الا بحكايات الصحابة وأبطال الاسلام وفضائل الجهاد والشهادة .

انه أحب اللغة العربية من صباه ، وحب الصبا شديد ، وأحب أبناءها وكل ما يمت اليها بصلة ، وكان يتمثل العرب فى قصص الرعيل الأول للاسلام وطلبة الدعوة والمجاهدين ، الذين سمع حكايات بطولاتهم وفدائهم فى قصائد الملحمة الاسلامية . فأمن بأنهم لا يزالون سائرين على دربهم ، لا يعدلون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - انسانا ، وقائدا ، واماما ، ولا يعدلون بالاسلام ديننا ، ومنهجنا ، وبالقومىة الاسلامية قومىة . فلما صار يعنى ويشدو ، ويقرأ ويكتب ، فتح عينيه على كتابات للعرب ، لو كتبت تحتها أسماء الكتاب الأوربيين والمؤلفين المستشرقين والدعاة المنحرفين لم يكن بعيدا ، ولما كان بين هذه الكتابات وبين شهرة هؤلاء الكتاب

ودعوتهم فجوة ومنافاة . رأى أن كثيرا من هؤلاء الكتاب العرب ينظرون الى الاسلام كدين أدى دوره وبطارية قد نفذت شحنتها ، فليس من العقل والكياسة التشبث به والدعوة اليه ، ومواجهة الواقع والعصر الراقي بحلوله وأحكامه ، وخيرهم من ينظر الى الاسلام كدين من الأديان الكثيرة ومنهج للحياة من مناهجها المتنوعة ، وخير أحواله أن يسمح له بالبقاء فى دائرة ضيقة محدودة وفى حياة فردية سلمية .

وكان كل ذلك مفاجأة أليمة لم يكن يتوقعها بل لم يكن يتصورها فى بيئته التى صورت له الاسلام كدين حى خالد ، خلىق به ليقود ويسود ، والعرب كرائد أول وقائد أفضل لهذه الدعوة الاسلامية ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت صدمة عنيفة لعقله وقلبه .

ثم جاءت الفترة الحالكة التى هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء فى الخمسينات الاولى ، وقع أكثر أبناء العرب وشبابهم وكثير من كهولهم وعلمائهم تحت تأثير قيادة ترى التخلص من أثر الاسلام فى النفوس والعقول والحياة الاجتماعية والسياسية أهم وأقدم من محاربة الصهيونية واستعادة المقدسات الاسلامية ، وترى ازالة هذه الأتقاض أو الركام - على حد تعبيرها - شرطا لبناء المجتمع الجديد ، وازالة آثار العدوان الأجنبى ، وتحل القومية العربية والاشتراكية العلمية محل العقيدة الاسلامية والدعوة الاسلامية ، لها كل ما للدين من ايمان وحماس ، وعصبية

وحمية ، وتعتمد على الهتافات والدعايات ، والدعاوى الفارغة ،
ما لا تعتمد على السلاح والقوة الحربية والروح المعنوية
والايمان الراسخ ، وكانت فتنة عمياء ، أعمت ، وأصمت ،
وسحرت العقول والنفوس ، وقلبت الحقائق ، وأنكرت
البديهييات . وكانت موجة عارمة في الشرق العربي ،
اكتسحت الصحافة والأدب ودور العلم ومراكز النشر ، وما
صمد في وجهها الا أفراد قلائل يعدون على رؤوس الأصابع .
وكانت مجابقتها ونقدها العلمي مثل « كلمة حق عند سلطان
جائر » فقد تجاوز معها الشباب المتحمس الطموح ، والصحافة
القوية التي سميت في الغرب بـ « صاحبة الجلالة » .

في كل هذه الظروف والملابسات الدقيقة المثيرة وفي
هذه البيئة الحساسة المكهربة ، أمسك الكاتب الناشئ صاحب
هذه المجموعة الذي كان لا يزال في شرح الشباب قلمه ليخط
مقالات افتتاحية لمجلة « البعث الاسلامي » التي كان يرأس
تحريرها على حداثة سنه ، ليعبر عن شعوره الجريح الفياض ،
وقلبه المكلوم المتألم ، ويدافع عن الفكرة الاسلامية التي آمن
بها ، واحتضنها ، وأحبها ويذكر العرب بصفة خاصة
برسالتهم وبتاريخهم وبمركزهم في العالم ، وميزاتهم بين
الامم ، وبالذور الذي يستطيع الاسلام أن يمثله في هذه
المعركة الحامية ، والساعة الدقيقة الحاسمة ، والدور الذي
يجب أن يمثله العرب ، على المسرح العالمي الذي أصبح مركزا
للمسرحيات الهازلة والتمثيلييات السخيفة ، وكانت الامم

والبلاد كرة دائرة ودمى متحركة فيها ، لا تملك ارادة ،
ويذكر المسلمين برسالة الاسلام الأصيله الخالدة وفضلها
وقيمتها والعناصر التي تركبت منها ، وحاجة الانسانية اليها ،
وينقل اليهم همساتها ودقات قلبها ، حين تراهم قد تخلوا عن
مركزهم في القيادة وجروا وراء القيادات الزائفة ، وتطفلوا
على مائدتها ، ويدعو الى الاسلام الكامل الذى يعطى كل ذى
حق حقه ، وينير العقول ، ويشعل مجامر القلوب ، ويهذب
الاخلاق ، وينظم الحياة ، ويضبط الأمم ، ويقود المدنية ،
ويشعل المواهب ، وينشئ الرجال ، ويربى القادة والعباقرة ،
لا هو جاف قشيب ، ولا هو رقيق مائع ، ولا هو رهبانية
وهجر للدنيا ، ولا هو مادية ونهامة للحياة ، انما هو الدبن
الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ونطق به القرآن ،
وتمثل في حياة الصحابة ، والقرون المشهود لها بالخير ،
والتابعين لهم باحسان ، من الجامعين بين العقل والقلب
والعقيدة والعمل ، والجهاد والربانية .

وكان متأثرا في كل ذلك بطبيعة الحال بالبيئة التي
نشأ فيها ، ودعوة المجدد الكبير والمجاهد العظيم السيد الامام
أحمد بن عرفان الشهيد الذى كان من سلفه وعظماء أسرته
في الماضى القريب (١) ، وبفكرة « الاخوان المسلمون » ورائدهم

(١) ليراجع للتفصيل كتاب : اذا هبت ريح الايمان « لكاتب هذه
السطور طبع دار الرسالة ، بيروت .

الإمام الشهيد حسن البناء الذي تعرف به وأحبه عن طريق
عمه كاتب هذه السطور ، الذي كان له صلوات وثيقة بأصحاب
هذه الدعوة وزملاء الفقيه الشهيد وتلاميذه النجباء ، فتجلى
تأثير كل هذه العوامل القوية والدراسات العصرية ومطالعة
الكتابات الإسلامية التي أنتجتها هاتان الحركتان القويتان ،
في المقالات التي كتبها بين آونة وأخرى ، وتتكون بها هذه
المجموعة .

وأحدثت هذه الجوانب المتناقضة - جانب تربيته
ودراسته الإسلامية وجانب الواقع المرير والمشاهد القاسي -
صراعا في نفسه حول قلمه الى شلال يتدفق بقوة ، وينحدر
بقوة ، فصدرت هذه المقالات ، في أسلوب قوى ملتهب ، هو
نتيجة كل صراع نفسي ، رافقته قدرة بيانية ، وقلم سيال
رشيق ، وثروة لغوية ، وهذا الأسلوب له قيمته في ايقاظ
الشعور وفي تحريك النفوس والعقول ، ومحاربة « مركب
النقص » واعادة الثقة بصلاحية الرسالة والأمة والاعتزاز
بالقيم والمفاهيم ، خصوصا اذا كان مدعما بالدلائل والوثائق ،
ومسلحا بالشواهد والتجارب ، وهي طبيعة كل اصلاح
وانقلاب ، ورائد كل نهضة وتقدم ، وهو الأسلوب الذي
استعان به الخطباء والكتاب في العصر الإسلامي الأول ،
واستعان به السيد جمال الدين الأفغاني وصاحبه الشيخ
محمد عبده في مقالات « العروة الوثقى » التي أشعلت العالم
الإسلامي حماسا وحمية وحملت الحكومات الغربية الاستعمار
على منع دخولها ، في الأقطار التي كانت تحكمها ، ولعبت

دورا لا يستهان بقيمته فى ايقاظ الشعور الاسلامى وايجاد
الوعى السياسى .

مع هذه السمة البارزة لهذه المقالات فانها تدعو الى
التأمل العميق ، وتغذى الفكرة ، وتفتح آفاقا جديدة للفكر
الاسلامى ، وتزود العاملين فى مجال الدعوة والفكرة الاسلامية
ببعض معلومات جديدة ، ووثائق وحقائق عن الحضارة
الغربية ، والفلسفات المادية ، ومدى افلاس الغرب واحتياره
وسآمته وخوائه الروحى ، وما يعانىه من أزمات وعقد
ومشكلات ، فان الكاتب يعيش فى بلد قد اکتوى بنار الغرب،
وخاض المعركة الفكرية الحضارية السياسية التى قامت
وحميت فى شبه القارة الهندية ، ثم خرج منها الشعب المسلم
محتفظا بجزء كثير من شخصيته ، معتزا بحضارته وقيمه ،
خبيرا بمواضع الضعف فى الغرب ومساويه ، وقصة فشله
واخفاقه ، فى حل القضايا المعاصرة ، فأكسبه كل ذلك ثقة
بدعوته ، وقوة فى كتاباته ، وقيمة لما يقول ويدعو اليه .

فى ضوء قصة هذه البيئة والتربية والأحداث والتجارب،
والميول والعواطف ، والأهداف والمثل ، وصدق النية وحسن
القصد ، ينبغى أن تقرأ هذه المقالات التى كتبت فى أوقات
شتى تحت عناوين مختلفة تجمع بينها وحدة هى وحدة
« منهج الفكر الاسلامى السليم » والدعوة الى الحق والى الصراط
المستقيم .

أبو الحسن الندوى

العالم الاسلامى على مفترق الطرق

كتبنا هذا المقال فى أوائل عام ١٩٥٤ م ونشر اذ ذاك فى مجلة « المسلمون » وها نحن نستهل به هذا الكتاب ونكرر هذا الرجاء مرة ثانية فالأمر غمة والطريق واحد فهل يستجيب العالم الاسلامى لهذا النداء ويحقق هذا الرجاء وهل يعود الى رشده وصوابه وسبيل ربه ؟

هذه الفترة من الزمن التى يجتازها العالم الاسلامى بوجه عام والعالم العربى بوجه خاص ، فترة خطيرة ذات أهمية فى تاريخ المسلمين ، انها ساعة لا تتوفر أمثالها فى تاريخ الأمم والشعوب ، وفى امكانية العالم الاسلامى اليوم أن يودى واجبا ضخما نحو الانسانية ، ويلعب دورا هاما فى حقل السياسة العالمية ، ويغير مجرى التاريخ ، ويحول القيادة من الجاهلية الآثمة الى الاسلام السمع العادل ، ويحقق ذلك الغرض الأكبر والهدف الأسمى الذى بعثت له تلك الأمة الاسلامية ، ان ذلك يقتضى سرعة لكن بحیطة وحذر ، ويطلب شهامة واقتحاما ولكن بعد تأمل وتريث ، ويحتاج الى هجوم عنيف على غريمه والانقضاض عليه كما ينقض الصقر على الطير والأسد الجائع على الشاة ولكن بعد اكمال رصيده

الايمانى والروحى ، واستعداده المادى والحربى ، وتنظيمه العلمى الجديد ، وتوحيد صفوفه الموزعة ، وهذا هو الذى قد فات العالم الاسلامى فى احيان كثيرة ، فسقط صريعا أمام ثورة العقل والفكر ، ومعجزات البطولة والاختراع ، وقوة الحديد والنار ، ولعان المدنية المتطرفة .

وكفى أن العالم الاسلامى اليوم ، نال مكانة عظيمة فى خريطة العالم ، وبلغ من الأهمية الاستراتيجية ما لم تبلغه الدول الأخرى على وجه الأرض ، وملك من ينابيع الذهب الأسود الذى يسير عجلة الحياة الصناعية فى العالم ومن القوى التى لم تخرج ولم تنتج ، ومن المجموعة الانسانية التى لم ترب ولم تثقف ما جعله فى كفاية وغناء عن أى استيراد من الخارج .

وثانيا وهو الأهم من ذلك كله : أن المجتمع البشرى اليوم قد سئم ومل ويئس - أقر بذلك أم لا - من منبع أوربا الذى فقد زيتته وآن أوانه وانقضى عمره ، وجف ماؤه ، ولم يستطع خلال كل هذه النهضة الهائلة الطويلة ، أن يضيف الى رصيد الانسان الا الحديد والنار والبارود والدخان ، والقنابل المدمرة ، والغازات السامة ، والآلات المبيدة ، الا الضمير الذى اعتاد الجريمة وتعود العصيان والتمرد ، ونشأ فيه ميل أكيد ورغبة جارفة الى الاثم والفاحشة، ضمير لا يؤمن الا بالنعمة ويؤثر العاجل على الآجل ، حتى ان المدنية والثقافة والفن والحضارة التى نقرأ قصصها ورواياتها كأنها

روايات الجنة أو قصص الجزيرة الخيالية Utopia
للسير مور ، من الحرية والأخاء والصدقة وعدم السرقة والحيانة
وانجاز الوعد ، والنزاهة في الحياة اليومية ، كل ذلك تابع
لمبدأ النفعية ، وقد صدق من قال : ان الغربي لا يصوم اذ
يصوم ليرفع في روحانيته واشراقه ، انه يصوم ليقوى هيجانه
وشهوته الى الطعام ، انه يربي بني وطنه واخوانه ويعلمهم
ويثقهم ، لا لأن يكونوا قدوة للناس ، وأئمة يدعون الى
الهدى ، بل ليقووا على استعمار الأمم والشعوب وهضم
الحقوق وانتهاك الحرمات والمقدسات ، وشراء الأسواق ،
ويريدون علوا في الأرض وفسادا ، فبينما ترى الغربي صادقا
في وعده اذا حدد الموعد مع رجل فلا يتأخر دقيقة واحدة ،
اذا هو يكذب فاضحا بدون حياء ويخدع بدون انسانية في
فلسطين وفي كل بلد شرقي ليس له به علاقة الدم واللون ،
وبينما هو يتجنب سرقة فلس Peny في مملكته ، يراه
الناس سارقا غاصبا في الشرق ، مستخدما في ذلك كل
وسيله مهما غرقت في الدناءة والاسفاف ، وموجز القول ان
المدنية الغربية قد افتضحت في قارة الطريق ، وظهرت
علاتها وسوءاتها أمام العيون في وجه النهار ، وهذا هو
الجو العالمي والأوضاع المحيطة بالعالم الاسلامي ، وصلت
بالعالم الاسلامي الى مفترق الطرق ، وأخذت بيده في جادة
الامتحان .

وانها تكون من الحيانة المردية والجنانية العظيمة أن تقف

الامة الاسلاميه التي تملك رساله السماء وتحمل في يدها مشعل الهداية موقف المتفرج أو المتطفل ، وتخلع هذا القميص الذي كساها الله من قيادة الأمم واقامة الوصاية الالهيه على الأرض وتوجيه المجتمع البشرى ، فاذا عقد العالم الاسلامى نيته أن يتحرر من عبودية النفس ونير الاستعمار ، وينقذ ملايين الملايين من الناس من عذاب الذل والهوان ، ويخلص الانسانية من أعدائها ويمسح دموعها ، ويأخذ بيد المجموعه البشرية المنتشرة على الأرض الى أفق أوسع وأرحب ، وحياء أنعم وأرغد ، وفوز فى الدنيا والآخرة ، فهو يحتاج الى جهاد طويل ، وكفاح شاق مرير ، وتضحيات واسعة النطاق ، ويتطلب خبرة نادرة وتربيه دقيقه ، ولكنها تتفق مع رسالتها، بل هى عين رسالتها وغرض بعثها ، وحجر الزاوية التي يرتفع عليها الصرح الاسلامى .

انها تقتضى قبل كل شىء نفخ الايمان الجديد ، والروح الجديدة الوثابة ، والفكر الاسلامى الجريئ التائر ، فى جماهير العالم الاسلامى ، لا سيما فى الشباب ، ومجابهة مركب النقص فى قلوبهم الذى أكلهم وطغى عليهم من أجل التبشير والاستعمار ، والتعليم والتربيه اللذين يتفقان مع روح الغرب وآرائه ، ووضع نظام تعليمى حر يتفق ومطالب الاسلام ، ويبنى على حقائقه الخالده التي لا تتغير ولا تتأثر ، وأن يقبل كل صالح جديد فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، ويخرج فوجا جديدا ، جديدا فى روحه ، جديدا فى فكرته ، جديدا فى ايمانه ، فهذا هو الشىء الذى ينقص

المجتمع البشرى اليوم ، مع امتلائه من كل جديد وطريف ،
ومن كل نادر وغال .

أما عن التعليم والتربية فقد يجب علينا أن نختار موقفا
حاسما تجاه علوم الغرب ، ونأخذ منها ما ينفع والذي أعطاه
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اسم « العلم النافع » فالعلم
الذي لا ينفع ولا يفيد ليس علما من وجهة نظر الاسلام وانما
هو قتل الوقت الثمين الذي يجب أن يبذل فى ميدان الدعوة
والجهاد ، والهداية والارشاد ، فاذا قررنا الفلسفة الغربية
الحديثة فى منهج التعليم كنظرية دارون وفرويد ،
واقصاديات هيجل وماركس ، وفلسفة التفسير المادى
للتاريخ مثلا ، فاننا نضعها منا موضع النقد لا موضع التقديس
كما هو الحال اليوم فى العالم الاسلامى كله ، أما تفاهات
الفلسفة التى تعنى بالغيب وما بعد الطبيعيات ، وتريد أن
نطلع على أغاز الكون التى لا يعلمها الا الله وتعالج أمرا ليس
فى قدرتها ، فهو فى نظرنا لا يقل عن جهالة علماء اليونان
والرومان فى شىء ، وحكمنا فى كليهما واحد ، ويجب علينا
أن لا نضيع وقت أبنائنا بهذه السخافات التى لا تتصل
بالعمل والحياة وانما الشىء الذى يهمنى هو مجرد علم الطبيعه
Exact science والعلم التطبيقى
Applid science وعليه تركز قوتنا ، ونضعه فى الصف الأول ونعطيه أهمية
كبيرة فى نهضتنا الصناعية والعلمية الجديدة ، وبالعلم
التطبيقى وحده يستطيع العالم الاسلامى أن يقوم بأعبائه
كاملة .

ومن الواجب على أن أشير بصراحة الى أنه لا يصلح أمر العالم الاسلامى اذا بقى الشعب ساخطا على الحكومة والحكومة ناقمة من الشعب بل لا بد هنا من تعاون رجال الاصلاح والدعاة ، والمبشرين والمنذرين ، ولا يمكن ذلك الا اذا صلحت النية وصحت العزيمة ، واتحدت الغاية ، فعلى كل واحد منا أن يعمل فى حقله ويؤدى حقوق صاحبه ولا يبتغى رضا أحد ، ولا يرجو من رجل كلمة خير ، انما هو يعمل لله ، وهو وحده يجزيه بجهاده ، ومن عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها » .

ومن الواقع المؤلم أن تاريخ العالم الاسلامى بعد الخلافة والرحمة ، يبدو كأنه تاريخ صراع بين رجال الشعب ورجال الحكم ، مع أنهما ركاب سفينة واحدة وتوأمين لا يفترقان .

ان الفراغ الذى حدث فى قيادة الانسانية اليوم فراغ رهيب ، ولكنه فراغ لا يستطيع أن يملأ أحد الا العالم الاسلامى ، لأن العالم الاسلامى هو وحده مصباح الهداية والارشاد فى بحر الظلمات انه يحفظ فى وعائه ايماننا أفلس فيه الشرق والغرب ، ودستورا لا يقبل النسخ والنقد ، وتاريخا ناصعا لا تضارعه فيه أمة ، وحكمة ربانية هى مفتاح كل قفل وحل كل مشكلة « تنزيل من حكيم حميد » وذلك فى حين فرغت فيه يد الانسانية من كل مثل عال ، وتعليم خلقى ، فلا ترى فى وعائها الا قطعة من حجر أو شذرة من ذهب .

اسلام « المسالمين »

نحن كلنا مع الاسلام ، ما فى ذلك شك ،

نحن مع الاسلام دائما ، وبصفة عامة ، والحمد لله على
هذه النعمة العظيمة ، الباقية ، ان شاء الله .

ولكن . . . لسنا مع ذلك الاسلام الذى لا تضره حركة
سياسية ولا تنال منه دعوة اجتماعية « وانطلاقة ثورية » ،
ولو خالفت أهم قواعده وأولى مقوماته ، وينسجم مع سائر
الأوضاع والملابسات ولو عارضته من أول الطريق وبداية
الخط .

بين اسلام « مضمون » عقد عليه فى شركات التأمين ،
فلا تفسده خيانة ، ولا يفسده نفاق ، ولا يضره استهتار ،
ولا ينال منه اسراف ، ولا يكدر بحره الزاخر فجور ثقافى ،
وخلاعة أدبية وفضيحة فنية ، وعرى علمى ، وكفر منطقى ،
وانكار قومى ، وشذوذ سياسى ، لأنه اسلام مضمون مسجل ،
شهد بسلامته ومتانته وجودته « كبار تلاميذ الغرب ووكلائه
الموزعين فى الشرق » .

انه اسلام يسمى فيه المولود مسلما بحكم القانون
والوراثة ، ويبقى مسلما ليتمتع به بما شاء من منافع مادية

وأدبية ، ولا يحتاج الى تجديد فى ايمانه ، لأنه ولد من أبوين مسلمين وكفى .

انه اسلام جامد ، واقف ، لا ينقص ولا يزيد ، ولا يتحرك ، ورحم الله البخارى فقد عقد بابا تحت هذا العنوان « الايمان يزيد وينقص » وهو لا يعلم أن فى بلده وفى البلاد الاسلامية العريقة قوما لا تضرهم اشتراكية ماركس الملحدة ، وكفر لينين البواح ، ولا ينقص ايمانهم بشئ من هذه الاشياء . وغير هذه الاشياء .

انه اسلام سلبي ، لا يتدخل فى شئون المجتمع والحياة ، بل يترك الجبل على غاربه ، ويدع جيله تحت رحمة الموجات المادية الطاغية والأفكار السامة ، والأدب المائع ، فيترك المجتمع فريسة سهلة ولقمة سائغة أمام ذئاب الانسانية ووحوش الحضارة ، وقراصنة السياسة ، ولصوص الدين والأدب ، ويظن انه سينجو بنفسه وبأبنائه ، ويقول كما قال ولد سيدنا نوح عليه السلام « قال سأوى الى جبل يعصمنى من الماء » ثم لا يلبث أن يجرفه التيار المارد العنيف ، وتسوقه هذه «السلبية البريئة» الى كل ما عافه ، واستنكفه ، ومقته ، ومجه ، وحال بينهما الموج ، فكان من المفرقين .

ان هذا الاسلام يعيش جنباً الى جنب مع كل كاتب يبيع الهوى وينشر المكر ، ويروج بضاعة الفحشاء ، مع كل أديب يحسن الكتابة ، ويجيد الوصف ، ولو تناول على ذات الله عز وجل ، ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستمتع

بكل أناة وصبر وشرح صدر الى كل حوار لبق وكلام شيق ،
وحديث حلو ، ولو كان حالقا للدين ، ماحقا للايمان ، هادما
للأخلاق ، وينظر الى كل صورة على الشاشة ولو ذهبت بالحزم
والحلم ، واللب والعقل وأطار الرشد والصواب .

هذا الاسلام يمشى مع سائر التقلبات والموضات الفكرية
والمذاهب الاجتماعية والسياسية ، والحركات التقدمية
الثورية ، فى الهند الصينية أو فى أمريكا اللاتينية ، ومع
كل فريق من المغنين والمصورين الهائمين والحالمين والشذاذ
الأفاقين ، لأن « تمشى » هذه « الكلمة السحرية » تضع فى
يد هؤلاء القوم « ورقة مرور » يتعدون بها كل حد ، ويحطمون
بها كل سياج ، ويهيمون بها فى كل واد وناد .

انه اسلام « المسالمين » لا المسلمين ، فى تعبير أصح
وأفصح ، لأنه يسالم جميع الألوان والأنواع الحضارية الموجودة
فى العالم المعاصر ، ويتبع كل سبيل غير سبيل الرشد .

ان هذا الاسلام لا ينقص بالتهاون فى حقوق الله ،
والاستهانة بشعائر الدين ، فاذا وقع عنده صدام بين عبادات
وأعمال سياسية واجتماعية طغت الأعمال السياسية على
العبادات والصلوات ، ولذة التقرب الى الله والدعاء والمناجاة ،
واذا حدث له شىء أو شغله أمر من تحرير فى صحيفة أو
خطاب فى حفل ، أو قيادة لموكب أو رفع لمذكرة احتجاج أو
قضية فى برلمان ، أو حديث فى مأدبة ومسامرة فى عشاء أو
نزهة فى حديقة ، وحتى فنجان شاي بين الأصدقاء ، نسي ما

عليه من حق الله ، وهو فى دوامة الأشغال والنشاطات ، وفى المشكلات والأزمات أولى بالطاعات وأحق بالدعاء والتضرع والمناجاة ، وأحوج الى العبادة والعبودية من الأوضاع الهادئة والظروف العادية ، فلا اعتبار بطاعة لم تصطدم بما يهواه الطبع ، وعبادة لم تشق على النفس ، ولا قيمة لكأس لم تطفح ، وعين لم تفض .

انها درجات فى الاسلام ، ولكنه على كل حال اسلام « المسالمين » ، أما اسلام المسلمين فهو لا يقبل « على ما يرام » ولا يؤمن بمبدأ « الدين للديان والوطن للجميع » ولا يجمع بين الخطب الدينية فى المحافل ، والترفيه بالبرامج العارية الراقصة ، الفاسدة المفسدة بعد صلاة العشاء بين أولاده وأفلاذ أكباده .

انه لا يؤمن بالجمع بين حضارة الغرب وعقيدة الاسلام ، وبين الزى الاسلامى والحياة الأوربية ، والجمع بين الحديث والقرآن وأفكار لينين وسارتر وماوتسى تونغ .

انه لا يؤمن بالجمع بين عبد الباسط وأم كلثوم ، والجمع بين المصاحف المرتلة والموسوعات الفقهية ، وأغانى صباح ، وفيروز وشادية ، أو الجمع بين « المجتمع » و « البلاغ » و « البعث الاسلامى » وبين روز اليوسف والموعد والطيعة .

انها صورة جزئية ، وصورة بسيطة ، وأمور ليست بذات أهمية عند البعض ، ولكنها تصور ذلك الاسلام الذى أشرنا اليه كل التصوير ، اسلام من « ماركة ممتازة » لا يؤثر

فيه شيء ، ولا يعتريه البلى والوهن ، ولا ينقص بنقصان شرع
ودين ومسألة واستسلام أو انسياق تام مع تيارات المادة
والمعدة ، واتجاهات الغرب والشرق ، واليمين واليسار .

نحن مع الاسلام فى كل مكان ، ما فى ذلك من شك ،
الفرعى ، المتطفل .

نحن مع الاسلام القائد ، السائد ، المعلم ، الموجه ،
ولكن مع الاسلام المستقل الأصيل ، لا الاسلام التابع ،
لا الاسلام الذى يتلقى الأوامر والتعليمات من « الباب العالى »
فى موسكو ، و « البيت الأبيض » فى واشنطن .

مع اسلام لا ينكر العلم والسياسة ، بل ان العلم
والسياسة فيه عبادة ، ولا يهمل الطاعة والعبادة ، فهى مفزع
المؤمن ومأمنه ، وحصنه ومعقله ، وأكبر همه وغاية مناه .

مع اسلام مناضل مكافح متصل الحلقات بجميع أجزاءه ،
وثيق العرى بجميع حركاته وتنظيماته ، عميق الحب بجميع
أبنائه ، كثير الاعتراف بالفضل ، عظيم التقدير لذوى الكفايه
والاخلاص ، كثير الشكر على المساهمة والتعاون ،

هذا الاسلام العميق الواسع ، المشرف النير ، الكامل
الشامل ، الأصيل المستقل ، المكافح المناضل .

الاسلام الذى يتكلم ولو كره الصليبيون الجدد ، الحمر ،
والبيض ، والصفير ، ويرفع صوته لتنظيم المجتمع والحكم ،

والأسرة والعائلة على أسس نقية واضحة من السيرة الطاهرة،
والشريعة الخالدة ، والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

هذا الاسلام هو العنصر الأقوى في معركتنا الكبرى ،
وردنا الحاسم على هوة الفساد ، ودعاة الانحلال ، والمتآمرين
على سلامة البلاد ، ونعمه الأمن والهناء باسم الحرية والعلم
والتقدمية والاشتراكية والثورية .

طبيعة هذا الدين

هذا الدين فى أساسه ثابت لا يتغير ، كامل لا ينقص ، كل لا يتجزأ ، انه لا يحتاج الى تطوير ولا يقبله ، ولا تؤثر فيه الأحداث الاجتماعية والتطورات الحضارية والانقلابات الفكرية والثورات السياسية ، أيما تأثير ، لانه بنى على الوحي السماوى ، وتنور بنور كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعاش تحت ظلال النبوة التى لا دخل فيها للآراء الانسانية التى تخطىء وتصيب ، والتجارب العلمية التى تنجح وتخفق ، والافهام البشرية التى تختلف مداركها ومستوياتها ، وقد صور القرآن نفسية هذا الدين وطبيعته ، وثباته فقال : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء(١) » .

وقال فى موضع آخر :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو

السميع العليم(٢) » .

• (٢) الأنعام : ١١٦

• (١) ابراهيم : ٢٧

انه وصف الدين بالثبات والقرار ووصف المذاهب الاخرى بالزوال وعدم الاستقرار كنقطة فاصلة بينهما ، لان هذه المذاهب الوضعية والصناعية والسطحية لا جذور لها في داخل الارض وليس عندها الا ما يبدو للناظر في ظاهر الارض من زخرف القول غرورا ، وذلك عبر عنه القرآن في موضع آخر فقال : « فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا » (١) .

اذا كيف نقول : ان الدين يتطور مع الزمن ؟ والجواب أنه يتطور كما تتطور الشجرة المباركة ، الحية النامية ، مع المحافظة على أصلها وجذورها ، ان الله سبحانه لم يشبه هذا الدين في ثباته واستقراره بصخرة صماء لا نمو فيها ولا مرونة ولا حياة فيها ولا خصوبة ولا نعومة فيها ولا جمال ، لا انه - كما وصف كتاب الله - شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وذلك دليل باهر من دلائل الاعجاز في القرآن ، واستيفاء هذا الدين جميع حاجات الانسان في كل زمان ومكان .

فما هو الأصل الثابت في الدين الذي لا يقبل التغيير والنسخ والتبديل في أى حال من الأحوال ، ثم ما هو أكله الذي يتغذى به الأصل وينمو على أساسه ويستقى الماء والخصب بهذا الأصل الثابت والنبع الصافى العميق؟ والجواب

(١) النساء : ٧٦ .

أن أصله الثابت هو التوحيد ، والعبودية الحاصلة لله ،
والايمان بالغيب والنبوة واليوم الآخر .

أما أكله فهي الدرجات التي ينالها المؤمنون - بفضل
من الله ورحمة - في الدين والتقوى ، والعلم والحلم ، والايمان
والاحتساب ، وحسن البلاء في الدعوة والاصلاح ، انها
النفحات الالهية ، والعلوم الربانية ، والمعارف الدينية ،
والجهاد والاجتهاد لنشر رسالة الاسلام في الآفاق ، واجراء
شرائعه على البلاد والعباد ، والذب عن حوزة الشريعة الغراء ،
وصيانة هذا الدين من « تحريف الغالين وانتحال المبطلين
وتأويل الجاهلين » .

انها المحافظة على نقاء الاسلام وصفائه ، وأصالته
واستقراره ، وازالة الغبار عن جوهره ، والوفاء به ، والولاء
له ، والثبات عليه ، والاستماتة دونه ، وايناره على كل ما عداه
من مذاهب وديانات ، ونظم وحركات، رضى الناس أم سخطوا
وأقبلت الدنيا أم أدبرت « درجات منه ومغفرة ورحمة وكان
الله غفورا رحيمًا » (١) .

هذا هو الأساس المقرر الثابت في الاسلام ، المفهوم
المعلوم عند الصحابة الكرام ، والمسجل المضمون في الحديث
والقرآن ، والمطلوب من العبد المؤمن الذي لا يبتغى غير وجهه

(١) النساء : ٩٧ .

الله ولا يجرى وراء أهوائه وشهواته وميوله ونزعاته أن يعرض على هذا الأساس بالنواجذ فهي المحجة البيضاء التي ورد ذكرها في الآثار على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يعرف - بنور من ربه وفراسة إيمانه - ذلك الخط الدقيق الذي يتغير به اتجاه المرء من جهة إلى جهة وينحرف به - وهو لا يشعر - عن جادة الصواب ، والصراط المستقيم الذي يسأل الله الهداية إليه كلما قرأ الفاتحة في الصلاة .

وخط الانحراف خفي دقيق لا يطفح عليه إلا من قذف الله في قلبه نوره وأراد به خيراً وهياً أسبابه ، والآيات التالية تدل على بعض مواضع الزلل والنقصان التي تزل عندها الأقدام وهي تدور حول الإعجاب بالقول الظاهر المزخرف ، والإعجاب بالأموال والأولاد ، والركون إلى الطغاة والظالمين ، وتلبيس الإيمان بالظلم أو الهوى وغير ذلك من المفاهيم والإشارات .

١ - ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (١) .

٢ - وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٢) .

(١) البقرة : ٢٠٤ .

(٢) الزمر : ٤٦ .

٣ - ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا (٣) .

٤- ولا تركزوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار(٤) .

٥- ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون(٥) .

٦ - ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم(٦) .

٧- قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة(٧) .

٨ - الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون(٨) .

٩ - أما أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين(٩) .

انها وأمثالها من آيات كثيرة يزخر بها القرآن تدلنا على

(٣) النساء : ١١٦ .

(٤) هود : ١١٤ .

(٥) التوبة : ٨٦ .

(٦) البقرة : ٢٢١ .

(٧) الاعراف : ١٣٨ .

(٨) الانعام : ٨٣ .

(٩) الزخرف : ٥٣ .

خطوط الانحراف ، على النقاط التي ينشأ منها الزيف ،
والشغرات التي يتسلل منها الفساد ، والمواضع التي تبذر
فى نفوسنا بذور الاعجاب بالجاهلية ، ومفاهيمها وأقدارها ،
والركون الى الظالمين أو الى الحضارة التي تقوم على الظلم ،
والانفتاح على الدنيا أكثر من الانفتاح على الآخرة ، والاقبال
على الخالق ، والاتصال بهذا الكون أكثر من الاتصال بفاطر
الكون ، والايمان بالمشهود العاجل أكثر من الغائب الآجل ،
وقله الخوف من النار وقلة الرغبة فى الجنة ، والتفكير فى
تنظيم هذه الحياة وتحسينها واصلاحها أكثر من التفكير فى
الدار الآخرة وثوابها وعقابها ، والاعتناء بالمجموعة أكثر من
وحداتها ، والحرص على جمال البناية أكثر من الحرص على
صحة لبناتها ، والاهتمام الزائد بظاهر السفينة وطلاتها
أكثر من الاهتمام بألواحها ، والتوجه الى انقاذ البشرية كلها
أكثر من انقاذ نفوسنا وأهلنا وعشيرتنا .

يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا(١) .

يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل
إذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم
تعملون(٢) .

(١) التحريم : ٧ .

(٢) المائدة : ١٠٦ .

ويظل الانسان ينحرف أو يبتعد عن هذا الخط النبوي حتى ينسى نفسه ، وينسى غاية أعماله في زحمة الاحداث والأشغال ويؤخذ بالمظاهر ويتلهى بالاشكال ، وتراه بعض الأحيان يخالف أبسط قواعد الدين ويخرج على أصالته ، ويخالف مبادئه ومقوماته باسم مصلحة الدين وحكمة الدين وتحت شعار « العقل العملي » و« استراتيجية الدعوة » بعض الحين .

ثم تتغير الموازين والمقاييس بصورة تدريجية وبحركة لا ارادية ، وتفقد الامانة والايمان ، والنزاهة والصدق ، والاخلاص والنية وسلطانة وحرمته في القلوب ، حتى يقال - كما جاء في الحديث - « ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » (١) .

انها حالة نفسية تنتاب الدعاة المثقفين والعاملين المخلصين في بعض الحالات فيفسد عليهم اخلاصهم مع الله ، وصلنتهم بالله ووفائهم لهذا الدين ، وانباعهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلق قلوبهم بالصلاة والدعاء (٢) ،

(١) متفق عليه .

(٢) وقد يبلغ الأمر ببعض هؤلاء وتطغى عليهم الشكليات والمواعيد واللقاءات الى حد تراهم لا يتخمسون للصلاة تحمس من سمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت قررة عيني في الصلاة « وقوله « أرحنا يا بلال » وقد تفوتهم الناحية التعبدية وتزكيه النفس تماما ، وقد روى والدي رحمه الله قصة طريفة تدل على هذا الواقع الأليم ، قال أنشئت هناك جمعية لإقامة الصلاة قبل زمن يسير ، وكانت مؤلفة من بعض « المثقفين » وعقدت

وتحرقهم - تحرق المفجوع في وحيدته أو في رأس ماله - على
مصير الانسانية الحائرة وعلى مستقبل هذا الدين ومصير
الدعوة ، واحترامهم وحبهم واجلالهم للصحابة والتابعين حبا
واجلالا يليق بشأنهم ، والثقة بفهمهم للدين ونزاهتهم
وارتقائهم عن مستوى الشبهات أو مستوى عامة الرجال تمام
الثقة ، والاعتزاز باقتداء آثارهم كل الاعتزاز ، والتشبع
بحب سيدنا وفائدنا ومعلمنا وشفيعنا محمد بن عبد الله
القرشى الهاشمى صلى الله عليه وسلم حبا يفوق على حب
النفس والمال والأهل والولد مطابقا لما جاء في الحديث الصحيح
عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون
أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » (١) فيجب على كل
عامل مخلص لهذا الدين أن يتجنب هذه المزالق التي تعترض
طريقه في بعض مراحل الدعوة ولا تسمح له أشغاله المتزاحمة

الجمعية حفلتها الأولى بعد صلاة العصر ، فلما حانت صلاة المغرب وأذن المؤذن
لم يحرك ذلك ساكنا حتى لم يتمالك هو نفسه ، وكان الوقت قد تأخر
وسأل زعيم القوم أن يختموا الحفلة ويتوجهوا للصلاة ، فقال مستغربا أو
ليست هذه الحفلة في سبيل الصلاة ؟ واشتغل القوم بدراسة الصلاة ومعانيها
والضرورة اليها وتأثيرها في المجتمع المسلم - وانصرف هو وحده الى المسجد ،
يشكو بثه وحزنه الى الله .

(١) كان شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبال موقفا كل التوفيق في فهم
هذه النكتة وضرورة الاتصال الوثيق بشخصية النبي اذ قال : اننا نعتقد
أن الاسلام دين أوحى الله به ولكن وجود الاسلام كمجتمع أو أمة يتوقف
على شخصية محمد صلى الله عليه وسلم .

(انظر « النبي الخاتم » لسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسينى الندوى)

ونشاطاته المتلاحقة ورحلاته المتصلة المتوالية بالتأمل فيها والاحتراز منها ، وتمييز المفسد من المصلح ، والضار من النافع .

ان طبيعة هذا الدين غير طبيعة الدعوات الأخرى ، ومنهجه غير منهجها ، وأسلوبه غير أسلوبها ، ولغته غير لغتها ، وسحنته غير سحنتها ، ونبرات صوته غير نبرات صوتها ، وأتقدم خطوة فأقول ان قسما وجهه غير قسما وجهها ، وكيف لا يكون ذلك فدعوة الدين هي الدعوة الى الآخرة ودعوة المذاهب الوضعية هي الدعوة الى الدنيا ، دعوة الدين الى تحسين الحياة الطويلة الباقية « وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١) ودعوة الحركات السياسية والمذاهب الاقتصادية والسياسة الى تحسين الحياة القصيرة الفانية « وتتخذون مصانع لعلكم تخلصون » (٢) .

فينبغي أن يتجلى هذا الفارق الأساسى والخط الفاصل المميز بين الدعوتين فى سائر أجهزة الدين وفروعه وأجنحته ونشاطاته وتصرفاته وفى نظرتة العامة الى الحياة والأحياء ، بل الى جميع الأشياء ، حال من جاءه برهان من ربه وذاق حلاوة الايمان وفتح الله عليه باب المعرفة والاحسان وأوتى نعمة الفرقان بين الحق والباطل ، فتكيف سلوكه وخلقه

(١) الأنعام : ٣٢ .

(٢) الشعراء : ١٢٩ .

ونشاطه وجهاده بهذا الايمان ، وظهر ايمانه بالغيب على ايمانه بالمشهود ، واقباله على الدار الآخرة على اقباله على الدنيا ، وطمعه فى النجاة من النار على طمعه فى الرقى والازدهار والفتح والانتصار ، اذا كان ذلك من غير قلب سليم ، ونية صالحة ، وعاطفة ايمانية ودعوة ربانية وروح نبوية وفى حدود معلومة واضحة نطق بها الكتاب والسنة ، وحددتها الشريعة السمحة الغراء ودرج عليها الصالحون وأجمع عليها العلماء الربانيون ، ولم تدنسها شوائب الحضارة المادية ، وسموم الثقافة الغربية والافكار اللادينية .

ان القرآن حرص دائما على أن يبقى هذا الفرق واضحا لكل ذى عينين وحتى فى الأشياء التى تتعلق بالادارة والبناء والتصميم (٣) ، والحياة المنزلية والآداب اليومية والمعيشة العامة لتظل الأمة الاسلامية شامة بين الناس لا فى الشارة واللباس والاسم والعنوان ولغة الحديث والقرآن بل فى الذوق والوجدان ، فى العقل والقلب ، فى الضمير ومكونات الصدر، وفى سلوك الفرد وسلوك الجماعة ، وسلوك الدولة ، وسلوك الامه ، فى سائر مجالات الحياة وفروعها .

وهنا نقطة أخرى لا ينبغى اغفالها وهى أن طبيعة هذا الدين « قوة ذاتية » أو قل اذا شئت نورا الهيا ومسحة من

(٣) اقرأ تفسير قوله تعالى فى سورة يونس : « واجعلوا بيوتكم قبلة

الآية .

جماله - جل وعلا - وهى غنية بهذه القوة أو بهذا النور عن استيراد أى « طاقة » أو وسيلة معنوية من الخارج لتقريب مفاهيمه ومنهجه وسلوكه الى أفهام البشر وذلك ما شعر به واطلع عليه مشركو مكة « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (١) وكانوا يمنعون أولادهم عن حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى لا ينجذبوا الى هذا الدين ، وقصة ايمان سيدنا عمر بن الخطاب وتلاوة سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنهما التى كانت ترق لها القلوب القاسية الجافة ، نماذج رائعة لهذه القوة الذاتية فى المنهج الاسلامى الأصيل ، يدل على ذلك دلالة واضحة ما رواه ابن كثير فى تاريخه فقال : « لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكها بيده وخاض الماء ومعه بعيره فقال أبو عبيدة قد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا ، قال فصك فى صدره وقال لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلکم الله » (٢) .

وليس المراد من هذا القول - كما يشعر البعض -

(١) حم السجدة : ٢٦ .

(٢) البداية والنهاية ٦٠/٧ وزواه الحاكم فى المستدرک وقال صحيح

على شرطهما .

جاهلية سافرة أو ألوانها المكشوفة لا بل انه يعم سائر عروقها
وخطوطها وألوانها وبصماتها في الصدور .

هذه القوة الذاتية في الاسلام ، ومعرفة طبيعته ،
والوفاء بمنهجه ، والثبات على جادته واستعمال قوته جعلت
الصحابة والتابعين والشهداء والصالحين ومن تبعهم باحسان
الى يوم الدين في غنى عن كل منهج جاهلي ومظهر جاهلي وخط
جاهلي .

ان طبيعة هذا الدين وروحه تقتضى أن نستعمل قوته
الذاتية بدلا من الاعتماد على وسائل القوة والتأثير الخارجية
اعتمادا زائدا ، تاركين هذه القوة الكامنة في الصدور وراء
الظهور ، وأن نتقدم بحمل لواء هذا الدين ونشر دعوته
باختيار المنهج النبوي في الدعوة والهداية والقيادة، وأسلوبه
الممتاز في الكفاح لدين الله والجهاد لاعلاء كلمة الله ، والمحافظة
على أصالته ومعرفة طبيعته ، وتذوق حلاوته وصيانة روحه
المشرقة وصفحته البيضاء التي تراكم عليها الغبار بتأثير البيئة
الفاسدة ، والجو الموبوء ، ووجودنا بين الجاهليات الحديثة
وتياراتها العنيفة التي تلاحقنا من كل جانب .

لقد جاء في الحديث : يأتي على الناس زمان الصابر فيهم
على دينه كالقابض على الجمر (١) .

(١) رواه الترمذي عن أنس .

وأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة على آخر هذه
الأمّة إيمانهم بالغيب وثقتهم بوعد الله حينما سأله أمين هذه
الأمّة أبو عبيده بن الجراح فقال :

يا رسول الله أحد خير منا ، أسلمنا وجاهدنا معك قال :
نعم ! قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى (١) .

ومن ثم فإن مشكلاتنا فى هذا الطريق ومحافظةنا على
هذا التراث النبوى العظيم من العلوم والأعمال وحرصنا على
روح هذا الدين النقى الخالص والعض على كل ذلك بالنواجذ
هو نفسه يدلنا دلالة واضحة على صحة الهدف والاتجاه .
وسلامة الأفكار والأرواح ، وهو كفيل بالفلاح فى الدنيا
والنجاة فى الآخرة ، ان شاء الله .

وقد بشر لسان النبوة هذا الجيل المؤمن بكونه على الحق
وسلامته عن الفتن والأخطار ، وثباته على الجادة الى يوم القيامة
فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين
على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم
كذلك (٢) » .

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه مسلم عن ثوبان .

أهلا بهذه المؤتمرات .. ولكن !..!

نشأت في العالم الاسلامي(*) في هذا الوقت رغبة مخلصه أكيدة في دراسة الاسلام دراسة وافية في مختلف نواحيه ، والدور الذي يمكنه أن يلعب في تثبيت دعائم العالم الاسلامي ، واستقراره ، وبروزه في الوجود كحقيقة ثابتة وواقع حي ، وعقد مؤتمرات وندوات لتحقيق هذه الغاية ، وكان مؤتمر « لاهور » الكبير (١) نتيجة من نتائج هذه الرغبة ، وأثرا من آثارها .

وان الغاية من وراء هذه المؤتمرات - كما يبدو منها - هي شرح الفكرة الاسلامية أمام الطبقة المتعلمة في العالم الاسلامي والقائمين بأمره ، وايضاح ما تحويها هذه الفكرة من صلاحية مدهشة لحل مشاكل الانسان ، مشاكل السياسة والاقتصاد ، والأدب والتاريخ ، والمدنية والعمران ، وتقديم أبحاث مبسطة متنوعة في كل ناحية من نواحيها ، وذلك ما آمننا به جميعا ، واتفقنا عليه ، ولكن أحرص أن لا تفوتنا - ونحن في مرحلة البناء والتعمير - البنية الأساسية ، فتأتي

(*) هذا المقال كتب عن مؤتمر لاهور الاسلامي الذي انعقد في يناير ١٩٥٨ هـ لدراسة الشؤون الاسلامية .

عمارة معوجة ، مهدد بالأخطار في كل حين •

لذلك أرجو من القائمين بأمر هذه المؤتمرات والعاملين لها أن يكونوا أعمق تفكيرا ، وأكثر واقعية في معالجة هذه الأمور ، حتى لا تطفئ ناحية على ناحية ، وتفتت بعضها على الآخر على الاطلاق •

ما هي أزمة العالم الاسلامي اليوم شعبا وحكومة ؟ اذا فكرنا في هذا الأمر عن طريق عملي غير طرفنا وأساليبنا المعروفة رجعنا منه بنتيجة غير النتيجة التي رجع بها كثير من الباحثين والعلماء ، ان أزمة العالم الاسلامي أنه لا يعمل بعشر ما يعلم ويؤمن به ، وأن هناك هوة منفجرة بين الحياة النظرية والحياة العملية في أمتنا المسلمة •

هنا كثير من الناس يعلمون أن الصلاة مفروضة على المسلمين ويعلمون أكثر من ذلك ، ولكنهم لا يصلون ، أو على الأقل لا ينشطون لها ، كما يوجد هنا رجال يكتبون في فلسفة الزكاة ولا يؤتون الزكاة ، لا أقول أن الجميع كذلك ، ولكن ذلك يدل على مبلغ التفاوت بين علمنا وعملنا •

اني لا أقلل قيمة هذه الجهود العلمية والاسلامية ، ولا أهمل شأنها ، فلا شك أن هذا الكفاح العلمي قد أدى دورا كبيرا في منع الشباب المسلم الجامعي من الوقوع في شبكة الشيوعية والانجذاب الى الحضارة المادية ، وله فضل كبير لا ينكر في هذه الناحية ، ان الشيء الذي أريد أن ألفت اليه

الأنظار هو أن هناك مسألة أهم وأخطر للعالم الاسلامى ، وهى مسألة التوفيق بين عقله وعاطفته ، وبين عقيدته وحياته ، وبين علمه وعمله ، والبحث فى امكانيات تنشيط قواه العملية للسير فى هذا الطريق « طريق الايمان الايجابى » اذ اصح هذا التعبير .

ان الكتب والمؤلفات التى نشرت فى شرح الفكرة الاسلامية من نواح عديدة ، موجودة مطبوعة ، ميسرة متوفرة ، فهل غيرت هذه الكتب تغييرا ما فى اتجاه العالم الاسلامى دولا أو شعوبا ؟

وهل نجحت هذ المؤلفات العلمية والأبحاث المقنعة فى ايجاد الايمان الحى والحياة الاسلامية العملية فى المجتمع الاسلامى ؟ الجواب فى النفى ! لا أشك للحظة أننا فى حاجة دائما الى مزيد من التقدم العلمى فى هذا المجال ، ومزيد من الجهود العلمية نظرا الى التطورات الحديثة فى المجتمع والحياة ، ولكن يجب أن نتأكد أننا لم نعمل بعد على كثير مما عرفناه ، وأننا لم نطبق بعد على حياتنا أبسط المبادئ الاسلامية التى نعرفها ويعرفها كل مسلم متعلم .

اذا كانت المسألة مسألة دراسة فقط أو مسألة تقديم بحث أو وضع دستور فحسب لكان ذلك أهون علينا ، ولم يكن هناك داع ولا مبرر لارهاق أنفسنا عبثا ، والبحث عن أساليب أخرى ولكن القضية أجل منه ، انما هى قضية ايجاد حل لرغبة المجتمع المسلم عن مقومات الحياة الاسلامية

ومطالبها ، واهماله كثيرا من واجباته الخلقية والدينية رغم
هذه المؤلفات والأبحاث والمؤتمرات !

ان التوفيق بين هاتين الناحيتين المهمتين والسير بهما
هو الحل الوحيد لهذه المشكلة الكبرى ، بل اسمحوا لى أن
أقول : ان الروح المعنوية والقوة العملية فى هذه الأمة هى فى
الواقع أساس كل كفاح ، ومنبع كل خير ، وباعث كل تغيير
فى حياتها ، فاذا كانت هذه القوة الكبرى نائمة فيها فلا رجاء
فى رقيها ونهضتها ، وبعثها من جديد .

فالواجب علينا أن نثير أولا قلب هذه الأمة ونجذبها
عمليا الى الاسلام مع الاستمرار فى جهودنا لاقتناعها عقلا
ودراسة بتفوق الفكرة الاسلامية من نواح شتى .

وهذا هو الشيء الذى كان ينقص مؤتمر « لاهور » ويبدو
أن المساهمين فيه لم يعيروا هذه المشكلة الكبرى العناية التى
تستحقها ، ولم يعطوها المكان اللائق بها ، وهى مؤاخذتنا
عليه ونصحنا له مع ايماننا بضرورة هذه المؤتمرات ونفعها ،
وتمنياتنا المخلصة لنجاحها وازدهارها .

موقف المسلمين ازاء الحضارة الغربية

كانت نهضة أوروبا واستيلائؤها - فكريا وسياسيا
واقصاديا - على العالم المعاصر ، حادثا كبيرا بالنسبة للعالم
الاسلامى ، الذى لم يعد نفسه لمواجهة هذا الواقع المفاجئ ،

وبات في سبات عميق ، لم يحسب لهذه الاخطار المحسدة حسابا ، ولم يعر لهذه العاصفة الفكرية الشديدة التي بدأت تهب من الغرب عناية وانتباها ، حتى اذا هجمت عليه ، وجاست خلال دياره ، وتمكنت في عقر داره ، وجد نفسه بين موقفين .

الموقف الأول ، هو موقف المستسلم الخاضع والمقلد الأعمى والتلميذ البار ، والموقف الثاني ، وهو موقف المعادي المخاصم ، أو موقف المفتوح المقهور الذي لا يريد الا الثأر ، ولا يعرف لذة غير لذة الانتقام ، ولا يرى في عدوه أى وجه من وجوه الخير ، ولا أى جانب من جوانب الكمال .

وكان لكل موقف أتباع وأنصار عرفوا بميولهم واتجاهاتهم ومناهجهم وأساليبهم . فأصبح الموقف الأول شعار المستسلمين الخاضعين ، المؤمنين بالغرب أشد الايمان ، والمتغنين بمجده وعظمته في أجمل النغمات والألحان (١) ، وأصبح الموقف الثاني شعار القادة السياسيين ، والزعماء الوطنيين الحانقين الساخطين ، الثائرين الموتورين (٢) .

(١) ترى نموذج هذا الأسلوب الأدبي ، والمنهج الفكرى في كتابات المرحوم السيد أحمد خان ، زعيم حركة التعليم الحديث في الهند وأصحابه وتلاميذه ، وفي كتابات رفاة الطهطاوى بك ، وقاسم أمين وأضرابهم في مصر .

(٢) يمثل ذلك مدرسة السيد جمال الدين الأفغانى ، ومقالات « العروة الوثقى » .

أما رجال الموقف الأول ، فكانوا أصحاب فكر محدود ،
وعقلية قاصرة لا تتعدى حظها المرسوم وحدها المعلوم ، ولا
تنظر الى أفق أوسع ، أو غاية أسمى ، ولا ترى الى ما فاق فيه
الغرب أقرانه من مظاهر القوة ، أو أسباب الراحة والترف ،
وترى أن الايمان بصلاحيه الغرب للحكم والقيادة ، وتوجيه
ركب الحضارة حقيقة لا ينبغي أن نكابرها فيها ، أو نتجاهلها ،
أو أن انتصار الغرب على الشرق حكم القدر ، وناموس الكون ،
وتدرج التاريخ ، لا فائدة من مواجهته ومقاومته ، أو مقارعته
بالحجة والبرهان ، أو بالسيف والسنان ، ولا بد لنا من
الخضوع أمامه ، وقبوله على علاته - إذا كانت له علات -

ان رجال هذا الموقف يؤمنون بأن الغرب يفوقنا فى كل
شئ ، لا فى الصناعة والآلة والتنظيم والادارة فحسب ، بل
فى الثقافة والحضارة كذلك ، انهم آمنوا بغاياته وأهدافه
وآدابه ومذاهبه الفكرية ، والأدبية والسياسية ، والاجتماعية ،
كما آمنوا بوسائله ، وأسبابه ، وماكيناته وأدواته وعلومه
التطبيقية والصناعية والآلية ، فكانت عاقبة ذلك أنهم لم
يرجعوا منه بشئ وخسروا كل شئ ، خسروا منبع قوتهم ،
وسر حياتهم ، وغاية وجودهم ، ولذة كفاحهم ، الدين ، وفانتهم
الصناعة وما يمتاز فيه الغرب من منابع القوة والسيادة ،
فرجعوا بخفى حنين ، لا دين ولا علم ، ولا وسيلة ولا غاية ،
بلى تقليد ومحاكاة واستسلام وانقياد ، وخضوع وخنوع ،
ورضى بما يلقي اليهم من فتات المائدة ومزدول الطعام .

انهم ينظرون الى الغرب كما ينظر تلميذ الى أستاذه ومعلمه ، يتلقى ضربته بصبر وأناة ، ويتلقى توجيهاته ، ودروسه بجد واجتهاد ، ثم يرددها ويستحضرها أثناء الليل وأطراف النهار ، وهذا موقف لا محل فيه للنقد والتوجيه ، والروية والتفكير ، ولا يجوز فيه المناقشة والجدال ، مناقشة الند للند ، وجدال الفريق للفريق ، فلا غرابة اذا لم نر من بين هؤلاء من يترفع عن هذا المستوى ، ويلقى الغرب وجهها لوجه . ويقابله على صعيد العلم والفكر ، وعلى صعيد المساواة والشرف ، والاعتداد بالنفس ، والاعتزاز بما عنده من دين وأخلاق .

أما رجال الموقف الثانى ، فبدوا عاطفيين ، تائرين نحو هذه المشكلة - مشكلة الغزو الفكرى واستيلائه السياسى - وتكرست جهودهم فى غالب الأحوال على محاربتة سياسيا أو عسكريا ، انهم لم يحاولوا أن يعرفوا عدوهم ، ويطلعوا على دخائله وأسراره ، وسيآته وحسناته، وجوانب القوة والضعف فيه ، ولم يفرقوا بين ما يفوق فيه علينا من علوم وصناعة وسلاح ، فيستفيدوا به ، وما يفتقر فيه من أهداف كريمة ، وعقائد سليمة ، ودوافع نبيلة ، ورسالة نقية صافية ، حتى يفيضوا عليه شيئا مما أتاهم الله .

وكانوا حانقين عليه ، كارهين له ، بدلا من أن يكونوا حريصين على انقاذه ، متوجعين لمصيره ونهايته المتوقعة الأليمة، ورأوا فى الغرب الظافر المنتصر ، محتلا لأرضهم ، غاصبا

لاملاكهم ناهبا لأموالهم أكثر من أن يروا فيه محتلا لمعتقداتهم،
غاصبا لايمانهم ، ناهبا لتراثهم الاسلامى ودعوتهم العامة
الحالدة ، الصافية الطاهرة ، الحنيفة البيضاء التى لا تعرف
التنازل والمساومة والاستسلام ، ولا تنسجم مع المفاهيم
الجاهلية أيما انسجام .

فكانت النتيجة أن وجد الغرب سبيلا الى الاحتلال
الفكرى ورأى نفسه حرا لبث سمومه فى الجيل الجديد ،
والشباب الجامعى المثقف ، والبعثات الخارجية ، والوفود
العلمية ، ورجال الصحافة والأدب ، من غير أن يدركوا خطره
 ويفهموا حقيقة معركته ومكان رميته ، ونوع سلاحه ، فضلا
عن أن يقفوا فى وجهه وقفة الحر الكريم ، والأستاذ الخبير
العليم ، ويفكروا فى مديد الغوث والنجدة اليه ، وانقاذه من
الهوة العميقة التى تورط فيها ، والمستنقع الذى يغوص فيه
الى أذنه .

فبينما اندمج الأول فى هذا الخضم من الأفكار الغربية
وتياراتها السياسية والاجتماعية ، حاول الثانى أن يعبره من
غير أن يتعلم السباحة ، ويطلع على العمق والمساحة .

وبجانب هذين الموقفين المتطرفين موقف آخر ، هو
موقف المتأمل الدارس الذى لا ينكر الغرب برمته ، ولا يقبله
على علاقته ولا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لاسعاد هذه
الحياة ، وما اخترعه من مذاهب باطلة ، وثقافات سخيفة ،

وآداب مبيدة للدين والأخلاق ، والمبادئ الانسانية الكريمة ،
والصفات النبيلة .

ان أصحاب هذا الموقف لا يعتبرون ما جاء به الغرب
شرا محضا ، أو خيرا محضا ، فلا يستسلمون له ، ويندمجون
معه ، ولا يواجهون ضغطه السياسى ، واستعماراه الاقتصادى
أو غزوه العسكرى فحسب ، بل انهم يحاربون أولا تلك
الروح المادية ، روح الجشع والأنانية وعبادة البطن والمعدة ،
التي تسربت فى كيانه ، وتغلغلت فى أحشائه وجرى منه
مجرى الروح والدم ، فيأخذون ما صفا من هذه العلوم ،
ويدعون ما كدر ، يستفيدون من أدواته ومعلوماته وعلومه
وصناعاته - التي لا يحتكرها شعب ولا تختص بها أمة -
ويتبرؤون من حضاراته وثقافته وآدابه التي تحدد المفاهيم
والأهداف ، وتضع القيم والأقدار ، وتكيف المجتمع والحياة .

انهم لا يحسبون - شأن بعض البسطاء فى الشرق
الاسلامى - ان هذه الروح المادية المتحررة المنطلقة من كل
قيد ، الحارقة لكل قانون ، هى السر وراء هذه النهضة المادية
والصناعية التي فاق فيها الغرب على أترابه ، بل يعتقدون أن
السر وراء هذه النهضة هو التنظيم والادارة ، والصناعة
والتجارة والعلوم التطبيقية التي لا صلة لها بمناهج الحياة
وأهدافها ، ولا دخل لها فى وضع صورها وأشكالها ،
فيشيرون بذلك ، ويعترفون به فى شجاعة وثقة ، ويشيرون
على الغرب بالتمسك به والمحافظة عليه ، واقتباس الدين

والاخلاق ، وتعاليم الأنبياء من الشرق ، حتى يضم قوة الى
قوة ، ويحقق رسالة المدنية والتقدم .

انهم لا يقفون في وجه الغرب كالعدو اللدود أو كالحاقد
الثائر وكالناقد الساخر ، ولا كالتلميذ الخاشع ، والرقيق
الخانع ولا يطاطئون له رؤوسهم كالمصابين بمركب النقص
والشعور بالهوان ، ويقولون آمنا وصدقنا ، سمعنا وأطعنا ،
بل يقولون في صدق وجرأة ، وقوة وصرامة ، أصبت هنا ،
وأخطأت هناك ، وكان الصواب أهون وأيسر ، والخطأ أدهى
وأمر ، لأن الصواب هو هذه الوسائل والأسباب ، والعلوم
والصناعات ، والادارة والتنظيم ، وهي لا تضر الانسان
كثيرا ، اذا فاتته ، أما الخطأ فهو منهجك في استخدام هذه
القوة وهذا العلم ، ونظرتك الى الكون والانسان ، وانحرافك
عن جادة النبوة والهداية ، وثورتك على الأخلاق والقيم
الرفيعة .

لغة شقى بها أهلها

مأساة باكستان قضت على كثير من المغالطات أو التفاؤلات التى عشنا فيها زمنا طويلا ، انها كشفت القناع عن ذلك الوجه القبيح والصورة الكريهة المخيفة من عصبية اللغة ، وأثارت عدة أسئلة للضمير الانساني .

١ - هل يحق لأخ أن يقتل أخاه لمجرد أنه يختلف عنه فى اللغة والتقاليد الوطنية أو فى الزى الوطنى والأكلة الشعبية ؟ .

٢ - هل يحق له أن يذبح جاره وصديقه ، وأستأذنه ومرشده لأنه لم يتكلم بلغته ، ولم يتزى بزيه ، ولم يتعود بعاداته ؟ .

٣ - هل يجوز له أن يحرق أولاده أحياء لأنهم لم يعطوه مثلا - نصيبه الكامل من المال وقسطه الكافى من المحصول والانتاج ؟ .

٤ - هل يمكن لهذه العوامل مجتمعة أن تكون مبررا كافيا لقتل الأبرياء وسفك الدماء ، وخلع الغدار ، والفسق والاستهتار ؟ .

كلا ! اذا فما الذى حرك نزوات البنغاليين الى تشويه تاريخهم بهذه الصفحة القاتمة السوداء ، ووصم جبينهم بهذا العار ؟ .

ان القصة أعمق جذورا ، وأبعد مدى ، وأوسع اطارا مما نراه بمنظار السياسة المحدود . فانها تدل على بذور الحقد والضعينة والكراهية التى غرسها هؤلاء فى قلوب الأبناء ، ووجدت جوا صالحا وتربة صالحة للظهور والتقدم والنماء ، حتى آتت ثمارها الحبيثة « والذى خبت لا يخرج الا نكدا » .

والدرس الأول من هذه القصة الاليمة هو أن عشق اللغة وحبها الزائد وتقديسها ، والهيام بها ، والتغنى بالثقافات المزعومة والاغراق فيها هو رأس البلاء والشقاء ، وهى فتنة استوردناها من الغرب فى مجموع ما استوردنا من شرور وخبائث وويلات فى صورة أفكار وحضارات وثقافات .

ان اللغة التى تفرق ولا توحد ، تعادى ولا تؤاخذ ، تقسو ولا ترحم ، لا ترعى فى مؤمن الاه ولا ذمة ، وينتهك لها كل كرامة وحرمة ، وتريد أن تبقى ، وتنتشر وتزدهر ، ولو على ضحايا الأبرياء ، وعلى الجماجم والأشلاء ، هى لعنة على أهلها وعذاب من الله .

هل ان الله سبحانه خلق هذه اللغات الكريمة البريئة لتكون وسيلة الى الفساد والدمار والظلم والاحاد ، أو لنجعلها وثنا يعبد ، وصنما يقدم اليه القرايين !؟

ان اللغة اذا علمتنا القتل ، وعلمتنا الوحشية ، وعلمتنا الجنون ، وحولتنا فى ساعات وثوران الى قوم همج لا ضمير لهم ولا عقل ، ولا دين عندهم ولا حياء ، وزرعت فى صدرنا قلب وحش أو سبع أو شيطان (ويا ليت اذا كان من البلاستيك البريئى لا يعرف ظلما ولا رحمة) وأطاحت بتربية مئات السنين فى ساعة وحين . فعلى مثل هذه اللغة السلام .

والدرس الثانى هو أن صورة الاسلام والايمان لا تقدر على مواجهة كيد الشيطان وثورة النفس ، ما لم يدخل الايمان فى القلوب وقرارة النفوس ، وما لم تستطع مقاومة النفس وتعود الخضوع لأمر الله ، والوقوف عند حدود الله ، فقد ثبت أن الشارات الخلابة الظاهرة والمظاهر الدينية الجوفاء لم تصمد لساعة واحدة فى وجه هذا الطوفان بل انساق أهلها أحيانا كثيرة مع التيار العنيف ، ووقفوا الى جانب الجزارين والسفاحين .

وأمام هاتين الحقيقتين ينبغى لنا أن نقف قليلا ونتأمل ، ان الفجوة الهائلة والبون الشاسع الذى نراه بين جناحي باكستان لم يكن وليد سياسة محلية فحسب أو نتيجة تقسيم المنافع والأرباح كما يتصور كثير من الناس ، بل انما كان نتيجة عوامل مختلفة كانت تعمل عملها منذ زمن طويل ، فقد عاش الجناح الشرقى بعيدا عن جناحه الغربى ، يحب لغته ، وأزياءه ، وتقاليده وأرضه وماءه الى حد التقديس ، ويتفانى فى ذلك تفانى المؤمن الصادق فى سبيل الله ، ويتحمس له

تحمس الداعي الى الله ، وأدى هذا الاختلاف فى اللغة
والتقاليد الى توسع هذه الفجوة وبعد الشقة ، وعاش الفريقان
فى مكان واحد . بل فى مكتب واحد من غير أن يندمجا
عاطفيا ، ويتجاوبا روحيا ومعنويا قد جمعتهم الضرورة على
رصيف واحد وفرقتهم العصبية والاقليمية رغم دين واحد .

وكان هذا الجو - بطبيعة الحال - صالحا لكل نوع من
الانفجار والدمار ، ونذيرا بكل ما حدث من شنائع وفظائع
تقشع منها الجلود ، ويتندى لها جبين الحياء .

ولو كان للاسلام الأمر والنهى والتصرف الحر فى
باكستان وأطلق له العنان لكان شأنها غير هذا الشأن ، وقضى
على العصبية الباطلة الجائرة فى مهدها ، وماتت حتف أنفها ،
وما قامت لها قائمة وما نجمت منها شوكة تؤذى جنب
المسلمين .

ان قصص التعذيب والاضطهاد والوحشية والجنون التى
سمعناها ، والعصبية العمياء الصماء التى رأينا آثارها
وضحاياها دلت بوضوح على أن العصبية البنغالية تخطت كل
الحواجز الانسانية والأقدار الحلقية العامة ، بل انها طغت على
العقيدة والايمان والعلم والتقوى وتملكت زمامها ، وتصرفت
فيه تمام التصرف ، واستخدمته لساثر أغراضها الوحشية ،
وكانت كل هذه الوحشية والهمجية التى لا نظير لها ، ولا
تأويل فيها ، باسم تراب الوطن ، وقداسة الأرض حتى قال

قائلهم وزعيمهم : انى أحب أن تكون آخر كلمتى عند الوفاة
« عاش البنغال » .

وتلك هى طبيعة كل عصبية اذا اختمرت ونضجت
وبلغت أوجها وذروتها ، ولا نستغرب اذا هى مثلت دورها فى
الجناح الغربى وعاشت فيها الفساد ، كما هى فعلت فى الجناح
الشرقى ، وأذاقته ألوانا من الخراب والدمار .

اننا نفرس أشواكا ومنتظر أزهارا ، نفرس فى نفوس
الناشئة الضغائن والأحقاد ثم نرجو منهم أن يكونوا اخوانا
متحابين نسكرهم بتقديس أرضهم ، وعبادة ترايهم ، وتمجيد
أبطالهم وزعمائهم القوميين ، ثم نطلب منهم أن لا يخرجوا من
طورهم ، ولا يفقدوا رشدهم وصوابهم .

ان للاسلام ثقافة عامة متحدة فوق الثقافات المحلية
المختلفة ، وان له لغة فوق اللغات ، ولهجة فوق اللهجات ، هى
لغة القلب والحب ، ولهجة الاخوة والوفاء ، فلتكن سائر
لغاتنا تابعة لهذه اللغة الحبيبة الكريمة ، خاضعة لها ، وان
له هدفا فوق أهدافنا ومصالحنا الاقتصادية وحاجاتنا القومية ،
فليجب أن نضع سائر ارتباطاتنا ورغباتنا ومصالحنا تحت
هذه المصلحة الكبرى ، ونضع سائر زعاماتنا وقياداتنا تحت
تصرفه المطلق ، فذلك هو الشرط الأول والأساسى للايمان
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم
لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً » (١)
وهو معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن

(١) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ، . *تراث الإسلام عديده*
رواية كتاب الحكيم

ألا ان الاسلام لم يخسر الجولة في باكستان كما أنه لم
يخسرها في فلسطين ، ان مأساة باكستان ان دلت على شيء
فانها تدل على أن الأحداث الدامية ، والفوضى السياسية ،
والقلق النفسى ، والصراع الحزبى والتنافس فى القيادة
والتهالك دونها ، لم يكن الا نتيجة الاعراض عن الاسلام
والأخذ بالعصبية والاقليميات ، وضعف الوازع الدينى
وتزعزع الثقة بمستقبل الاسلام وسحبه عن مسرح النشاط
الاجتماعى والسياسى .

١٢٨٦

انها دلت على أن العصبية الجاهلية أخفقت اخفاقا كاملا
فى جمع الكلمة وتوحيد الصف ، وأن الاسلام وحده بقى فى
الميدان يحمل لواء النصر والفتح . وهو يستطيع أن يضم
الجروح ويمسح الدموع ، ويواسى المنكوب ، ويصلح ما أفسده
التعصب الأعمى ، والجهل والنكران ، انه لا يزال يقدر على أن
يحول هذه الوحوش الآدمية والذئاب البشرية الى طراز رفيع
من أشرف خلق الله رحمة وعدلا ، وخيرا وبركة ونورا
وضياء .

ان العصبية الشرقية لا تقاوم بالعصبية الغربية ،
وبالعكس انها تداوى - فقط - بالاسلام الذى يبقى دائما
فوق العصبية وحرب الزعامات .

ان هذه المأساة رفعت سائر الشبهات حول الاسلام
ووضعت في موضع تهفو اليه القلوب ، وتطلع اليه الأبصار ،
وحرص عليه كل من سامته هذه العصبية الجاهلية والاستغناء
عن دين الله سوء العذاب .

ان سائر الأوضاع تشير الى أن نلوذ بالاسلام لنتخلص
من هذه الأحقاد المكبوتة التي تشتعل تحت الرماد ، وتطيح
في لمحات وساعات ما بناه الأوائل في عشرات السنوات .

انها تطلب منا أن لا نترك ديننا عرضة الأهواء الطاغية
والرياح العاتية ، يستبد به كل شاطر وماكر ، ويعبث به كل
شاذب وعابث بل يكون - كما وصفها القرآن - « كشجرة
طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين
بإذن ربها » (١) .

وبعد فالاسلام لا يسمح بالظلم وبالعدوى الجاهلية أينما
كانت ، فالظلم ظلم ، سواء كان في الهند أو في باكستان
وسواء كان في مكة والمدينة ، والعصبية عصبية وجاهلية
ومنتنة - كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم - سواء
كانت عربية أو أفغانية ، هندية أو باكستانية ، تركية أو
إيرانية .

ومن هنا يختلف منهجنا عن جميع المناهج الجاهلية

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٤ .

والحركات المادية والقومية والعنصرية : « يا أيها الذين آمنوا
كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » (١) .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس
ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢) .

ان باكستان تتأرجح الآن بين عصبية جاهلية ظالمة
واسلام سمح عادل ، فلتكن هذه المأساة الأليمة داعية لها الى
الرجوع الى الدين ، والاعتصام بجبل الله المتين قبل أن تصل
ألسنة هذه النيران الى جناحها الغربي كما أحرقت جناحها
الشرقي .

(١) سورة النساء

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

رسالة الحب

ان الحب « اكسير » يذوب فيه الحقد كما يذوب الملح في الماء وعصا سحرية تسخر القلوب المتحجرة الجافة والطبائع المتمردة العاصية وتسوقها الى أى جهة تشاء .

انه يحول الأعداء الى الأخلاء ويحل محل البغض والشحناء الصداقة والاخاء ، ويجعل من الفئتين المنفصلتين المتحاربتين قلبا واحدا وجسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد بالسهر والحمى « فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » (١) .

فاذا استعرضنا المجتمع الاسلامى فى القرن الأول وجدناه مشرقا بنور من الحب والاخوة والسلام ، والتاريخ الاسلامى حافل بأمثلة رائعة من هذه الناحية يندر نظيرها فى تاريخ الأمم الأخرى واذا فكرنا اليوم فى أحوال المسلمين وأمنا النظر فى الأوساط الدينية والهيئات الاسلامية واستعرضنا هذه المشكلات التى تعترض الركب الاسلامى فى

(١) سورة حم السجدة ، الآية ٢٤ - ٣٥ .

كل مكان رأينا أن سبب ذلك هو عدم العناية بالحب والاستهانة بأهميته في الدين الاسلامي وضرورته للمجتمع الانساني .

فليتخذ شبابنا المسلم شعاره الأول «الحب والاخلاص» ، ومهمته الأولى اذاعة الحب بين الناس حتى تنجلي تلك الظلمات الكثيفة التي أحاطت بالمسلمين هذه الأيام ، فهو حجر زاوية في بناء الاسلام ، نادى به القرآن العظيم وندب اليه الرسول الكريم وعمل به المسلمون في القرون الأولى .

وقد تتضاعف أهميته اذا رأناه من ناحية مصلحة الدعوة وحكمة الدعوة .

أنت لا تستطيع أن تحمل الدعوة الاسلامية بين الناس وتدعوهم الى الدين الحق وقلبك لم يذق حلاوة الحب .
ان المنطق والقانون لا يجذبان القلوب ولا يقنعان الوجدان ، انهما يهزمان الرجل ويصرعانه وربما يحدثان فيه بعض النقمة وبعض الحقد وبعض المقت تجاه هذه الدعوة ، انما الشيء الذي تنجذب اليه القلوب كالمغناطيس وتهوى اليه الأفتدة وينضع له الجبابرة هو الحب والاخلاص .

اذا تحدثت مع رجل وألقيت عليه ألف دليل وأخرجته بألف سؤال ، وشرحت الأمر شرحا بسيطا ، وقلبك جاف غليظ ، ولسانك قاطع كالسيوف ، وكلماتك حادة كالسهام المسمومة ، أبعدته عن الهدف وملأت قلبه غيظا ، ولو لم يستطع أن يرد عليك جوابا .

وإذا لقيت رجلا في الطريق وألقيت عليه كلمة خير
واحدة بلا دليل ولا برهان ، وبلا مناقشة ولا اسهاب وعلى
شفتيك ابتسامة حلوة ، وصدرك ممتلئ بالحب وقلبك عامر
بالايمان ، كسبت قلبه وقربته الى الهدف ولو أنه لم يبس
رضاه في هذا الحين وأنكر هذه الكلمة ، فانه سيؤمن يوما من
الأيام لانك قد غرست في قلبه بذرة ستؤتى أكلها كل حين
باذن ربها .

ان المجتمع الحديث في الشرق والغرب قد تنكر لهذا
الحب الطاهر ولم يعرف قيمته واستبدل الذي هو أدنى بالذي
هو خير انه لا يعرف حبا أشف وأسمى ، وأطهر وأنقى ، من
هذا الحب المادى ولا يعرف هدفه الصحيح .

فاذا رفعنا هذا اللواء من جديد ، وحملنا هذه الدعوة
الكريمة الى الانسانية أحسنا اليها وأمسكنا بيدها في أشد
ساعات الحرج ، ومنعناها من التفكك والانهييار .
ان هذه الحياة الميكانيكية الجمادية التي تدور كالرحى في
كل مكان ، ان انسان القرن العشرين الذي رضى بأن يكون
آلة صماء تدور ليلا ونهارا ، يكسب المال لينفقه وينفقه
ليكسب أكثر منه ، ان الحياة العائلية والاجتماعية التي
أصبحت اليوم في الغرب جحيما لا يطاق ، انها كلها تحن الى
قطرة من الحب كما تحن الأرض المجذبة الى قطرة من الماء .
فأنجدوها أيها المسلمون المحبون بهذا الحب الذي
آثركم الله به .

بين الدنيا والآخرة

أحب أن أقول قبل كل شيء أن هذا الموضوع لم يأت عفوا ، فجعلته عنوان كلمة وحاولت أن أضعه موضع البحث والنقد ، وألبسه ثوب الحقيقة فأخدع الناس أو أخدع نفسي بل اننى تعمدت هذا الموضوع ، وذلك لما رأيت حوله من مغالطات أليمة قد تبدو خفيفة في الظاهر ولكنها تتصل بالفكرة الاسلامية الأساسية وتمس نظرتها الخاصة في الدنيا والآخرة .

ان هذه النقطة كما يعلم الجميع هي النقطة الأساسية التي تعين مكانة الانسان في الدنيا وغايته في هذه الحياة ، وتغير وجهته من الدنيا الى الآخرة ، فلا يمكن لأحد أن يبدأ حياته بدون أن يتخذ موقفا معينا ازاء هذه المسألة في « النفي أو الاثبات » لأن زلة خفيفة فيها وانحرافا بسيطا في فهمها قد تغير صورتها أو تجرح روحها على أقل تقدير ، وتبعدنا آلاف الأميال عن الخط الصحيح .

ان بعض المسلمين قد نشأ فيهم في العصر الأخير أسلوب من التفكير لا يتفق مع روح الاسلام الأصيلة ، وذلك أنهم يحاولون أن يجمعوا بين الدنيا والآخرة ويسيروا بهما كتفا بكتف ، ويتمتعوا بمنافعهما في ساعة واحدة ، ان الجمع

بين الدين والدنيا نعمة كبيرة وفضل عظيم ، والاسلام لا يؤمن بهذا التقسيم ، وقد جاء في القرآن الكريم :

« ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (١) .

ولكنهم أرادوا شيئاً آخر ، انهم أرادوا أن يجعلوا الدين على كفة ميزان والدنيا على كفتها الأخرى ، وحاولوا أن لا ترجح كفة ولا تنخفض كفة ، فالدنيا لا تقل عندهم أبداً من الدين لان الاسلام ليس فيه رهبانية ، ويقولون ان هؤلاء الصوفية الذين يقللون دائماً من قيمة الدنيا ويحاولون أن يقلعوا حبها من قلوب الناس هم في ظلام من الاسلام الصحيح ، الاسلام الكامل ، ان هؤلاء الناقدين لا يؤثرن الآخرة على الدنيا ولا يتحملون في سبيلها مشاق ، فاذا وقع عراك مثلاً بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا تحيروا ولم يجدوا حلاً ، وربما أساءوا الظن بالدين بأنه لا يستطيع أن يجارى الدنيا وأنه يحول بين الناس وبين شهواتهم ، أقول انها مغالطة نبعت من عدم الاطلاع على حكم الاسلام في هذه القضية الكبرى انهم لم يعلموا بدقة وضبط كيف يعاملون الدنيا وكيف يعاملون الآخرة ؟ وكيف يعملون للدنيا وكيف يعملون للآخرة ؟ وما هي مكانة الدنيا في نظر الاسلام ؟ وكيف نجمع بينهما ؟ وماذا يعنى الاسلام بالجمع ؟ انهم لم

(١) سورة البقرة الآية ٢٠١ .

يتفكروا فى هذا الأمر ولم يرجعوا الى مصادر الدين الصحيحة حتى تهديهم الى الصواب وترشدهم الى الحق المبين .

ماذا يريد القوم بذلك ؟ هل هم يحبون أن يتمتعوا بالحياة ويتعمقوا فيها ، بل يتمرغوا فيها كما يفعل الناس فى هذا العصر ، وبجانب آخر يتمكنون من الوصول الى آخر درجة من الزهد والتقوى ، والطهر والعفاف ، والصدق والأمانة ، والطاعة والعبادة ، الى آخر ما يقتضى الدين ، ويتمتعون بثمراتها فى الحياة الآخرة كما استمتعوا بطيباتها فى حياتهم الدنيا ، فانى أشير عليهم أن يسألوا القرآن ماذا يقول فى هذا الشأن ؟

ان الاسلام لا يقر التقسيم الذى آمنت به المسيحية « أعطوا لقيصر ما لقيصر وأعطوا لله ما لله » انه يقضى على الرهبانية ويقول : « لا رهبانية فى الاسلام » انه لا يحسب هذه الحياة سلاسل وأغلالا من الحديد والنار يجب أن نتحرر منها فى أقرب فرصة ، ولا يحسبها قفصا من الذهب قد حال بيننا وبين الطيران فى أجواء الروح الفسيحة .

وفى ناحية أخرى انه لا يرضى أن يرى الحياة مباحة مشاعة مطلقة من سائر الحدود والقيود ويرى الدنيا غابة مظلمة تتحكم فيها السباع والذئاب والأسود ولا يعتبرها « فرصة ثمينة » لارضاء الشهوات وتحقيق الآمال وجمع الأموال .

انه يعطى الشعوب نظرة خاصة وفكرة متوازنة تسيغها فطرة الانسان ويقتضيها العقل البشرى ، انه يعد هذه الحياة مزرعة للآخرة ، وهذا هو السر عنده فى أهميتها ، انه يراها جسرا لا بد لنا أن نعبره فى سبيل الوصول الى الهدف ، انها أداة محترمة فى سبيل الوصول الى الغايات الرشيدة ، ولكنها على كل حال أداة لا ينبغى أن نتخذها غاية رغبتنا وأكبر همنا ومبلغ علمنا ، كما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم (١) ، انه لا ينكرها ولا يكرهها كبعض الديانات السابقة المعاكسة للفطرة الانسانية ، ولا يقدها ويعبدها ويعكف عليها كديانة المادية الحديثة ، انه يرسم حدود « الدنيا والآخرة » بعلامات وفواصل يجب أن نعرفها ونقف عندها ، الآخرة عنده دائما فى الدرجة الأولى لأنها حياة غير فانية فاذا أضعنا تلك الحياة الخالدة من أجل هذه الفترة القصيرة من العمر فهذا خطأ منا فى المقارنة بين الربح والخسران ، وسوء تقدير للميزان ، الآخرة دائما فى الدرجة الأولى لأن عذابها خالد ونعمتها خالدة ، وانه من فتور العقل أن تؤثر النعمة التى تفنى على التى تبقى ، ونرجح الذى يزول على الذى لا يزول .

فليست المسألة اذا مسألة جمع بين الدين والدنيا ، انما هى مسألة ايثار وترجيح ، ان الاسلام لا يدع الدنيا قائمة بداتها ، انه يحللها فى نفسه ويجعلها عبادة ويتحكم فيها ويستخدمها حسب ارادته وقوته .

(١) كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل الدنيا

أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا غاية رغبتنا .

انه لا يؤيد هذا النوع من الجمع الذي يسيطر فيه المال على القلب والروح والأعصاب ، ويحتل المركز الأول فى الحياة ويشغل الدين ركنا ضئيلا فى غضون الرأس ، انه يسمح للما أن نضعه على راحة يد أو فى داخل جيب ، أما داخل القلب فلا .

أما اذا أردنا أن نساوى بين الدين والدنيا فى الأهمية فلا نحتمل نقصانا فى الدنيا لحساب الدين ، ولا نرضى بترك الدنيا لأجل الدين . أما اذا أردنا أن نصلى للدين ساعة ونصلى للدنيا ساعات ، ونعبد الله مرة ونعبد المال مرات ، فاذا طالبنا الاسلام أن نتحمل خسارة مالية فى سبيله أو نكبح جماح شهواتنا ونخفض مستوى حياتنا لأجله شق ذلك على النفس ، ورأيناه رهبانية وتقشفا ، فانها مغالطة يجب أن نصححها فى أول فرصة .

وكيف يمكن أن تتساوى الدنيا والآخرة وعمر الفرد على هذا الكوكب الأرضى محدود ، فلا يتجاوز ١٠٠ سنة على الأكثر ، وحياته فى الآخرة خالدة غير محدودة غارقة فى الأبد .

آمال الفرد فى هذه الحياة طامحة ورغباته متوفرة وتمنياته متنوعة ، انه يحب أن يمس كل جميل ويذوق كل لذيد ويتمتع بكل نوع من أنواع الراحة والهناء ويفعل ما يشاء فخلقت له « الآخرة » وأخفى له فيها كل ما تقر به العين ويلذ به النظر ويطرب له القلب .

إذا تمتعت مائة سنة في هذه الدنيا من نعيمها الذي تخلطه الكلفة وابتسامتها التي تعقبها الدمة ، وحرمت ذلك النعيم الأبدى الشامل الذي يمتد الى ملايين الملايين من العصور والأحقاب ، فهل تجدك سعيدا بهذا يا ترى ؟

هذه هي وجهة نظر الاسلام في هذه المسألة ، واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، صافية مشرقة ليس عليها غبار ، حقيقة انسانية يسيغها كل عقل ولا يختلف فيها اثنان .

انه ينبغي أن لا ننسى أن قيمة هذه الحياة وقيمة هذا الكون هي نسبية
لأننا نعيش عليها ونتمتع بها ، اننا لا نحب المال لأن المال شيء يستحق أن نحبه ونعشقه ونعبده ، اننا لا نحب هذا الكون لأنه فائض بالقوة والجمال ، زاهر بمعاني الحسن والاحسان ، متقن غاية الاتقان ، انما الشيء الذي يهب هذه الحياة وهذا الكون قوة ومكانة ، أنها نعمة من الله سبحانه ووسيلة الى الوصول اليه : « كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله » (١) « وأنفقوا مما رزقناكم » (٢) .

هذه الفكرة حول الكون والحياة والانسان نطلب من الناس أن يتمتعوا بهذا العالم بالمعروف ويكون أكبر همهم

(١) سورة المائدة .

(٢) سورة البقرة .

وأنبئ أهدافهم الدعوة الى الله والرجوع اليه وانشاء المجتمع
الانسانى كله على هذه الأسس الصحيحة المتينة .

الدين عندهم دائما فى النقطة الأولى ، فاذا وقع هناك
اصطدام بين شهوة النفس ومصالحة الدين آثروا الدين ولم
يترددوا ولم يرتابوا لأنهم خلقوا لهدف آخر أسمى من هذه
الأهداف المادية الضئيلة والمآرب التافهة ، انهم يرجحون
دائما كفة الآخرة لأنها الخالدة الباقية وهى دار القرار ، وان
الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ، هذه الفكرة
تسيطر على جميع مشاعرهم وعواطفهم ، وتدفعهم الى أن
يبدلوا لها كل جهد ولا يدخروا لها وسعا ويحنوا اليها كأنهم
منها على موعد وكأنهم فى انتظار ، وهذا هو الفرق الأساسى
بين أسلوب التفكير والميل الطبعى الذى نراه بين هذه الطبقة
التي أشرت اليها وبين هذه الطبقة التى درست القرآن كما
يجب أن يدرس ، وفقهت السنة كما يجب أن تفقه ،
واستمدت منهما انور فى تفكيرها وسلوكها ، ومنهج حياتها
كلها ، وأختم هذا المقال بكلام الامام أبى حامد الغزالى فقد
أجاد فى وصف هذه الناحية الهامة بقلمه البليغ القوى فمما
قال فى الاحياء :

« ان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها
وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها ، وصفاء نعيمها
وجلاله ملكها ، ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما
أرضيت احدهما أسخطت الأخرى ، وانهما ككفتى الميزان

مهما رجحت احدهما خفت الأخرى ، وانهما كالمشرق والمغرب
مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين
أحدهما مملوء والآخر فارغ ، فبقدر ما تصب منه في الآخر
حتى يمتلئ يفرغ الآخر ، فان من لا يعرف حقارة الدنيا
وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ، ثم انصرام ما يصفو منها ،
فهو فاسد العقل فان المشاهدة والتجربة ترشد الى ذلك .

ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما
طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل كافر
بالقرآن كله من أوله الى آخره . فكيف يعد من زمرة العلماء
ومن علم هذا كله ثم يؤثر الدنيا على الآخرة فهو أسير
الشیطان ، قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، فكيف
يعد من حزب العلماء .

بين الدنيا والآخرة (٢)

تحدثت في مقالى السابق عن نوع من التفكير جديد ان رضيه التفكير المادى فان التفكير النبوى لا يرضاه ولا يسيغه ، لأنه تفكير سقيم لم يقم على دراسة القرآن الصحيحة ودراسة المجتمع الانسانى فى القرن الأول ، ولأنه تفكير ناقص (ONESIDED) يأخذ نصيبه من الدنيا وينسى نصيبه من الآخرة ، انه يعنى بهذه الناحية من الكتاب والسنة التى تحت على الكسب وطلب الرزق ، أما الناحية التى تتصل بالحنين الى الآخرة والشوق الى الجنة والاقبال الى الله ، وابتغاء مرضاته والجهاد فى سبيله ، وتقلل من قيمة الدنيا والمال . ويطارد حبه من القلوب ، ويصف الحياة الآخرة كأنها هى الحقيقة الوحيدة فى هذا الكون ، فانها لا تنال أهمية لائقة من هذا التفكير مع أن هذه الناحية هى الناحية المفضلة فى القرآن والسمة البارزة فى المجتمع الاسلامى الأول .

غاية أو وسيلة !

والشئ الآخر الذى أضل الفكر وأظلم الطريق هو النظر الى الآخرة كمن ينظر الى وسيلة وأداة لانشاء حكومة أفضل وجيل أمثل ، ان هذا النوع من الناس يحسبون الآخرة طريقا من طرق الاصلاح ووسيلة من الوسائل الأدبية لتربية

الفرد والأمة ، وأداة قوية لبناء مجموعة بشرية صالحة ، لأنه لا بد للإنسان من حارس ومراقب يحثه على الخير ويمنعه عن الشر ، وهذا الحارس هو « اليوم الآخر » ، وأن مجرد قانون العقوبات لا يقدر أبداً أن يوجد في الناس عواطف الرحمة والبر والشفقة والحنان ويحثهم على الحياة النظيفة الطاهرة . وأن القتل والنهب والارتشاء والسوق السوداء . والاحتكار واختلاس الأموال موجود في كل حكومة وفي كل مكان بجانب البوليس وقانون العقوبات ، ونقف هنا قليلاً فنقول ان فكرة اليوم الآخر هي الحارسة لأعمال الإنسان ، ولا شك ، وهي تستطيع أن تدفع عنه السيئات وتحثه على الحسنات ، ولكن يجب علينا أن لا ننسى أنها فائدة من فوائد الآخرة . أما غايتها الأصيلة فإنها لا تتقيد في حدود هذه الدنيا المحدودة القصيرة ، ولا فصل إليها الا حين تقوم القيامة ، ويقال : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » (١) .

هنالك اهتدى هؤلاء الناس الى « الآخرة » كوسيلة من أعظم الوسائل لإقامة النظام في العالم ، وآمنوا بها كضرورة تلقية Ethical necessity لا يستغنى عنها فرد أو أمة ، أما كوصفها غاية هذا الكون وهذه الحياة والهدف الأول لكل إنسان في هذه الأرض ، ومنتهى جهوده وتضحياته ومقياس نجاحه وخسرانه ، فهذا لا يعينهم كثيراً ، فتراهم

(١) سورة غافر ، الآية ١٦ .

يتحدثون عنها كأنما يتحدثون عن شيء ليس له نصيب كبير من الواقع أو كأنما يتحدثون عن بعيد أو محال ، أو حلم وخيال ، فاذا مروا بآية ترغيب أو ترهيب فى القرآن ، مروا غير عابئين بها مهما كثر فيه ذكرها ، وتتابع آياتها ، واذا مروا على آية واحدة تتصل بالمعيشة والكسب والعدة والاعداد افاضوا فيها وأرسلوا النفس على سجيتها وانساقوا مع الحديث كل الانسياق .

بين التفكير النبوى والتفكير البشرى :

وهنا الفرق بين التفكير النبوى والتفكير البشرى ، ان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعدون الآخرة أعظم غاية فى هذه الحياة وهى عندهم واقع مشهود وحقيقة ثابتة ، وكأنهم ينظرونها ويتنشقون فى جوها ، ولا فرق عندهم بين المادة التى نلمسها والغيب الذى لا نراه ، انهم يؤمنون بأن الآخرة هى الغاية الوحيدة التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون ويعمل لها العاملون بكل ما أوتوا من الصحة والقوة والمال ، لا يدخرون لها وسعا ، ولا يبغون عنها بدىلا ولا يرضون دونها زهيدا ولا يسلكون سواها طريقا « ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة ، فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (١) وكل شيء يمكن أن يكون وسيلة الا الآخرة ، ورضا الله جل وعلا « وابتغوا اليه الوسيلة » أليست هذه

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٥ .

الحياة قصيرة العمر ، قليلة المتاع ، مدبرة ذاهبة ، خادعة مضلة « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عند فوفاه حسابه » (٢) ؟ أليست هى الفانية والأخرى باقية ؟ « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان » (٣) ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » ؟ وقال : « من أحب دنياه أضر بآخرفته ومن أحب آخرفته أضر بدنياه ، فأثروا ما يبقى على الذى يفنى » وقال له ابن مسعود رضى الله عنه يوما : لو أمرتنا أن نبسط لك وتعمل . فقال : « مالى وللدنيا ، وما أنا والدنيا ، ما أنا الا كراكب أستظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها ، وقال مرة : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وقال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ويقول القرآن « ان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » (١) أما هنا فقد انعكست الآية ، فاذا الغاية تصبح وسيلة ، والوسيلة تتحول غاية ، وذلك بدون أن يشعر أحد أى انحراف وقع فى اتجاه الحياة ، وأى جرح أصاب الروح الاسلامية والفكر الاسلامى .

اننى أعجب من هؤلاء الذين لا يلمسون هذا البون

-
- (٢) سورة النور ، الآية ٣٩ .
 - (٣) سورة الحديد ، الآية ٢٠ .
 - (١) سورة العنكبوت ، الآية ٦ .

الشاسع بين الفكرتين ، ويحبون - باخلاص - أن لا يبدو للناس الجانب الروحي من الاسلام . فينتقص من قيمته وكرامته ومكانته السامية بين الحركات العصرية .

مهما يكن من أمر فان كل دارس للكتاب والسنة وأحوال الصحابة يعرف جيدا أن هذه الفكرة لم تفرأ أبدا على أسس اسلامية صحيحة ، وانما نجمت فى رجال أخذوا بالحضارة العصرية - التى هى مادية بحتة - من غير أن يشعروا ، ولم تنشر صدورهم للاسلام ، وان آمنوا بسبقه فى حقل السياسة والاقتصاد والتشريع فهم يخجلون من أن يعرضوا الاسلام فى صورته الصحيحة ويتظاهروا بجانبه الروحي العظيم فى حياتهم من زهد وقناعة وورع وتقوى وخشية واناة وتضرع وابتهاال ودعاء ومناجاة وحنين الى الجنة وشوق زائد الى لقاء ربهم وحرص شديد على مغفرته ورضوانه ، ذلك لأن هذه الفكرة التى اختاروها ليس بوسعها أن تنشئ فىهم هذه الروح الدينية الاصيلة وكيف تفعل وقد قامت من أول يوم منكرة لها ، أو كانت فى عمى من قوتها ، وتأثيرها وأهميتها وأصالتها .

(٢) وياليتهم يعلمون أن اسلام محمد عليه صلوات الله وسلامه واسلام صحابته رضى الله عنهم (فى صورته وروحه الأولى) أصلح لهذا العصر الذى اتخم بالمادية وهو مع فكرته الاصيلة التى تستحيون من ذكرها دين كل زمان ومكان ، وسفينة نوح فى كل طوفان .

ان الأنبياء عليهم السلام يعيشون كما يعيش الناس
ويأكلون ويشربون ويتزوجون ويحبون الأولاد ، ولكن
لا تذهلهم هذه الزخارف - لدقيقة واحدة - عن ايمانهم بأنهم
ذاهبون الى الآخرة ، فالدنيا عندهم طريق للوصول الى
المقصود ووسيلة تفضى الى الغاية ، أو قاعة امتحان للناس
فمنهم من نجح ومنهم من رسب ، أو (مخيم) تقوم فيه
بالاعداد جسديا وروحيا حتى تفوز برضا الله عز وجل .

ويسرى ذلك الايمان في أصحابهم مسرى الروح في
الجسم وانكهرباء في الاسلاك ، ويتحكم في ميولهم ونزعاتهم ،
وأهوائهم وشهواتهم ، ويخلق منهم انسانا آخر حتى يصبح
كل فرد منهم اماما وقدوة ، يقلده العالم وتتبعه الأمم فلا ترى
فيهم الا شوقا الى الجنة وحنينا الى الآخرة وسعيا الى الجهاد
وتسابقا في الخيرات ، مثلهم مثل جائع عطشان ، قد سدت
في وجهه أبواب الرزق وقد رأى الماء وراء جبل فهو يسعى اليه
بكل ما أوتى من قوة ، ولا يكل ولا يمل ، ولا يؤثر فيه
استخفاف الناس لانه قد رأى الماء بعينه ، وهو يعلم أنه لو
لم يصل الى هذا المكان لمات شرمية .

انها السمة البارزة والوصف الأول للمجتمع الاسلامي
الصحيح ، في عصر الصحابة والتابعين ، وهو المقياس النبوي
الحالد الذي يقاس به الناس في كل عصر ومصر مهما تغيرت
الظروف والأوضاع ، ومهما تقدمت المدنية وتعمدت الحضارة ،
واختلطت الوسيلة والغاية .

بينما نرى الطائفة الأخرى تستهين بهذه الناحية الجليلة وتهمل شأنها ، وقد رأينا كثيرا من الكتاب والمفكرين يحبون أن يعرضوا الاسلام فى العالم كحركة تقدمية شعبية أو نظام اقتصادى أو سياسى ، يهدف الى ترفيه الشعب واقامة حكم صالح نظيف ، يسود فيه الهناء والسعادة ، ويحكم فيها بالسلوية ، ويطمئن كل فيها الى نفسه وعرضه وماله ، فلا قتل ولا سرقة ، ولا غش ولا خيانة ، ولا غلاء ولا بلاء ، ولا الارتشاء ولا السوق السوداء ، وتكون جنة فى الأرض .

أما الغرض الأساسى من الاسلام الذى يقول فيه القرآن: « قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » (١) وهدفه الاول وهو النجاة فى الآخرة والوقاية من النار ، فانهم لا يذكرونها فى كتاباتهم الا مرغمين ، مقهورين ، كارهين ، خوفا من أن يتهمهم البعض بأنهم رجعيون ، يعلمون بانفردوس فى دنيا العمل والحياة ويخشون الناس والله أحق أن يخشوه .

الروح أولا :

الاسلام فى نظرهم مجرد حركة ونظام كالحركات السياسية والمادية الأخرى ، الاشتراكية والشيوعية مثلا ، الا انه قد فاق أقرانه فى مواهبه المدهشة لحل مشاكل العالم،

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

وصلاحيته للبقاء والاستمرار ، وانكاره لفروق اللون والجنس ،
وهذا صحيح ولا شك ! ولكن هل بعث محمد عليه الصلاة
والسلام لينشئ حكومة شعبية راقية يعيش في ظلها الانسان
بسلام ويموت بسلام ، وهو لا يدري غايته وواجبه في هذه
الحياة ولا يعرف ربه وان عرفه ، فلا يحبه ولا يخشاه ولا
يتشوق الى الجنة ولا يخشى من النار ؟؟

وتطغى عليهم هذه الفكرة وتسول لهم أن يهملوا عالم
القلب والروح ، ويسخروا منه بعض الأحيان ويحتقروا
العاطفة وفعالها السحرى فى النفوس ، وينكروا أهمية الفرد
فى المجتمع وتربيته الروحية وعلاقته مع الله ومشكلته
الذاتية ، حتى يواجه الموت ويضمه القبر ولا يغنى عنه
حينئذ أدب أو علم أو سلطان « يوم تبلى السرائر فماله من
قوة ولا ناصر(١) » .

وربما يقول البعض اننا نقدم الاسلام كحركة عصرية
تقدمية لئلا ينفر منه العقل الحديث وكذلك نقدم الآخرة
كضرورة خلقية لأنها تسوغ انسان القرن العشرين الذى
لا يؤمن الا بالنعمية والمادية ولا يفهم الا هذه اللغة وهذا
الأسلوب وهذا حق ! لكن يجب علينا أن لا ننسى أن ائمه
أكبر من نفعه ، اننا بذلك نبني صرحنا الاسلامى على أشلاء

(١) سورة الطارق ، الآية ٩ - ١٠ .

الفكرة الاسلامية نفسها ، ونغذى نزعته المادية التي حاربها
الاسلام .

ان الاسلام روح وتشريع ، وعبادة وثقافة ، ودين
ودولة ، انه ينشئ في أهله أولا هذه الروح التي لا يحتاجون
بعدها الى رقابة ، وحراسة بوليس ، ويمدهم ثانيا بقانونه
الالهى الشامل ، « نور على نور ، يهدى الله لنوره من
يشاء (١) » .

نزلت آية منع الخمر فسالت الخمر في أزقة المدينة ،
وكسرت دنانها ، وقد كان الرجل منهم لم تفارق الخمر
شفتيه ، والآخر كان يرفع الكأس الى فمه فيسمعان بمنع
الخمر ويتوبان عن شربها حالا ، ولا يغيبن عن بالك أنه لم يكن
هناك جبر ولا اكراه ، ولا مينما ولا دعاية ، ولا حراسة
ولا رقابة ، وبعد ثلاثة عشر قرنا على هذا الحادث الفذ العجيب
تصدر الحكومة الأميركية قانون منع الخمر ، وتنفق أموالا
باهظة على الدعاية ، وتستخدم أحدث الوسائل في بيان
مضار الخمر عن طريق السينما والنشرات والاذاعة ، ولكن
رغبة الشعب في الخمر اشتدت بالعكس ، وقوى عناده ، حتى
اضطرت الحكومة أخيرا الى سحب القرار واباحة الخمر قانونيا .
وتمنع روسيا الخمر في حدود دولتها في ابان عهدنا ، فلا تلبث
أن ترغمها الظروف على اباحته .

(١) سورة النور ، ٣٥ .

ان الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا واضعى قانون فحسب ، بل انهم كانوا مبشرين ومنذرين ، ولما أن الاسلام كل لا يتجزأ ، فانه لن يكمل اتباع النبی صلى الله عليه وسلم فى التشريع والأحكام ، فحسب ، بل يجب علينا أن نتبعه فى سيرته وسلوكه ، وعبادته وزهده أيضا ، ونتلقى منه قسطا كبيرا من سمو الروح وتزكية النفس ، أما اذا أخذنا بمجرد التشريع وفاتتنا فاحية الروح التى هى كل شىء ، فقد فاتنا الهدف ، ولم يكمل لنا الايمان ، وحرمانا اللذة الحقيقية وتركنا للباب .

ما هو الغرض من التشريع ؟ ان الغرض من التشريع كما هو المعلوم هو رفع المجتمع الى مستوى خلقى عال ، حتى لا ينحرف عن الطريق ولا يهبط الى الحضيض وحمايته من التدهور الخلقى والفساد ، فكيف لو جعلناه غاية وحسبنا غايته وسيلة ، كما فعلنا أمس بالآخرة حتى استغللناها كوسيلة لاقامة السلام فى العالم ، وحماية المجتمع من الأذى الخلقية والنفسية والانحلال العائلى والاجتماعى ، ونسينا أن الإصلاح الخلقى ، ونظافة الأسرة والمجتمع ، والتحرز من الحرام ، والارتزاق بالحلال وأعمال البر والخير ليست غايات بنفسها ، انما هى وسائل للنجاح فى الآخرة والاعداد الروحى والنفسى لكسب المغفرة والرضوان من الله « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم(١) » .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ - ٨٩ .

الاسلام دين القوة ، ودين الحياة ، ودين الكفاح والجهاد،
ودين التمكين والعزة ، ودين النظافة والطهارة ، ودين الرحمة
والاخاء ، ودين الهناء والرخاء .

ولكن هي كلها منافع وثمرات يعطيها الله عباده المؤمنين،
ونعمة ينعمها على أهل الايمان ، وهي كلها وسائل نبتغى بها
رضى الله فى الدنيا والآخرة ، ونتقى بها النار ونكسب بها
الجنة « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم
الجنة (١) » « وابتغوا اليه الوسيلة (٢) » .

وانه من الجفاء كل الجفاء وظلم لا يعدله ظلم أن نخلط
بين الوسيلة والغاية ، ونقلب الحقائق ظهرا لبطن ، ثم نزهو
بهذه الخدمة الجليلة التى نقوم بها باسم العلم والدين ، والاسلام
والمسلمين ، من غير أن نشعر أى نقص وقع فى جهازنا الفكرى
وما سيكون له من نتائج سيئة وعواقب وخيمة فى الحياة
الدنيا ويوم يقوم الحساب ! « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٣) » .



القلب الصناعي والقمر الصناعي

انها حضارة بلا قلب ، أو هي حضارة ذات قلب صناعي ، والفرق بين هذا القلب وذاك كالفرق بين القمر الطبيعي الذي خلقه الله والقمر الصناعي الذي صنعه الانسان ، غير أن هذين القلبين يتشابهان في الصورة والشكل والحجم ، ولا يبدو بينهما فرق في النظر المادى .

ان قلب الحضارة العصرية قلب صناعى أو فى تعبير آخر هو قلب حيوانى شهوانى ، ليس للفضيلة والخير والأخلاق عنده معنى ، ولا للعاطفة النبيلة مكان .

ان « دارون » و « ميكافيلى » و « فرويد » و « ماركس » هم من الذين ساهموا فى صنع هذا القلب بنصيب أوفر ، ليزرعوه مكان القلب الانسانى الذى كان ينبض - حيناً - بالرحمة والحنان ، ويتدفق بالحب والايمان ، ويفيض برا ومؤاساة لخلق الله ، ويحترق كالشمعة لخير البشرية وصالح الانسانية .

ان هذا القلب لم يصنع فى يوم واحد ، ولم يصنعه رجل واحد ، انه كان نتيجة عمليات مختلفة النوع والصورة تمت على أرض أوربا ، و خلاصة صراعات ثقافية ودينية

وسياسية وقعت بين الكنيسة والبلاط ، انه نتيجة ملاحم
دموية كثيرة ، واضطهاد رهيب وقع داخل محاكم التفتيش
وخارجها ، والتي نقرأ أخبارها فى التاريخ الأوربى القديم،
ونشاهد آثارها ونتائجها فى التاريخ الأوربى الحديث .

ان جميع هذه العوامل والأسباب والمؤثرات والتيارات
الفكرية ساهمت فى تكوين هذا القلب وصناعته ، ولكن
الجيل الجديد من بعد قد وضع النقط على الحروف ، ونقض آخر
خيوط كان يربط القلب بالمعانى الانسانية الكريمة والأقدار
الخلقية المعروفة فى كل بلد وقطر ، المحترمة فى كل أمة
وشعب ، فجاء « دارون » ليقطع صلة الانسان عن أعظم تراثه
الانسانى ، ذلك التراث والتاريخ اللذين استحق بهما الانسان
أن يكون شيئاً آخر أعز وأسمى من الحيوان والجماد ، وشيئاً
آخر أعز وأسمى من تطورات المادة والطبيعة ، والأعيب الزمان
والمكان ، وجاء « فرويد » لينفى قيمة العواطف النبيلة والسمو
الانسانى ويهبط بالانسان فى مستنقع آسن متعفن من
الجنسية والشهوة ، يتمرغ فيه كالحشرات ، وجاء
« ميكافيلى » فبث فى الناس أن كل كذب وتضليل واستعباد
واضطهاد جائز فى سبيل المصلحة السياسية ، فلا حرج فى
القيام بأفطع الجرائم وأشنع المنكرات لاشباع رغبة قومية
وتحقيق مصلحة سياسية ، وجاء « ماركس » فقال : ان البطن
هو المحور الحقيقى للنشاط الانسانى الذى تم فى التاريخ
والذى سيتم فى المستقبل .

نجحت كل هذه الجهود والمحاولات أو المؤامرات ،
ووجدت الانسانية قلبا جديدا ، ولكنه كان قلبا صناعيا ،
لم يترك فيه الصناعون ناحية واحدة للمشاعر الانسانية .

ترى ماذا يحدث اذا وضعنا قلب حيوان فى أحشاء
انسان أو بالعكس ؟ ماذا يمكن أن يكون هذا الانسان بعد
هذه العملية الحرقاء وبماذا نسميه اذا ؟ ولكن ذلك حدث
فعلا ، فكان من نتيجة ذلك أن نشأت حضارة غير منسقة ،
فاقده الاتزان ، فتضخمت نواح قافهة ، لم يكن لها كبير
قيمة على حساب نواح أولية ، كانت فى الدرجة الأولى من
الأهميه ، وهذا هو الشيء الذى التوى فهمه على كثير من
مفدى الغرب ، فقالوا ان حضارتنا قامت من غير تصميم
سابق ، كلا بل انها قامت على تصميم سابق ، لكنه تصميم
زائف . ان هذا القلب الصناعى الذى تحملونه بين جنبيكم
لا يسمح لكم أن تروا الامور على حقيقتها ، انه - كالمنظار
الأسود - يغير لكم لون الأشياء ، ويؤثر فى تفكيركم وحكمكم
فيها من غير أن تشعروا بهذا التغيير ، بينكم من يقوم بنقد
شديد لاذع لحضارتكم ، ولكن لا يمكنهم مع ذلك أن يقطعوا
صلتهم عن هذا القلب الذى صنعه فلاسفتهم وعلمائهم فى
عصر النهضة الأوربية .

ان حادث القلب الصناعى الذى تم اعداده على مرأى من
الناس ومسمع ، لم يحرك فيكم ساكنا بينما هذا القمر
الصناعى الذى أطلقته روسيا أخيرا أدهشكم جميعا ، ونال

اعجابكم جميعا ، انه القلب الصناعى الذى يخفى لكم كثيرا
من الأشياء ، ويكشف أخرى ، وينقص من أهمية شيء ، ويزيد
من أهمية شيء آخر .

« لقد تكلم « اينشتين » بنظريته المشهورة « نسبية
الزمان والمكان ، والمادة » قائلا ان كل شيء نسبي لنا ، وقال
بعض فلاسفتكم : ان يوما واحدا فى عالم ما بعد انقضاء
يساوى قرنا أو أكثر منه فى هذه الكرة الأرضية ، فالرجل
الذى يسافر الى المريخ سيعود منه فى يوم واحد ، لكنه
لا يجد أحدا ممن تركهم ، لأنه يكون قد مضى زمن طويل على
هذه الأرض .

آمنتكم بهذه النظرية ، وتناقلتها صحفكم وأقلامكم ولم
تفطنوا حتى الآن الى أن نظرتكم الى الكون والحياة والانسان ،
نظرة نسبية على الاطلاق ، ورأيكم فى القيم الخلقية والانسانية
رأى نسبي كذلك ، لأنه صدر عن قلب صناعى ، وهذا
القلب لا يستطيع أن يحكم فى الأشياء الا من وجهة نظر مادية
بحت ، ويجهل كل شيء ، لا يدخل فى حيز وظيفته ، ولكنكم
لم تلقوا أى اعتبار لهذه النسبية القلبية التى بليتتم بها ،
وأبتليت بها الانسانية ، وصفقتم للنسبية الكونية والزمنية
التى لا صلة لها بالانسان ، الا من بعيد .

أما أصبحت الخلاعة والمجون أدبا والظلم قوة والمكر
والخدعة كياسة ولباقة ، انها نسبية « القلب الصناعى »

ولفته التي لا تفهمونها انها أقوى من نسبية « اينشتين »
لو كنتم تعلمون .

أليس من العجيب أن الانسان الذي يحاول أن يطير
فوق آفاق أخرى ، ويصل الى كواكب بعيدة جدا من الأرض ،
هو فى الوقت ذاته يخالف أبسط قواعد الأخلاق والرحمة
والانسانية ، بل المدنية العامة ويهبط الى مستوى أسفل من
الحيوانية .

أو ليس أعجب من ذلك أن كثيرا من الناس فى الغرب
يعرفون جيدا أنهم سائرون فى سبيل الدمار العالمى ، وأن
هذه المسابقة الرهيبة فى حقل المادة والقوة سيؤدى بهم حتما
الى الفناء ، فبدلا من أن يخففوا شيئا - بحكم المنطق - فى
هذا الهوس المادى نراهم قد غلوا فى هذا الهوس وأكثروا منه
وأصبحوا أكثر نشاطا وقوة وجنونا من ذى قبل .

انه « القلب الصناعى » مصيبة القرن العشرين ، القلب
الذى ربيناه على آخر أنواع علمها البشر من الاثم ، وآخسر
درجات وصل اليها الانسان من البغى والطغيان ، انه القلب
الذى علمناه أن لا يرحم أحدا ولا ينصر مظلوما ولا يرمى الا
ولادمة .

ان القمر الصناعى يفضينا الى سر خطير من أسرار
التاريخ ، ويكشف عن لغز كبير من ألغاز الحياة ، انه يلفت

أنظارنا الى « القلب الصناعي » ذلك الداء الذى تحمله البشرية بين جنبئها ، وهى لا تدرى أين الداء ؟ وتبحث عبثا عن الدواء .

ان القمر الصناعى اشارة صوتية من الفضاء لنعلم أن الشئ الذى نتعاقبه فى الجو ، ونبحث عنه فى مظاهر الطبيعة الكونية يكمن فى قلب الانسان نفسه ، وهو ينتظر من يكون القادم الأول لهذا الكشف الانسانى العظيم .

ان القمر الصناعى تحذير للذين لا يبصرون أكثر من المادة والمعدة ، أنهم قد أخطأوا فى اختيار الجهة ، واختاروا طريقا موحشا مضلا لا يضمن الوصول الى السعادة الحقيقية للانسان ، بل انه نذير خطر جديد ، خطر نكوص البشرية على عقبئها عدة قرون ، اذا أصروا على صحة الجهة ، وسلامة الوصول ، ومن يدرى الى متى تظل البشرية هكذا ، حائرة نائهة فى غياهب القرون والأجيال .

انها الحضارة الالهية !

ان الاسلام « حضارة الهية » اذا صح هذا التعبير ، فهو ليس كأصنام ينحتها البشر بأيديهم ثم يعبدونها ، أو يحطمونها اذا غضبوا عليها ، ويضعون محلها صنما آخر ، هو ليس كالمذاهب الفكرية والحركات الاجتماعية التي اخترعها الانسان فى مختلف أدوار التاريخ ، ثم فرضها على نفسه من غير سلطان بين ، وأحاطها بهالة من التقديس والاجلال . حتى اذا وجد أن هذه الحركات لا توافقه نسيها أو تناساها ، ووضع محلها مذهبا آخر ، وهو مفرور بنفسه وبعقله ، لا يدري أين يسير به هذا الدوران ، وما هى نهاية المطاف ؟

ان موقف الاسلام من هذه الأصنام المادية والمذاهب الانسانية موقف صريح وموقف بين ، انه لا يفرق بين الأصنام القديمة والحديثة ، فكلاهما فى نظره سواء ، لأنهما من صنع البشر .

أما هو - أى الاسلام - فهو « شريعة ومنهاج » من عند الله ، انزله على البشر ليسير على هداه ، وبما أنه من عند الله

فهو محفوظ عن الخطأ والانحراف ، والزيغ والضلال ، لا حاجة فيه الى تعديل أو تغيير ، ولا حاجة فيه الى ادخال تحسينات واصلاحات شأن المذاهب الانسانية والحركات الاجتماعية والسياسية كلها ، والى ذلك أشار القرآن حين قال : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير(١) » وقال : « لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم(٢) » .

إذا فهو « حضارة الهية » فما أسس هذه الحضارة ومبادئها ؟ وما هي روحها وغايتها ؟ وكيف تكيف المجتمع تكييفاً كلياً ، وتخلقه خلقاً جديداً ؟

المبدأ الأول : إذا دققنا النظر وتعمقنا في دراسة هذه الحضارة وجدنا أن هنا شيئاً واحداً يهيمن على الجهاز كله ، وسيطر عليه سيطرة كاملة ، وهو أن الوصول الى الله ونيل رضاه هو في الحقيقة وظيفة الانسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة ، ولا وظيفة له غير ذلك مطلقاً ، فيجب عليه أن لا يسعى لشيء مثل ما يسعى لهذه الغاية ، ولا يحب شيئاً مثل ما يحبها . « قل : « ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين(١) » « واذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا(٢) » . ان هذه العقيدة وهذه العاطفة هو الينبوع الذي

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٢ .

تتفجر منه الأنهار والشلالات فيظن الجاهل أن هذه الأنهار أو هذه الشلالات هي غايته القصوى وأنها هي المقصودة ، ولا يفهم أنها مظاهر هذه العقيدة ، أو أجزاء هذا الكل ، وقد يندهش الباحث اذ يرى - وهو يدرس هذه الحضارة - أن خيطا من النور يربط مظاهر هذه الحضارة وأجزائها برباط متين وثيق ، فمن امانة الأذى عن الطريق الى آخر درجات الجهاد وأفضل أنواع السعى الدينى روح واحدة لا يتخللها شىء ، روح التقرب الى الله والسعى اليه ، ان هذا التناسق وهذا الانسجام بين مبادئ هذه الحضارة وأعمالها ومظاهرها شىء يدهش له الانسان ولا يجد له تأويلا ، وكلما يخوض فى الدراسة يزداد حيرة واعجابا ، ويزداد ايمانا وتصديقا .

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا(١) » .

بخلاف « الحضارة الانسانية » فانه يرى أن الغايات هنا متعددة ، والأهداف هنا متنوعة ، والآلهة هنا كثيرة ، أو ليست هناك غاية ولا هدف ، ولا اله على الاطلاق ، كما أنه لا يجد تناسقا فى الأفعال ، ولا اتحادا فى الغايات ، فما لقيصر لقيصر ، ومالله لله ، بل مالله لقيصر - اذا نظرنا الى الحالة السائدة اليوم .

أما فى الحضارة الالهية فالحياة كلها عبادة ، والأرض كلها مسجد ، فلا ترى انسانا فى هذه الحضارة الا وهو فى

(٢) سورة الأنعام ٥٠

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

سعى دائب متواصل ، وحنين دائم مستمر لأن يكون أحسن عملا من جميع الناس ، وأن يكون « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا (٢) » .

وهذا هو المبدأ الأول الذي يقوم عليه صرح حضارتنا الالهية، وهو ينفخ في نفوس أبنائها روحا تحترق كالشمعة، وقلبا سليما لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، وعاطفة مؤمنة جياشة لا يفرها الجمال الكاذب والمتاع الزاهب ، وتسيطر هذه الروح على جميع مرافق هذه الحضارة فمن النظام الفردي الى النظام العائلي الى النظام الأسرى ، الى النظام الاجتماعي ، الى النظام الدولي مظاهر متعددة لشيء واحد ، وصور شتى لحقيقة واحدة :

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل الى ذاك الجمال يشير .

انها حضارة متسقة متزنة ، قد يختلف فيها الاثنان في منهاجها وسلوكها ، وقد يختلفان في وظائفها وأعمالها ، فهذا تاجر وذلك عامل ، وهذا موظف وذلك فلاح ، وهذا حاكم وذلك محكوم ، وكل له حقل خاص ، ووظيفة خاصة ، ولكن الشيء الذي لن يختلف فيه اثنان في هذه الحضارة هو النية من وراء هذه الوظائف والأعمال ، والروح التي تحدوها ، فان

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

هذا الشيء لا تتعدد فيه مسالكهما ولا تتفرق فيه سبلهما
أبدا .

المجتمع الرباني : اذا قلنا ان مجتمع الحضارة الالهية
مجتمع تعاوني اشتراكي ، لعدلنا كثيرا عن الصواب ، ان هذا
المجتمع أكثر من اشتراكي وتعاوني وأفضل منه ، وهذا
المعنى لا يكفي لتصوير روحه كاملا ، ان المجتمع الاشتراكي
يقوم على أساس تبادل المنفعة ، بل ان كل مجتمع انساني
يقوم على أساس التعاون والاشترار في العمل ، ولا يستطيع
أن يعيش يوما واحدا بغيره ، فان الانسان خلق ضعيفا ،
ولا بد لهذا الانسان الضعيف أن يكون له أعوان وأنصار
وأصدقاء ، ولكن المجتمع الرباني له لون خاص ومكانة فريدة
بين الحضارات ، انه لا يعتبر الانسان - شأن الحضارات
الانسانية الأخرى - سلعة للبيع مهما كانت ثمينة أو غالية ،
ولا يحب له أن يعيش على أساس تبادل المنفعة فحسب ، بل
انه يهديه الى طريق أفضل ، وهو أن يعيش الانسان في هذا
العالم لتعيش رسالته ودعوته التي بعث من أجلها ، وأن يخدم
الآخرين ويساعدهم غير طامع في أجر ، ولا حريص على مكافأة
« يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، ان أجرى الا على الذي فطرني
أفلا تعقلون(١) » وأن لا يعلق قلبه بمباهج الحياة وزخارفها ،
فان أصابته سراء حمد الله ، وان أصابته ضراء استغفر الله ،

(١) سورة هود ، الآية ٥١ .

وأن يؤمن بأن القدر خيره وشره من الله تعالى ، فلا حاجة الى الاستعانة بمخلوق والاقبال عليه فى أمر من الأمور ، بل ينبغى للجميع أن يتوجهوا الى الله ويثوبوا اليه ، وأن لا يقصروا فى أداء ما عليهم من حقوق وواجبات وأمانات فرضها الله عليهم ، غير طامعين فيما عند الناس فان ما عند الله هو خير وأبقى ، وكان هذا شعار الأنبياء دائما ، وشعار أصحابهم من بعدهم .

ان الفرد فى هذا المجتمع لا يبر أخاه ، ولا يساعده ، ولا يعنيه كواجب خلقى محض ، يجب على الجميع أن يودوه كاملا وفق ما تفرض عليهم اشتراكية المجتمع ، بل انه يقوم بهذا العمل حرصا على الثواب ، وطلبيا للمغفرة ، وطمعا فى رضى الله سبحانه ، وفى هذا المعنى يقول الحديث الشريف : « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » بخلاف الفلسفة المادية التى تقول : « ان العبد فى عون العبد ما دام متعاونين » وشتان بينهما ، فالنتيجة أن كل فرد فى هذا المجتمع يبقى فى محاولة مستمرة ، ليسبق أخاه فى الخيرات والحسنات ، حتى يستحق ثواب الله ورضاه ، ويستحق جنته التى وعدّها الله عباده بالغيب .

اليد العليا خير من اليد السفلى :

لعل هذه الجملة هى خير ما تمثل المجتمع الربانى ، فهى تربى المجتمع على أجمل معانى التضحية والايثار ، وهو مظهر

رائع من مظاهر الحضارة الالهية والمجتمع الربانى .
ومعنى اليد العليا أن يؤدى الانسان واجبه ولا يطلب
حقه ، وأن يعطى ولا يأخذ ، وأن يعين ولا يستعين ، وأن يحب
الأخيه ما يحب لنفسه ، فاذا استقرت هذه المعانى فى مجتمع ،
رفعت منه الثورات والضغائن ، وذابت فيه الأحقاد ، وقضى
على النفعية والانتهازية وحب الذات الى الأبد ، وهذا هو
الشيء الذى لم يوفق اليه المجتمع المادى ، فكله الآن صراع
مستمر من أجل الحقوق ، العمال يحبون أن يعملوا قليلا
ويربحوا كثيرا ، وأصحاب المعامل لا يريدون ذلك ، انهم
يحبون أن يكدح العمال والفلاحون ليل نهار مقابل راتب
ضئيل لا يكفى لمطالب حاجاتهم ، وهنا ينشأ الصراع ، ثم
ينتهى هذا الصراع الى اضرابات ، وتؤدى هذه الاضرابات الى
معارك دموية ، تزهق فيها الأرواح ، وتسفك فيها الدماء .

أما فى المجتمع الربانى فالحالة هنا مختلفة تماما ، لأن
كل فرد فيه حريص على الانفاق ، حريص على الخير ، حريص
على السماح والعفو ، فلا داعى للصراع بين الطبقات ، ولا مبرر
للحقد والبغضاء فى النفوس .

« عن أبى ذر قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وهو يشترط على أن لا تسئل الناس شيئا ، قلت :
نعم . قال : ولا سوطك ان سقط منك حتى تنزل اليه
وتأخذه » وهذا الحديث وحده يعيننا فى فهم هذا المجتمع
ودراسته وتحليله .

- وفي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما نقرأ عنه من أنه كان يزاول جميع أعماله بيده المباركة أكبر دليل على ذلك . والتاريخ الاسلامي حافل بهذه الأمثلة والقصص فنرى أن كل من تذوق حلاوة الايمان ، ودخلت بشاشته في قلبه أفنى نفسه وماله ابتغاء لوجه الله ، وطمعا في رضاه ، وبالغ في خدمة الناس وايصال النفع اليهم ومعاونتهم بينما لم يرض لنفسه أن يمن عليه أحد ولم يطلب حقه من أحد ، وتمنى لو جمع بين حسنات الجميع ورجع بثواب الجميع .

تضحية وايثار :

ان التعاون واجب وطبيعي ولازم للبشرية ، ولكن دراسة الاسلام ودراسة حضارته الالهية تقنع الباحث الحر أن هنا فرقا عظيما بين المجتمعين : الرباني والاشتراكي ، وأن هذا المجتمع لا يشبه المجتمعات القديمة والحديثة أدنى شبه ، وأن به آفاقا لا تشاركه فيها المجتمعات الأخرى .

ففي الأول تضحية وايثار وعفو وسماحة ، سماحة قلب وسماحة يد ، وسباق الى الخير ومكارم أخلاق ، وذلك كله ايمانا واحتسابا .

وفي الثاني سوق للتجارة وتبادل منافع ومصالح ، وتقسيم أرباح ، فاذا قصر أحد في واجبه حدث صراع بين

الأفراد ، وعمت الفوضى ، فلا يلبث هذا التعاون أن يتحول الى تطاحن وعراك ، يكدران صفو الحياة .

فى الأول : الناس يستقبلون تكاليف الحياة ومطالبها باسمين وان لم يجدوا جزاءها فى هذه الدنيا ، لانهم واثقون بأنهم سينالون جزاءها موفورا فى الدار الآخرة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(١) » .

وفى الثانى : الناس لا يستطيعون أن يتحملوا تكاليف

الحياة ومطالبها الا اذا كانت لهم فى ذلك فائدة ملموسة ونفع ظاهر فى هذه الحياة ، ولا يحبون أن يحسنوا الى أحد الا اذا أحسن هو اليهم ، ولا يؤثرون على أنفسهم ولو كانوا أغنياء ، وذلك لأن حب الذات قد طغى عليهم الى حد جعلهم لا يفرقون بين الشر والخير ، ولا يميزون بين الحبيث والطيب « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن نجد له ولها مرشدا(١) » .

فاذا وصف أحد المجتمع الاسلامى بأنه مجتمع اشتراكى أو تعاوى ، فقد أخطأ وأساء الى روح هذا المجتمع وشبهه بشيء لا يرفع قيمته بل ينقصه ، وانه بذلك أدخله فى صف المجمعات المادية قديما وحديثا ، التى لا ندرى ان واحدا منها حقق عشر ما حققه المجتمع الاسلامى ، أو أسى بثمرة واحدة من التمار الطيبة التى يتوفر بها هذا المجتمع .

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

الى الله :

وإذا كنا أكثر صراحة وبساطة وأكثر دقة ووضوحاً قلنا : ان هذه الكلمة الخفيفة على اللسان ، الثقيلة على الميزان هي فى الحقيقة محور نشاط هذا المجتمع ، وكعبة آماله وأحلامه ، وهى التى تنفخ فيه الروح وتبعث فيه النشاط ، وهى حادى الشوق الذى يحدو هذا المجتمع الى غايته ومقصوده ، ويحبب اليه متاعب السفر ، وآلام الطريق ، ويجعله ينشد بلسان حاله :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب .

ان المثل الفريد لكل فرد فى هذا المجتمع أن يكون من عباده الذين ذكرهم الله فى كتابه المجيد ، بقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فهو يبذل ماله ونفسه بلا تردد ولا حساب ، ليجمع أكبر مقدار ممكن من الحسنات ، والحسنات لا حد لها ولا نهاية ، وكلما يزداد حسنة يزداد شكراً وحمداً ، وتوبه واستغفاراً ، وخشوعاً وابتهالاً ، ولا يزال يقطع مسافة بعد مسافة ، ويطوى مرحلة بعد مرحلة ، ويفتحم عقبة بعد عقبة ، الا ويتكرر فى أسماعه قول الله تبارك وتعالى « هو الذى خلق

الموت والحياة ، ليلبوكم أيكم أحسن عملا(١) » « واعبد ربك حتى ياتيك اليقين(٢) » و « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه(٣) » . فتجيش العاطفة فى صدره مرة ثانية ، ويواصل رحلته الروحية بنشاط مزيد وأمل جديد ، حتى يسمع هذه البشرى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا(٤) » « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمواهم بان لهم الجنة(٥) » « يا أيتها النفس المطمئة ارجعى الى ربك راضيه مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى(٦) » .

ان هذه العقيدة الدافئة ، وهذا اليقين الراسخ ، والحب الصادق ، هو أكبر قوة موجهة وأكبر معجزة عرفتتها البشرية فى عمرها الطويل ، وبهذه القوة الحارقة والمعجزة الكبرى ان وجود حضارتنا الاسلامية وحياتها ، وبذلك ان بقاؤها واستمرارها ، وبذلك كان نموها وازدهارها ، وبذلك كان ابداعها واعجازها ، الحضارة التى أدهشت عقول الفلاسفة والمفكرين ، وحيرت العلماء والمؤرخين فى التاريخ ، ولا غرابة فانها شئ أعز وأتمن من التاريخ ، انها من الله واليه . . . انها « الحضارة الالهية » .

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (٢) سورة الحجر - ٩٩ . | (١) سورة الملك - ٢ . |
| (٤) سورة الأحزاب - ٢٣ . | (٣) سورة الانشاق - ٦ . |
| (٦) سورة الفجر - ٣٠ . | (٥) سورة التوبة - ١١١ . |

الغرب فى ضوء التحليل النفسى

ان دراسة الحياة الغربية بما فيها من متع وزخارف ، وآلام ومخاوف وتحليلها تحليلًا نفسيًا توصلنا الى نتائج مهمة ، بها صلة كبيرة بالوضع الانسانى الحاضر والعالم المعاصر ، كما أن فيها دروسا عظيمة للعالم الاسلامى الذى يتهيأ اليوم للوتوب والانطلاق للتعويض عما فاته عبر القرون الماضية المتلاحقة ، وأخذ يبصر نهاره الساطع وراء السحب الداكنة والدخان المتصاعد من الفتن والثورات والتطورات وان لم تتبين معالمه وتباشيره بوضوح .

ان الحياة الغربية ليست وليدة المصادفة ، ولا مفقودة النسب بل انها قامت على تقاليد وأصول ومبادئ وتاريخ ، وانتمت الى الحضارة الرومية وورثتها خلقيا وفكريا ، ولها مقومات ونظريات خاصة ، لا يمكن اهمالها والاعراض عنها ، ونحن فى موقف الدراسة النزيهة ، والتحليل النفسى الحالى . ان الصراع الطويل بين العلم والدين وبين الكنيسة والبلاط دفع أوروبا دفعا قويا الى الاخذ بالأساليب المادية فى حياتها بل التفانى فيها ، وظلت هذه النزعة تقوى على مر الأيام ، حتى آل بها الأمر الى ما نراها عليه الآن ، وكان كل

ذلك طبيعيا وواقعا لا محالة ، ولكنها كانت النكبة الأولى
والمأساة الأولى ، والنكبة الثانية بدأت الآن - بعد أن بلغت
أوروبا أوج قوتها المادية - وتجلت معالم هذه النكبة بوضوح
فى الحياة الأوربية اليوم .

كانت النكبة الأولى نكبة لذيذة اذا صح هذا التعبير ،
نكبة شباب فجع متهور لا يبالي بالأخطار ، لقد كان فيها الحرارة
والنشاط ، والتحمس والاندفاع ، والآمال والأحلام ، كان
فيها شوق رجل يريد أن يرتقى الى قمة عالية من الجبل ، وهو
يتوهم أن فيها معين الحياة الخالدة التى طالما تغنى بها الشعراء
فى الشرق والغرب ، فهو فى حنين دائم مستمر ، لا يعرف
للسهر والتعب معنى ، ولا يحسب لهما حسابا ، ويندفع
اليها اندفاع الهائم أو المفتون ، وهذه كانت حالة أوروبا تماما
طوال هذه الحقبة من الدهر .

ولكنها الآن - وقد بلغت هذه القمة ، وجدتها خرابا
بلقعا - تواجه أزمة عاطفية حادة ، لا تستطيع أن تعرف
كنها ، ولا تقدر على التخفيف منها ، انه الشعور بالفراغ
الروحي ، انه الملل النفسى أو السامة النفسية التى اعترتها
وطغت على سائر بيئاتها ، فلم تخل منها مدرسة ولا بيت ،
وكان كل ذلك طبيعيا وواقعا ، فان الانسان مفطور على الحنين
والتطلع الى الهدف أيا ما كان ذلك الهدف ، وهو يجب أن
يكون له هدف يجرى نحوه جريا ، ويتلذذ بهذا الجرى

لمتواصل ، واذا نال هذا الهدف أحب أن يكون له هدف آخر
بستهلك قواه ومواهبه وطاقاته وأشواقه .

ان الحياة الغربية اليوم حياة مريحة « مكيفة » والانسان
الغربي نال كل ما تمنى من قوة مادية ، وعزة قومية ، ومع
ذلك فان هنالك آلاما وأوجاعا ، تعانيها كل أسرة وكل بيت
فى الغرب سواء فى أميركا أو فى انجلترا ، أو فى أى قطر من
الأقطار الأوربية .

انهم يبدوون لك كأنهم فقدوا شيئا ، ولا يعلمون ما هذا
الشيء ؟ ولكنه شئ خطير ، أعقب كل ذلك الحلل والاضطراب ،
والقلق والارهاق ، والملل والسامة ، والفراغ الروحي الرهيب
المبيد فى الحياة الغربية ، وملأتها مخاوف وهواجس من
مصيرها ، ولكن هل هى تعرف مصيرها ، كلا ! انها اذا حيرة ،
حيرة صامتة ، استبدت بالحياة الأوربية ، أو مست كل فرد
من أفرادها ، من غير أن يعرف من أمرها شيئا .

فما هى آثار هذه الحيرة وتلك السامة فى حياتها ؟

لئن كانت آثار هذه الحيرة والسامة غامضة نوعا ما قبل
أعوام ، فانها أصبحت الآن واضحة جلية ، فى جميع مرافق
الحياة الأوربية ، نلمسها فى كل شارع ، وفى كل بيت ،
ونقرأ أخبارها كل يوم فى الصحف ، والجرائد ، وان نمر بها
مرا سريعا ، من غير أن نفهم دلالتها ومغزاها العميق .

أفادت الأنباء منذ أيام « أن رجلا فى « أستراليا » ابتلع

ثمانية فيران ، نظير ١٧ فلسا تقريبا ، فقبض عليه البوليسر
بتهمتين : تهمة محاولة الانتحار ، وتهمة انقسوة بالحيوان
وأجريت عملية جراحية فى بطنه ، فخرجت منه الفيراز
الميتة .

لئن كان ذلك حادثا واحدا ما استرعى اهتمامنا ، ولم
نقف عنده موقف المتأمل الباحث ، ولكن توالى هذه الحوادث
وتتابعها بصورة عامة دائمة ، حتى أصبحت ظاهرة قوية من
الحياة الأوربية ، وجزءها الذى لا ينفك عنها ، دفعنا على أن
نحاول فهم دلالتها المعنوية والوصول الى كنه الحياة الأوربية
التي تعاني آلاما وأمراضا اجتماعية وخلقية كثيرة من غير
سبب ظاهر .

واليك مثلا آخر قد يكون أكثر دلالة وأكثر وضوحا
« قام أساتذة جامعة أوربية وعلماؤها بتجربة مثيرة ، فقد
خرجت جماعة مؤلفة من كبار أساتذة الجامعة ، ودخلوا فى
حديقة وانطلقوا يأكلون الأعشاب والبقول على هيئة الدواب
والأنعام ، وقال العلماء : انهم وجدوا لذة كبيرة فى هذه
الطريقة الجديدة .

وقرأنا فى الجرائد منذ زمن أن رجلا قاموا بمباراة
الكلام الفارغ فأخذوا يتكلمون ثلاثة أيام ليلا ونهارا بدون
انقطاع حتى تورمت ألسنتهم ، وأشرفوا على الهلاك ، وآخرون
قاموا بمسابقة المشى ، فربطوا بأرجلهم دواليب تنزلق بهم ،
فلم يقفوا للحظة واحدة مدة يومين أو ثلاثة ، وذلك رجل

عنا الصحفيين الى حجرته فى احدى المطاعم الأوروبية الفاخرة ،
لشاهدة حادث انتحاره ، وقال : انه دعاهم ليشاهدوه
منتحرا ، ثم يسجلوا هذا الحادث اذطيع فى صحفهم بعناوين
بارزة .

وهذا يقفز من الطائرة ويقتل نفسه ، ليحرب هذا
النوع الفريد من الانتحار الذى لم يوفق اليه أحد من الناس
حتى الآن ، وذلك ثرى يقف كل ثروته وممتلكاته لكلبه
الحبيب الوفى بعد وفاته ، وهذا أرستقراطى كبير ذو مكانة
مرموقة فى المجتمع يبنى بناية شامخة مكيفة لكلايه المدللة .

ان مثل هذه الظواهر والحوادث تجلت فى كل ناحية من
نواحي الحياة الأوروبية ، وتسربت فى أجزائها ، ولو استقصينا
ما وقع بالأمس اقريب ، ويقع اليوم ، وما يجرى فى هوليوود
من مهازل لرجعنا بحكايات مضحكة طريفة ، قد لا تصدق ،
ولكنه واقع لا ينكر ، وهو طابع الحياة الأوروبية الأصيل فى
الوقت الحاضر .

اذا درسنا تلك الحوادث والظواهر التى ذكرناها آنفا
وحللناها رجعنا منها بنتيجة واحدة ، وهى :

ان جميع هذه الحوادث تدل على قلق نفسى شديد وفراغ
روحى رهيب ، أغلق على الغربى منافذ فكره ، وأظلم دروب
حياته فظل يروح نفسه بأشياء تافهة ، عساها تجد فيها
متعتها ، أو يبلغ بغيتها ، أو يروى غلتها ، أصحاب هذه

الظواهر يبدوون في الظاهر أنهم أثرياء مترفون متنعمون
ولكنهم في الحقيقة أشقياء غير مسرورين ، مصابون بآلا ،
وأسقام وأوجاع نفسية وعصبية وروحية ، جعلت حياتهم
جحيمًا لا يطاق .

انهم جعلوا المجد والشهرة والقوة السياسية والمادية
نصب أعينهم ، فبلغوها وجنوا ثمراتها ، وهناك بدأ ذلك
الصراع النفسى ، فماذا بعد هذه الحرية العامة والانطلاق التام
من قيود الخلق والروح ، الا الحيرة والجنون والضلال .

ونسوق اليك مثالا آخر ، وهو يؤيد قولنا أنه لم يبق
جزء ، من الحياة الأوربية ، الا وقد تأثر بهذه الظاهرة ،
واصطبغ بلونها ، وان هذه الحوادث ليست حوادث فجائية ،
أنت عفووا ، ومن غير قصد ، بل انها نتيجة تطور داخلى هائل
وداء أصيل كامن فى النفس ، له جذور عميقة ، فى قرارة
الحياة الغربية .

خذ مسألة الطعام ، ان طريقة المآدب الأوربية المفضلة
اليوم أن يأكل فيها الناس قياما ، فعليهم أن يتجولوا فى
صالة الطعام ويأخذوا لقمة من هنا ولقمة من هناك ، مشيا على
الأقدام .

كل ما فى الأمر أن هذا شئ جديد ، وان خالف العقل
والصواب ، وان خالف مصلحة الانسان ، ومنفعته أيضا .

ان الدوافع الأساسية على مثل هذه الأعمال والظواهر

دوافع متشابهة . فالذى ابتلع الفيران لم يكن فى حاجة الى هذه الفلوس القليلة ، بل انما قام بهذا العمل العجيب الكريه ليواجهه - ولو من غير نتيجة - ذلك الفراغ الذى حطم كيانه ، ولما أنه لم يكن يملك أعصابا قوية تدفعه على عمل مثل الانتحار ، رضى لنفسه بمثل هذه التفاهة والعبث الفارغ .

والذين قلدوا الدواب والأنعام فى أكل الأعشاب والبقول لم يقوموا بها بدافع افضول أو على سبيل النكتة والسخرية ، انهم أرادوا عزا علميا ومكانة اجتماعية ، فنالوها وأرادوا الدنيا فتهاكت عليهم ، فاستمتعوا بها ، ولكنهم أحسوا سريعا أنها أخفقت فى اعطائهم طمأنينتهم المفقودة ، وسر حياتهم الضائع ، ولما لم يكن أمامهم طريق غير هذا الطريق المادى ، ولا هدف غير هذا الهدف المادى ، أرادوا أن يجربوا حياة الدواب ويعيشوا فى هذا الجو حينما من الدهر ، عليهم يجدون ما يبتغون .

انها سامة ولا شىء ، سامة خفيفة كامنة فى الدم ، غارقة ، فى اللحم والعظم ، سامة فى كل حركة ونشاط ، وفى كل ما يقومون به من أعمال .

الحياة الغربية حياة ربطت ناصيتها بالآلة الصماء ، فانها - مهما ابتليت بها على يديها ، وذوقت منها ألوانا من العذاب - مربوطة بها بالسوق والأعناق ، لا ترى الى المناص سبيلا ، ولا تجد الى الخلاص حيلة ، اذا أخفقت فى نوع جربت نوعا آخر من نفس الشىء الى ثالث ورابع وخامس ، دوزان لا ينتهى ولا أمل فى انتهائه ما دامت لا تعدو أرضا واحدة ، هى أرض المادة والقوة القومية .

مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى

هذه الناطحات للسحاب ، وتلك المباريات للريح ، وهذه الخافقات فى السماء ، والسابحات فى الماء ، وهذه الأنوار المتلألئة البديعة والألوان الرائعة البهيجة ، وهذه الأصوات المحمولة على جناح الأثير ، والصور الحية المتحركة على الشاشة ، وهذا المقعد المريح ، والفراش الوثير ، والطعام اللذيذ ، والزى الأنيق ، وهذه الابتسامة المتكيفة ، والمشية المتبخترية ، وهذه الأجساد العارية الكاسية ، والنزوات الثائرة العاتية ، وهذه الحرية الكاملة فى طريق الشهوات الفتية الجامحة ، ليست « حضارة » إنما هى مظهر طبعى ، ومظهر برىء ، ومظهر صادق ، للروح المستورة وراء هذه المظاهر ، والصور والأشكال .

انها ليست حضارة أبدا ، وانها ليست نهضة أبدا .

فالعبرة دائما - وفى جميع الأحوال والملابسات - باليد العاملة من وراء ستار ، وبالروح الآمرة الناهية المتصرفة فى خفاء ومن وراء جدار .

عندنا فى الشرق - وفى الشرق الاسلامى بوجه أخص - خلط وابتباس عجيب فى مفهوم الحضارة « والنهضة » ان مداركنا لهذه « الحضارة » لا تختلف كثيرا عن مدارك الرجل

الغربي للحضارة ، اننا لم نستطع أن نفرق بين اللب والقشر ،
وبين الوجه المستور والوجه المكشوف ، وبين الصورة
والحقيقة ، وبين القيم الراسخة في النفس ، الغارقة في
الأعماق ، وبين هذه المظاهر المبعثرة على وجه الأرض ، المنتشرة
في الافاق •

الحضارة ليست ذك الكرسی الذي نجلس عليه والقلم
الذي نكتب به ، والاناء الذي نشرب منه الماء ، انما هو
« الشخص » الذي يستعمل هذا وذاك لغرض خاص وعاطفة
خاصة ، وروح لا تنفك عنه لأي لحظة من اللحظات ، فاذا
كانت هذه الروح روحا قدسية وروحا طيبة وروحا نظيفة
جلس يذكر الله ، وراعى أثناء الشرب أن لا يكون حراما ،
وحمده على هذه النعمة ، وشكره على هذا الخير •

واذا كانت هذه الروح روحا سافلة ، روحا خبيثة
ملتصقة بالأرض ، متمرغة في الوحل ، وحل الشهوات
والنزوات ، جلس لنفسه أو لشیطانه ، وكتب في تشويه الحق
وتقوية الضلال ، وشرب من آنية حرام وماء حرام ، وعاد الى
اجرامه في محاربة دين الله •

فالحضارة اذا ليست هذه « الأدوات البريئة » التي
خلقها الله في خدمة الانسان ، بل انما هي روح تهيمن على
هذه التصرفات ، والنية التي تنبعث منها هذه الأعمال •
« وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » •

ان مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى ، غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره وألوانه ، وهذه هى نقطة الفصل ، ونقطة الالتباس أيضا ، الأصل - فى المجتمع الاسلامى - هو العبودية لله ، والخضوع أمام شريعته والاتصال به اتصال القلب والروح والتفكير والوجدان ، والجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان ، أما هذه الوسائل والأدوات فهو لا يأخذ منها الا بقدر ما يكفى لتحقيق مهمته فى هذه الحياة ، واعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولا يأخذ منها الا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله .

أما مقياس الحضارة فى الغرب فهو أن يأخذ الانسان كل ما تهوى نفسه من مال ومتاع ونساء بالوجه الشرعى أو غير الشرعى سواء بسواء ، ان هذا المقياس يعتبر السابق فى هذا المجال والفائز فى هذه المسابقة أسعد انسان على ظهر الأرض ، وبين المقياسين بون شاسع وفرق هائل . ولكنه فرق طبيعى بين الاسلام والجاهلية ، فى سائر نشاطاتهما وأدوارهما منذ زمن قديم قديم جدا ، ان روح الغرب مادية بحتة ، مظلمة كالحلة ، وهى لا تستطيع أن تنتج غير هذه المظاهرة المادية ، انها عقيمة عن كل نوع من الأهداف السامية ، والأغراض النبيلة ، انها عاجزة عن أن تنجب الايثار ، والحب ، والحنان ، والايمان ، والانابة ، والتوكل ، والشكر ، والقناعة ، والصبر ، والتماسك ، والعفاف ، والطهارة ، والاخلاص ، والوفاء ، والطاعة ، والولاء ، ولا أى

معنى نبيل كريم عظيم ترتفع به هامة الانسان فى غابة
الحيوانات ، ويسمو به على غيره من المخلوقات .

هذه الروح المادية المظلمة هى مقياس « الحضارة » فى
الغرب ، وأساسها وجوهرها ، ولحمتها وسداها ، وطابعها
الدائم الأصيل ، فاذا هى ركزت كل قواها على المادة ، فانها
بذلك لم تأت بدعا ، بل انما عملت عملها الطبيعى ، وقامت
بدورها المنتظر ، وآتت ثمرها المرتقب .

أما نحن - تلك الأمة التى بعثها الله لتغيير الموازين
والمقاييس وتغيير وجه الأرض واتجاه الانسانية - فلا يجوز
لنا ولا يجدر بنا أن نقع فريسة هذا الخلط العجيب بين
المقياسين ، وبالتالى بين الحضارتين .

ان استيلاء الغرب العلمى والسياسى أقام ستارا كثيفا
دون رؤية الحقائق ، وذر الرماد فى عيوننا ، وفرض علينا
مفهومه الخاص عن الحضارة الذى لا يقبله الوحي واشريعة ،
والدين الالهى ، فى أى حال من الأحوال .

فحينما يقولون - فى جميع البقاع والأصقاع - عن
مجتمع أنه متحضر ، أو عن شعب أنه شعب متحضر ، فانهم
لا يريدون بذلك تلك الصفات الانسانية النبيلة ، والأهداف
السامية ، بل انهم يريدون تضخمه المادى ، ورخاء
الاقتصادى ، وتفوقه العلمى فحسب ، ولو كان ذلك على
حساب ضمير المجتمع وقلبه وانسانيته ، فأصبح المسلمون

أيضا منذ زمن طويل منذ استيلاء الغرب وفوزه بعرش
القيادة ، لا يفهمون من « الحضارة » الا ذلك المعنى الغربى ،
وظلوا طوال عشرات السنين يدافعون عن الاسلام دفاع المعتذر
الخائف ، ويحاولون أن يبعدوا عنه هذه التهمة المزعومة التي
التصقت به ، فانطلقوا بنفس النعمة الغربية ، وعرضوا
الاسلام كحضارة من هذه الحضارات المادية ، الأرضية ،
السافلة ، وقالوا : ان حضارتنا سبقت الغرب فى هذه
الأنواع ، وانها أيضا أقامت الحمامات الضخمة ، والينابيع
العظيمة المدهشة ، والمباني الهائلة الرائعة ، وشجعت الفنون
الجميلة والصورة والرسم والموسيقى ، وقدموا الآثار
التاريخية ، أمثال قصر الحمراء فى الأندلس ، والتاج محل فى
الهند ، كنموذج لهذه الحضارة الرائعة الزاهية .

هنالك طبقة من المثقفين وأنصاف المثقفين فى ربوع
العالم الاسلامى كله لا تزال تحتضن هذه الفكرة منذ زمان ،
وترى فيها السلامة والأمان ، ولكن هذه الفكرة - فى الأصل
- فكرة غربية تماما ، تولدت من سوء فهم لمعنى الحضارة ،
وسوء تقدير للمنهج الاسلامى ، المستقل الأصيل .

إذا كانت هذه الأشياء « حضارة » فمعنى ذلك أن
الصحابة والتابعين كانوا غير متحضرين ، وكانوا جهالا
قرويين ، - ونعوذ بالله - أمام بطارقة الفرس والروم ،
وملوکہما وأمرائهما ، ويحلولى أن أقدم هنا منظر دخول
ربعى بن عامر ، بلاط رستم قبل وقعة القاسية ، فان فيه

تفسيرا لما نقول ، وتصويرا للموقف الاسلامى ازاء الحضارات
المادية قديمها وحديثها .

« أرسل سعد بن أبى وقاص قبل ايقاسية ربعى بن عامر
رسولا الى رستم ، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل
عليه ، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى والحريير ، وغير
ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ،
ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل
راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها
ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ، وبيضته على
رأسه ، قالوا له : ضع سلاحك ، فقال : انى لم آتكم ، وانما
جئتكم حينما دعوتمنى ، فان تركتمونى هكذا والا رجعت ،
فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ،
فخرق عامتها فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : « الله ابتعثنا
لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن
ضيقت الدنيا الى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان الى عدل
الاسلام » .

هنالك نرى الحضارة الاسلامية واضحة جلية فى موقف
ربعى بن عامر فى هذا البلاط وحديثه مع الملك ، ودعوته الى
الدين الحق ، وهو يدلنا أن حضارة « النمارق والزرابى »
ليست الا بداوة وتأخرا وانحطاطا اذا خلت عن نور الوحي
الالهى والهدى السماوى ، وأن المظاهر لا اعتبار لها ، بل ان
الاعتبار للروح التى تحدوها .
وقد تسربت موجة من هذه المظاهر على مر الزمن فى

المجتمع الاسلامى أيضا فحاربها عمر بن عبد العزيز فى عهده ،
وأصلح ما فسد ، وأقام ما اعوج ، وسد هذه الثغرات فى
حصن المجتمع الاسلامى ومقله المنيع .

الاسلام لا يعادى نعمة الرخاء والهناء ، وقد قال القرآن :

« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات
من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم
القيامة » (١) .

ويقول :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله
اليك » (٢) . وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
دائما طلب العفو والعافية واليسر والمعافة فى الدنيا والآخرة .

ولكنها ليست - عنده - حضارة فى ذلك المعنى الخاص
الذى يراد به فى الغرب والشرق اليوم ، انه لا يعتبر الفقر
فى المكاسب والمغانم واورسائل والأدوات تأخرا وانحطاطا ،
ولا يعتبر الرخاء المادى « حضارة ومدنية » بل انما العبرة
عنده بالروح التى تستر وراء هذا وذاك وتسوقه هنا وهناك ،
وشعاره الوحيد ، أنه لا قديم ولا جديد ، ولا حضارة

(١) سورة الاعراف ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٧٧ .

ولا بدآوة ، ولا تأخر ولا نهضة ، ولا رجعية ولا تقدمية ، بل
جاهلية واسلام ، ونور وظلام .

« فماذا بعد الحق الا الضلال » !

فالمسلم الفقير ، الجاهل ، المجرد من كل شارة ولافتة ،
العاطل من كل زينة ورخاء ، ورواء وبهاء ، متحضر ، ومثقف ،
راق اذا حمل فى صدره نعمة الايمان ولوعة الحب ، وتربى على
تلك المكارم والفضائل التى دعا اليها الاسلام .

فأصبح الشئ الفاصل بين « متحضر » و « متخلف » هو
الايمان ومدى تسربه فى اقلب ، وسيطرته على النشاط
الفكرى والعضوى ، وأصبح مقياس « الحضارة » تلك الفضائل
الاسلامية والأهداف السامية التى رأينا مثلها الشاخص الحى
فى المجتمع الاسلامى فى القرن الأول ، ووجدنا نظائره
وأشباهه ، وبعض ملامحه وصوره فى الأوفياء لدين الله ، فى
هذا العصر ، القابضين عليه بين جواذب الحياة واغراءات
المجتمع وسوط التعذيب كالقابض على الجمر .

مقياس الحضارة فى الاسلام روح وقلب ، ومقياس
الحضارة فى الغرب حديد وصلب .

مقياسها فى الاسلام مدى ايمان الفرد والجماعة وكيفية
جهادها للرسالة التى تحملها ، والدعوة التى تحتضنها ،
ومقياسها فى الغرب وفى تلاميذ الغرب مدى مادية الفرد

والجماعة ، ومستوى غناها وثروتها ومنطقة نفوذها وسيطرتها ، وصلاحية احتلالها واستغلالها .

مقياسها في الاسلام الايثار وانكار الذات ، ومقياسها في الغرب الاثرة وتعبد الذات ، مقياسها في الاسلام البر والمؤاساة ، ومقياسها في الغرب الأناية واللامبالاة .

مقياسها في الاسلام قدسية الأهداف ، ونبل الغايات ، ومقياسها في الغرب مادية الأهداف ونفعية الغايات .

مقياسها في الاسلام العلم النافع ، والقلب الحاشع ، ومقياسها في الغرب تضخم المعلومات ووفرة الذخائر ، وتحجر القلب وقسوة الفؤاد .

مقياسها في الاسلام تحقيق خلافة الله في الأرض ، واجراء أحكامه وشرائعه في البشر ، والسير بالانسانية على خط مستقيم نحو هدفها الحقيقي ومأمنها الأبدى وعيشها السرمدي ، ومقياسها في الغرب تحقيق نزوات الجسد ، والحكم بالطاغوت ، والسير بالانسانية على خطوط متفرقة نحو أهداف رخيصة ومتعة عاجلة ونعيم زائل ، وسراب خادع ، وسخط الله وعذابه في الأخير .

مقياسها في الغرب ، الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، والقاصي والداني ، والتقريب والبعيد ، والقوى والضعيف ، والمالك والمملوك ، والغنى والصلعوك ، ومقياسها

فى الاسلام « كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ،
لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه
نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء » (١) مقياسها
فى الاسلام « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم
عند الله اتقاكم » (٢) و « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى
على عربى الا بالتقوى » ، مقياسها فى الاسلام سلمان
افراسى ، وبلال « الحبشى » وصهيب « الرومى » مع أبى بكر ،
وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم أجمعين .

مقياسها فى الغرب حلة فاخرة ونفس فاجرة ، ومقياسها
فى الاسلام نفس مطمئنة هادئة ، ومظهر نظيف متواضع ،
ومقياسها فى الغرب البحار والجبال والأنهار والجداول
الصغار ، ومقياسها فى الاسلام جنات عدن تجرى من تحتها
الأنهار ، ورضوان من الله وما عند الله خير للأبرار .

انه مقياس ومقياس ، فلنقس هذا الانحطاط والتأخر
فى الغرب الذى يسمونه « حضارة » وهذا الجهل عن الحقائق
والأهداف والعمى عن الدار الآخرة والحياة الخالدة ، الذى
يسمونه « ثقافة » بهذا المقياس الخالد العادل الصريح الذى

(١) النور ، الآية ٣٥ .

(٢) الحجرات ، الآية ١٣ .

وضعه الاسلام في أيدي المسلمين اثلا يؤخذوا بالمظاهر الكاذبة والشعارات الزائفة ، واللافتات المزورة ، ويكونوا دائما على ثقة واعتزاز بدين الله ومكانتهم في خلق الله .

« أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلال مبين » (٣) .

(٣) الزمر ، الآية ٢٢ .

الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة

ان شهادة الكاتب الاسلامى الكبير والمجاهد العظيم سيد قطب ابراهيم شهادة ذات عدة جوانب ، ان فيها خسارة بعلم والدعوة ، وخسارة الفكر ، وخسارة الأدب ، وخسارة المعارف ، ولكنها - فوق كل هذا - خسارة ذلك القلم الثائر القوى ، المتدفق كالينبوع ، الهاطل كالشلال ، الساخر بالآلهة الباطلة ، العامر بالايمان ، القلم الذى زمجر كالعاصفة ، وابتهب كالشعلة ، وتحرق كالشمعة ، وأشرق كالسيف ، وأتت كل هذه الجوانب فى وقتها المناسب ، ذلك القلم الذى أمسك به العالم العربى يدافع به عن اسلامه ، ويهجم به على أعدائه ، ويتشرف به بين أقلام أدبائه .

ان قلما هذا شأنه لم يتحطم ولن يتحطم ، كما أن صوت حسن البنا لم يخمد ولن يخمد ، وسيبقى كلاهما على خط انوار ، رغم التهديد والانذار ، يحرسان الفكر الاسلامى والدعوة الاسلامية ، ويحافظان على خصائصهما عن طريق شعلة الايمان التى استضاءت بها صدور المؤمنين المعذبين .

ووالله لو كانت الدعوة الاسلامية لا تحتمل الشدائد والأزمات ولا تصبر على التعذيب والاضطهاد ، لقضى عليها فى

أول يومها وفي مهدها ، يوم عذب بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وخبیب ، ورضی الله عنهم أجمعين ، وقضى عليها حين ألهب الجلاد ظهر أحمد بن حنبل بسوطه حتى أغمى عليه ، أو قضى عليها اثر شهادة حسن البنات ، وعبد القادر عودة ، انه عدد قليل من أولئك الآلاف المؤلفه من المجاهدين ، الصابرين المعذبين ، الذين يتجمل بهم التاريخ ، وتتجلى بهم كل بقعة من بقاع العالم الاسلامى عربا وعجماء ، شرقا وغربا .

ان هذا التعذيب والاعدام وعملية التطهير ، وما يطلقون عليها من أسماء سنة الأنبياء فى كل زمان ومكان ، وان هذه الدماء الزكية القانية روت أرض الكنانة كلما أصابها الجذب ، وحافظت على غرس الاسلام كلما أصابه اعصار ، أو أصابته نار .

انها نفخت فى قافلة الأحرار والأبطال روحا جديدة ، وعزما أكيدا ، كلما غاب عليها النعاس ودب فيها اليأس .

ان هذه الدماء ، دماء الشهداء أكدت أننا ما زلنا على العهد ، وأنها « لا تزال طائفة من أمتى منصورين لا يضرهم من خذل حتى تقوم الساعة » « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون وبقدر فتننا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (١) .

(١) سورة العنكبوت ، ٢ - ٣ .

فاذا استشهد هذا القلم وتحطم في سبيل الله ، فانه
أنشأ فوجاً من حملة الأقلام يدافعون عن دين الله ، ولا يخافون
في سبيل الله لومة لائم .

انه فتح للشباب طريقاً معلوماً واضح المعالم ، مشرق
السمات والقسمات ، يتابعونه ويسيروا على نهجه في
الاصلاح والكفاح ، والصبر والجهاد ، والثبات على المبدأ والثقة
بالله وبنصره المبين في الدنيا والدين .

ان هذا القلم أعلن أن الشهادة مرحلة حاسمة لازمة
أمام مد الاسلام ، وأن المؤمنين يواجهون في سيرهم كل نوع
من الصعوبات والعقبات والاهانات ، والتنكيل ، والتشريد ،
والتعذيب الوحشي الذي تقشعر منه الجلود ، فعلى كل من
يريد أن يقوم للدعوة أن يهب نفسه لله ، « ان الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (١) .

ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة !

ان شهادة سيد قطب تحمل وجهين ، فلو كان لمصر
لسان أو قلم لافتخرت بهما بابنها اibar الشهيد ، واعتبرت
هذه الشهادة مكرمة لها وجزءاً من تاريخها وبطولة رائعة من
بطولاتها - ولا أنكر ما لمصر الحديثة من فضل في هذا المجال
وفي ساحة القتال ، ومن يستطيع أن ينسى ذلك الشباب

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

الظاهر النقى الأبى الذى ذهب ضحية أصدقائه فى الزنانات
والمعتقات أو أراق دمه سخيا قانيا فى أرض البطولات .

فهنينا لك يا مصر العزيزة الحبيبة هذه المأثرة الجديدة ،
وهنينا لك هؤلاء الأبطال الذين رفعوا رأس المسلمين بهذا
المثل الرائع للتضحية والفداء والثبات على جادة الحق ، والجهاد
الدائم المرير للعقيدة والمبدأ .

هنينا لك يا مصر هذا الدم الجديد فى موكب الشهداء ،
وأعتقد أنك تعترين بهذه الشهادة رغم ما تتجرعين من مرارة
الخسارة وتكرمين بهذ التضحية والبطولة ، رغم ألم الندامة ،
فاننا نعرف حرج موقفك ودقة مسئوليتك .

هنينا لك يا مصر أحرارك وأبطالك الذين دامت
محنتهم ، وطال ليلهم ، وانتقلوا من اضطهاد الى اضطهاد ،
ومن شوك الى قتاد ، واعتادوا التعذيب والاهانات ، حتى صار
لديهم شيئا عاديا مألوفا .

هنينا لك هذه الخمسون ألفا فى الزنانات لم يتزعزع
واحد منهم رغم الاغراء والتهديد ، ورغم الهمجية التى تقشعر
منها الجلود ويتندى لها جبين الحياء ، ولم يطلب أى واحد منهم
عفوا ولم ينقض ميثاقا « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا
تبديلا » (١) .

(١) الأحزاب ، ٢٣ .

فلئن انتقدوك وعابوا عليك هذه القسوة النادرة ،
والمذابح البشرية الهائلة ، أثنوا عليك وحيوا فيك قوة
احتمالك وصلابة عودك ، وثقتك وإيمانك ، ولئن أخذوا عليك
رضاك بالذل وقبولك الضيم وخضوعك للعدوان ،
واستسلامك لكل سلطان ، على اختلاف الأزياء والألوان
أعجبوا بك ورحبوا فيك هذه البطولات الرائعة النادرة ، وهذه
المواقف التاريخية تحت قنابل الرصاصات ، وأنواع غريبة
من التعذيب الجسدي والروحي ، الذي يخرج به الإنسان من
طوره ويفقد رشده وصوابه .

انك يا مصر تجتازين الآن مرحلة ذكرها القرآن في
قصة موسى عليه السلام ، فقال : « فلما تراءى الجمعان ، قال
أصحاب موسى انا لمدركون ، قال : كلا ان معي ربي
سيهدين » (٢) ، فلا تخافي من كثرة الجنود ومتابعة رجال
المخابرات ، وقسوة رجال الاضطهاد ، ومهازل محكمة الأمن
العليا ، ودعاية الصحافة الرخيصة الفاجرة المحترفة التي
هتكت كل القيم والمبادئ الانسانية ، وتعترت عن سائر
اعتباراتها الخلقية ومسئولياتها الصحفية ، فكل ذلك تفسير
« انا لمدركون » وتصوير دقيق معجز لتلك الحوادث التي
وقعت على أرضك وتحت سمعك وبصرك ، فاستمدى لمواجهة
هذا الوقت العصيب بنور النبوة وفراستها الصادقة ، وثقتها

(٢) الشعراء ، الآية - ٦١ - ٦٢ .

بِالله ، ثقة لا تقاس ولا توزن بالعقل المادى المحدود ، وذلك ما تجلى فى قول موسى عليه السلام ، اذ قال : « كلا ، ان معى ربي سيهدين » .

وبعد ، فما كتبت شيئاً عن سيد قطب وان كان سيد قطب هو الذى أفاض علينا بهذه السطور ، ودفعنا على تسجيل بعض ما تجيش به الصدور من مقت وتذمر ، وحب وتقدير ، ويأس قاتل مرير ، وأمل مشرق منير ، فاذا صرفنا وجوهنا تلقاء جنود فرعون ورأينا طغيانه وعدوانه ، وجولته وصولته ، وذخائره وأسلحته ، قينا : « انا لمدركون » واذا صرفنا وجوهنا الى قدرة الله وآياته فى الأرض والسماء ووعدته لعباده ، المؤمنين الصابرين ، المخلصين المجاهدين ، تمثلنا بقول موسى عليه السلام : « كلا ان معى ربي سيهدين » .

نجم تألق ثم هوى

الدكتور مصطفى السباعي! السلام

ذلك الاسم العذب الجميل الذي كان يحلو لنا أن نسمعه
ونتحدث عنه في مختلف أجزاء وطننا الاسلامي الكبير ، الاسم
الذي كنا نعتز به ، لا في سوريا فحسب ، بل في العالم
العربي والاسلامي كله ، الاسم الذي كان يهابه المستشرقون
والمستعمرون على السواء لعلمه الغزير وجرأته الأدبية .

الاسم الذي كان يحتل مكانا رفيعا عاليا حبيبا في
النفوس بعد الامام الشهيد حسن البنا ، هذا الاسم الذي
تألق في سماء العالم الاسلامي برهة سعيدة من الزمن ، ثم
محي من صفحة الوجود ، وسجل في عالم الخلود ، لقد سقط
الجندي الثائر في المعركة ، وهو يقاتل في سبيل الله ويدافع
عن دين الله ، سقط وعلى هامته وسام العز ، وعلى جبينه
ضياء الايمان ، وعلى شفته بسمه الرضا ، وفي عينه بريق
الامل ، أمل الغد المرتقب وايوم المشهود .

الدكتور مصطفى السباعي كان - بلا نزاع - من
أساتذة الحركة الاسلامية العالمية ، ومن صفوف الدعاة
والمرشدين والعلماء من الطراز الأول ، وهو الذي جمع بين

الايان العميق بالمبدأ ، والفهم العميق بروحه ، والعلم العميق بدقائقه وأسراره ، والقلم السلسال اللبق ، واللسان العذب الذلق للتعبير عنه على صفحات المجلة ومنبر المسجد وممنصة الجامعة ومسرح السياسة على السواء ، من غير تهريج أو دعاية ، ومن غير أشفاق أو وجل ، وهى ميزات ومواهب قلما تجتمع فى رجل واحد ، الا ما شاء ربك .

الدكتور مصطفى السباعى اسم معروف فى الأوساط العلمية والدينية فى الهند وباكستان ، واسم محبوب فى الحركات الاسلامية هناك ، وذلك للمقالات القوية الممتعة التى كانت تنشر له فى الصحف الاسلامية مترجمة ، أو لمؤلفاته التى نقلت بعضها الى اللغة الأردية ، وكان لمقالاته « عن السنة ومكانتها فى التشريع » تأثير قوى ودور فعال فى دحض الموجات الفكرية الهدامة التى كانت تهدد باكستان وتتحدى العنصر الاسلامى فى هذه البلاد ، وذلك عدا مقالاته الأخرى فى مختلف الموضوعات الاسلامية التى كانت تنشرها الصحف الاسلامية السياراة فى البلدين .

أما دوره ككاتب ، ومؤلف ، وباحث ، وخطيب ، فحدث عن البحر ولا حرج .

فالبيت يعرفه والحل والحرم .

ان أيما رجل تتنوع قواه ومواهبه فى مختلف المجالات الفكرية والعلمية ، أو يشتغل بتنظيم جماعة وإدارة مؤسسة ،

أو يشتغل بالدعوة والخطابة ، لا يستطيع أن يركز همه في التأليف والبحث والدراسة ، أو يأتي فيه بشيء جديد رائع ، ويقوم في هذا المجال بدور يذكر ، وخدمة تشكر ، أو يسد فراغا ، ويملاً مكانا شاغرا ، ولكن الدكتور مصطفى السباعي كذب هذا الحيال ، ومؤلفاته كلها تشهد بذلك وتدل على دراسة واسعة ، وتفكير طويل ، واستنباط رائع ، واجتهاد سليم ، ورزانة علمية ، لا تخلو منها حتى مقالاته .

وشرح « قانون الأحوال الشخصية » و « اشتراكية الاسلام » و « المرأة بين الفقه والقانون » و « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » برهان ساطع على روحه العلمية ، ونظرته العميقة ، ودراسته الواسعة ، رغم حياته المليئة بالصخب والضجيج ، والسرعة المذهلة ، والأشغال المتلاحقة ، والمواعيد المتلاصقة ، وزيارات واجتماعات ، وأحاديث ورحلات ، في داخل البلاد وخارجها ، وإشراف على تنظيم الاخوان وسيره على الوضع المقبول .

أما كتاب « اشتراكية الاسلام » فهو من روائع الكتب الاسلامية التي ألفت في الموضوع في العصر الحديث ، ونال عليه مؤلف اجائزة التشجيعية ، وقالت فيه اللجنة المؤلفة من كبار فقهاء الشريعة في القاهرة ودمشق « انه يتميز بتاصيل التفكير الاشتراكي من الناحية الفقهية واختيار النصوص الصريحة من الكتاب والسنة وآراء الفقهاء وتفسيرها تفسيراً علمياً من غير تكلف ولا تعسف في التأويل .

كما أن شرح قانون الأحوال الشخصية يعتبر موسوعة علمية في موضوعه ، ومرجعا ومادة للتدريس والبحث والكتابة ، عدا مؤلفاته الأخرى المتمعة الشيقة ، وكل من ينظر في كتبه يظن أن مؤلفها باحث بحت لا شأن له بأى شيء آخر ، وقد وضع فيها عصارة أفكاره ، وركز فيها كل مواهبه وجهوده ، وأذكر أننى قرأت كتابه « اشتراكية الاسلام » و« من روائع حضارتنا » فوجدت فى هذين الكتابين لذة البحث العلمى ، والحصافة الفكرية واشراق الروح المؤمنه ، فتركت فى نفسى أثرا ناعما جميلا ألمسه كلما أذكر السباعى وأذكر جهوده فى سبيل العلم والدين .

أما حذقه الكتابة الصحفية وتناوله الموضوعات الاجتماعية والسياسية فاسأل عن ذلك مجلة « حضارة الاسلام » الغراء ، فهى من أروع المجلات الاسلامية فى هذا الزمن الذى تضاءلت فيه المجلات الاسلامية ، واستمع الى أحاديثه فى الاذاعة ، أو اقرأه فى كتاب « من أخلاقنا الاجتماعية » فبذلك تطلع على أسلوبه الصحفى والاذاعى ، وكلها تنم عن لباقة الحديث ، وعمق الموضوع وموضوعية البحث .

وانظر كذلك الى بحوثه فى « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » وقد نال الكتاب اعجاب الباحثين فى الهند وفى باكستان ، وترجم الى اللغة الأردية ، والتقى الدكتور مصطفى السباعى بأعلام المستشرقين ، واختلط معهم

فى زيارته لأوربا عام ١٩٥٦ م ، وكانت له معهم جولات
ومواقف ومناقشات برز فيه كعلاق بين الأقسام ، أو مدرس
بين الطلبة الصغار ، وهو ليس تهويلا منى أو مبالغة ، فقد
ظل المستشرقون يخافون منه ، لأنه فضحهم فى الطريق ،
وأمام الناس عدة مرات ، تعمد السباعى فى هذه الرحلة
مطاردة هؤلاء فقابل أكثرهم ، أمثال « اندرسون » و « آربرى »
والمستشرق اليهودى المعروف « شاخت » ب « ليدن » (هولندا)
وكثيرا غيرهم ، وزار الجامعات العلمية الكبرى ، وقابل رؤساء
الأقسام العربية والاسلامية ، وكان له ب « شاخت » المذكور
آنفا قصة طريفة حكاها فى مجلة « حضارة الاسلام » قال :

« فى جامعة « ليدن » ب « هولندا » اجتمعت بالمستشرق
الالمانى اليهودى « شاخت » - وهو الذى يحمل فى عصرنا
هذا رسالة « جولد تسيهر » فى الدس على الاسلام ، والكيد
له ، وتشويه حقائقه - وباحثته طويلا فى أخطاء « جولد
تسيهر » وتعنده تحريف النصوص التى ينقلها عن كتبنا ،
فأنكر ذلك أول الأمر ، فضربت له مثلا واحدا مما كتبه
« جولد تسيهر » فى تاريخ السنة ، فاستغرب ذلك ، ثم
راجع كتاب « جولد تسيهر » وكنا نجلس فى مكتبته الخاصة ،
فقال : معك الحق ، ان « جولد تسيهر » أخطأ هنا . قلت له :
هل هو مجرد خطأ ؟ فاحتد وقال : لماذا تسيئون به الظن ؟
فانتقلت الى بحث تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن
مروان ، وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفى ما زعمه
« جولد تسيهر » وبعد مناقشته فى هذا الموضوع قال : وهذا

خطأ أيضا من « جولد تسيهر » ألا يخطيء العلماء ؟ قلت له :
ان « جولد تسيهر » هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي
تبني حكمها في التشريع الاسلامي على وقائع التاريخ نفسه ،
فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهري ؟ وكيف
جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديث فضل المسجد
الأقصى ارضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير ، مع أن الزهري لم
يلق عبد الملك الا بعد سبع سنوات من مقتل أبي الزبير ؟
وهنا اصفر وجه « شاخت » وأخذ يفرك يدا ييدا ، وبدا عليه
الغضب والاضطراب ، فأنهيت الحديث معه بأن قلت له : لقد
كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تشتهر في القرن
الماضي ، ويتناقلها مستشرق منكم عن الآخر على أنها حقائق
علمية ، قبل أن نقرأ - نحن المسلمين - تلك المؤلفات الا بعد
موت مؤلفيها ، أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظتنا على
« أخطائكم » لتصحيحوها في حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق
علمية .

وبالجملة فكل ما كتب عن المستشرقين ومكائدهم شيء
هام خطير ، وجدير بالبحث والدراسة والمتابعة والاطلاع ، أما
عن خطابته فقد كان خطيبا بالطبع وبالسليقة ومن أفذاذ
الخطباء في العالم العربي ، وقد سمي « خطيبا هائلا » في
سوريا عن جدارة وحق ، فهو يملك عنان الجمهور ، ويستولي
على مشاعر الناس وأحاسيسهم بصوته الرخيم القوي وحديثه
الحماسي المتزن في وقت واحد ، ويبرز على أقرانه في المجالس
والنوادي والحفلات .

ودور السباعى فى انشاء كلية الشريعة عام ١٩٥٤ م
بجهوده فى هذا المضمار تضيف الى مآثره وحسناته وقد
كرس عليها جهوده أخيرا ، وبقي عميد هذه الكلية الأولى من
نوعها فى الشرق الأوسط مدة أربع سننات ، وكانت مدة
حافلة بالأعمال والخدمات ، وبقي رئيس قسم الفقه الاسلامى
فيها الى آخر عهده .

وتم ناحية أخرى تسمى بمكان مصطفى السباعى على
كثير من العلماء والخطباء والدعاة ، وتدخله فى صف المجاهدين
الأبطال ، وهو جهاده الرائع فى معركة فلسطين مع الاخوان
المسلمين ، وقد سبق فى هذا الأمر على كثير من اخوانه
وأقرانه ، وكانت بداية ذلك فى أواسط الحرب العالمية الثانية
عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ م ، اذ عاهد مع نمر الخطيب أن يعلن
صوت النذير والايقظ ويبدأ بالجهاد ، وألقى أول محاضرة
عن فلسطين فى مقر الاخوان ، وقام بجولة للمدن السورية
كلها يشرح للجماهير خطورة الوضع ، وخاض فى المعركة
أخيرا فدافع عن المسجد الأقصى ، وكان له سهم كبير فى
سائر المعارك التى خاضتها كتائب الاخوان ، ويذكر منها
معركة الحى اليهودى ، ومعركة القدس الكبرى ، وقد أظهر
فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف ، فقد
كانوا يتقدمون لنسف الحى اليهودى بيتا بيتا بأيديهم
الرشاشات ، والقنابل كان يقذفها اليهود عليهم من نوافذ
البيوت .

وقد أثبت السباعي بذلك أنه يملك السيف والقلم ،
وله في كل منهما جولة وصوله ، ومواقف وبطولات ، ودرس
عبرة لمن يأتي بعده من الدعاة والعاملين .

ان الدكتور مصطفى السباعي قدم لنا مثلاً رائعاً للكاتب
الاسلامي والداعية الاسلامي والمجاهد الاسلامي ، وعرض علينا
- عمليا - كيف أحاط بالجهات المختلفة ، وكيف حافظ على
الاتزان بينهما ، وكيف استقام على الطريقة ، وصمد في وجه
الاعاصير والزلازل الفكرية والسياسية ، التي اشتدت في
عهده ، والتي لا تزال في أوجها وقوتها ، والتي سوف تحتاج
في المستقبل الى كثير من أمثال مصطفى السباعي في مختلف
الظروف والمناسبات .

وبعد فهذه سطور عاجلة لا تصور واقعه الغني ولا تمثل
حياته العامرة الحصبة ، وانما هي كلمة أملاها الحب ،
والاخلاص ، والوفاء للراحل الكريم ، والفقيد العظيم .

رحم الله مصطفى السباعي وجزاه عن المسلمين في
مشارك الأرض ومغاربها ، أحسن ما يجزى عباده المخلصين
والصادقين .

وانا لله وانا اليه راجعون .

الشعوب تعيش بالرسالة لا بالمال

ان الشعوب - دائما - فى حاجة الى دعوة ورسالة تتبناها وتتحمس لها وتتفانى فى سبيلها ، وهى فى ابان نهضتها وفى صعودها أحوج الى مثل هذه الدعوة ، التى تعمل - بخفاء - وراء كل هذه المواهب والطاقات والمؤهلات ، والعجائب والمعجزات التى تصنعها أمة ويقوم بها شعب ، انما تملى ارادتها على المال وعلى رجال الأموال ، وعلى الجبال الراسيات •

ان أى شعب من شعوب العالم لا يخلو من رسالة أو هدف ، وقد يكون هذا الهدف هدف الاستعلاء على الأرض ، وقد يكون هدف القومية ، وهدف الاشتراكية والشيوعية ، والاستعمار والاحتلال ، والعبث بالشعوب الفقيرة المستضعفة، ولكنه على كل حال هدف واضح محدد ، مشرق السمات والمعالم ، لا غموض فيه ولا التواء ، هدف يثير قوى هذه الشعوب ويستغل طاقاتها ، ويستنفد مواهبها ، وكل ذلك دليل على أن هذه الشعوب لا تستطيع أن تعيش - طويلا - من غير رسالة ، ولا تستطيع أن تصمد أمام العواصف والتيارات ، وتواجه الأحداث والتقلبات الا بالدعوات والرسالات •

هذا هو شأن الأمم والشعوب التي ليس لها نصيب في الدنيا والآخرة ، والتي أذلت نفسها ، وأضاعت جوهرها ، وفقدت قلايتها ووسام عزها وشرفها بين متاع الدنيا العاجل ، وحطامها ايفاني ، أما الأمة الإسلامية التي ابتعثها الله لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، فهي أولى بأن تحمل رسالة وتتقلد دعوة وترفع راية .

ان الدور الذي تمر به الشعوب الإسلامية والشعوب العربية الإسلامية بوجه خاص يحتم علينا أن نفهم قيمة الرسالة وأهميتها في حياة الشعوب ، لا سيما في حياة هذه الأمة ، وذلك لأن عدم معرفتها أو الخط من شأنها تجعل هذه الشعوب فريسة المال ، والى ذلك أشار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال : **لَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ الْفَقْرَ ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بَسَطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ ، أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .**

ان المال مهما تضخم وتكدس ، ومهما شاع وانتشر لا يغنى عن ذلك الفراغ المعنوي الروحي الفكري ، الذي يقع بفقدان الدعوة ، انه لا يغنى عن القلب وآفاقه ، والفكر وفسحاته ، والضمير وتأملاته ، والحب وبطولاته ، انه لا يغنى عما وراء المشاهد المحسوس ، والواقع الملموس ، انه لا يستطيع أن ينظر ما وراء المعدة والشهوة ، أو القوة والسيطرة .

انه لا يستطيع أبدا ، أن يحل محل الفكر الدقيق
الحصيف ويعوض عن الرأي السديد ، والجرأة والشجاعة ،
والبطولة والاقدام ، انه يبني صرحه الشامخ الجميل على الرمل
يخاف عليه في كل لحظة ، وتهدمه كل هزة .

المال لا يجبر كل كسر ، ولا يسد كل عوز ، ولا يملأ
كل فراغ ، انه يجول ويصول في مجال ضيق محدود ، هو
مجال أسباب الرخاء والراحة والهناء ، والغذاء والكساء ،
والعلاج والدواء ، أما مجال القيادة الفكرية والسياسية ، أما
مكان العزة تحت الشمس ، أما مكان التوجيه والارشاد ،
ومكان التكوين والاصلاح والبناء ، فهو غير مجال المال ،
فهناك لا تنفع الا العاطفة والقلب ، والدعوة والرسالة ،
والهدف والغاية ، والفكر والتأمل ، والتصميم والعمل .

المال أساسه الدعوة ، وقوته الرسالة ، وهو يستطيع
أن يفعل الكثير ويأتي بالمدهش العجيب ، اذا عجن بالدعوة ،
ومزج بالرسالة ، وزكى بالأهداف الصالحة ، والدوافع الحيرة
« ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » (١) .

هذا هو المال المزكى ، المال المطهر ، المال المقبول عند
الله ، ان هذا النوع من المال - وحده - يقدر على انشاء جيل
جديد قوى متماسك ، يملك جميع أسباب القوة ، ويستطيع

(١) سورة المطففين ٢٧ - ٢٨ .

أن يصمد بفضل هذه الدعوة والرسالة أمام الحوادث ، ان هذا المال لا يدهو به اللاهون ، ولا يعبت به العابثون ، لأنه أمانة الله فى أعناقهم ، ان كل ما بينه هذا المال يدوم أساسه ، ويطول عمره ، ويصلب عوده ، تحلو ثماره ، لأنه قام على أساس متين من الايمان والعقيدة ، وعاش تحت ظلال الايمان والقرآن « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٢) « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٣) .

هذه الدعوة والرسالة هى حلم الأمة العربية المنشود ، وهى الماء الزلال الذى اشتدت اليه حاجتها وبه يشفى غليلها .

ان شعوبنا العربية وأخص منها المملكة السعودية وامارات الخليج العربى لا تفتقد شيئاً ، ولا تحتاج الى شىء بمثل ما تحتاج الى دعوة مؤمنة صافية ، حية نامية ، تبطل ما صنعوا ، وما زيفوا ، وما أتوا به من شعارات كاذبة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الدعوة التى تتحكم فى المال وتتصرف فى الأسباب ، والدعوة التى تتحكم فى العقول والنفوس ، وتغزو القلوب وتسرى فى الشبَاب والنشء الجديد ، كما يسرى الكهرباء فى الأسلاك ، أو الصهباء فى العروق ، الدعوة الاسلامية الكريمة ، الخالدة المنقذة التى

• (٢) النور ٣٣

• (٣) الحديد - ٧

تفدى بالمهج والأرواح والدموع والدماء ، الدعوة التي يطير
بها الانسان شوقا ، ويهتز بها طربا ويتفانى في سبيلها
ايما نا وحنانا وحبا وهياما ، الدعوة التي يعيش فيها الانسان،
في غدوه ورواحه ، وليله ونهاره ، فلا يتحرر عنها في لحظة
من لحظاته ، أو يقدم لها - على أقل تقدير - شيئا من التضحية
والفداء كما ضحى الناس براحتهم وهنائهم من أجل أهداف
مادية حقيرة تافهة لا خلاق لها في الدنيا والآخرة .

هذه الدعوة هي طريق الخلاص الوحيد من عذاب
العبودية والذل والهوان ، والفرقة والانقسام ، الذي تعانيه
هذه الشعوب العظيمة المؤمنة منذ زمن طويل .

فهل من مجيب ؟

أرادوها جنة فانقلبت جحيما

انها قصة أمريكا ، أمريكا التعسة البائسة المنكوبة ، التي يعتبرها البسطاء وأهل الهوى فى شرقنا الاسلامى جنة فى أرض الله .

والأرض تأبى أن تقبل هذه الشجرة الخبيثة ، وترضى بهذه النذالة والاسفاف ، والهبوط والتمرغ فى وحل الشهوات وحمأة الرذيلة على ظهرها لولا حكمة الله ومشيبته البالغة « ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا » (١) .

انها أمريكا السامة والقلق ، أمريكا الجشع والطمع والأناية والأثرة ، أمريكا الجنون والانتحار ، والخمر والقمار . أمريكا التي لا مكان فيها لصلة القرابة والرحم ، وشائج اللحم والدم ، ولا اعتبار فيها لتلك النزعة الانسانية ، والحب الطاهر المستور فى الصدور الذى يخفف آلام الحياة ويهون متاعها وهمومها ومشكلاتها ، ويمسح ثقلها وكآبتها .

أمريكا ، التي لا كرامة فيها للعجائز والأمهات ،

(١) الطلاق ، الآية - ٣ .

والآباء والأجداد ، والفقراء والضعفاء ، لأنهم تجردوا عن
« القوة والمال » الذين لا اله لها غيرهما .

ان القوة وحدها هي القوة الجسمية ، وقوة الشهوة ،
وقوة القتل والنهب ، وقوة الابادة والتدمير ، هي الاله الأكبر
الوحيد ، الذي يخضع له رأس كل أمريكي - ولو ادعى
بالمسيحية - تقديسا واجلالا ، فاذا تجرد انسان - لسبب
طبيعي أو عضوي - عن هذه القوة لم يبق انسانا في نظر
الامريكي ، وأصبح وزرا وعبثا ثقيلًا على عائلته ، ومجتمعه ،
وشعبه ، يحاول أن يتخلص منه في أقرب فرصة ، الدولة
تهمله ، والشعب ينبذه ، والعائلة تقسوا عليه ، حتى أن
أولاده وأفلاذ كبده يتبرمون منه ، ويشورون عليه ، ويتمنون
موته بل يقتلونه بعض الأحيان .

لماذا ؟

لأنه أصبح هرما ، أو أصبح فقيرا ، أو صار مريضا ،
لا يقدر على الكسب والانتاج .

حتى أن هؤلاء الذين يضحون بالأنفس والأرواح في
سبيل الوطن ويفقدون أعضاءهم أو يصيبهم أذى جسدي
لا يحتملهم الأزواج والأبناء ، ولا تقبلهم العائلات الأمريكية ،
لأنهم ينغصون عليها صفو العيش ، ويشاركونها في الحياة
من غير سهمهم في الكسب والانتاج .

الحياة في أمريكا - يا أهل الشرق - ليست كما

نتصورها فى بلادنا الفقيرة الضعيفة ، انها لا تمت الى السعادة بصلة ، ولم تذق طعمها يوما من الايام ، لقد ارادوها جنة فانقلبت جحيفا ، وعذابا أليما ، اروادها حرية كاملة وانطلاقة واسعة ، فراحت عبودية خانعة ورقا مطلقا دائما .

ان قصة أمريكا ، قصة ذات فنون وشجون ، وسوف لا أطيل عليكم بذكر مشاكلها حول تلك الحياة الحرة المنطلقة عن كل قيد ، أو تلك الجمادات الحية التى يسمونها الآدميين ، وتلك المستشفيات الغاصة بالمجانين ، أو نوادى العراة المتفنين ، ولا أحدثكم عن متاعبها فى « فيتنام » أو عن سباقها الرهيب فى مجال الأقمار والصواريخ ، ولا أذكر عبثها بالمرأة وتجريدها عن كل معنى انسانى نبيل ، ولكن أحدثكم عن مكانة العجائز والشيوخ فى المجتمع الأمريكى ، فى ذلك كفاية .

ان من عذاب الله لأهل أمريكا ، ومن نعمته وسخطه عليهم ، أنه نزع ما فى صدورهم من حب الآباء للأبناء ، أو حب الأبناء للآباء ، وحب البنات للأمهات وبالعكس ، ونظرة عابرة طائرة على هذه البلاد تهزنا لهول المنظر وبشاعة الوضع ، والوقاحة البشرية ، التى أصبحت فى أمريكا عادة شائعة متبعة ، وتقليدا يتوارثه الأجيال ، ولا نملك فى هذا المكان الا أن نقف خاضعين خاشعين أمام الجلال الالهى ، وقدرته البالغة وعلمه المحيط :

« ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر
لعلهم يرجعون » (١) •

العجائز والشيوخ فى المجتمع الأمريكى هم أخط قدرا
وأصغر شأننا من أى مخلوق آخر حتى القطط والكلاب ، فلا
تستطيع عائلة أمريكية أن تتحمل هذا العذاب الأليم
وتشاركهم فى حياتهم العادية والروتين اليومى فضلا عن
إكرامهم وإسداء الخير إليهم •

ان ما ينفقه الأمريكيون على دواجنهم وعلى كلابهم
(بوجه خاص) قد يكفى - بعضه - للعناية بعجائزهم
وشيوخهم والبر بهم ، ولكن المشكلة ليست مشكلة المال
انما هى مشكلة الدافع ، مشكلة القلب ، القلب المادى
النفعى ، المتحجر ، القاسى ، القلب الصناعى ، الذى سدت
عليه منافذ العاطفة النبيلة ، والدوافع الصالحة ، والأهداف
الكريمة ، والمثل العليا ، القلب الذى نشأ فى « مجتمع
الخنزير والكلب » فشبت على حبهما ، وقامت بينهما ألفة
ومودة ورحمة ، وتخطت حدود القياس والعقل السليم ، انهم
يوصون لكلابهم بمبالغ باهظة ، بينما لا يرضون لهؤلاء
العجائز والشيوخ عيشا هادئا فى منازلهم ، ولا ذنب لهم الا
أنهم عجزوا عن العمل والانتاج ، وفقدوا الصحة والشباب ،
وأصبحوا عالة على أبنائهم « الأشراف » •

(١) السجدة ، الآية ٢١ •

ان هذا الجانب أظلم الجوانب وأبشعها في هذا المجتمع
السافل الساقط الذي يسمونه عندنا في الشرق المغلوب على
أمره « مجتمع الحرية والتقدم والانطلاق والعالم الحر »
ويتمنون رؤيته والتمتع بمباهجه ولو مرة في العمر .

واليك ما حدثت به جريدة لائف (Life) الذائعة
الصيت ، وكفى شهادة واعترافا بالأمر الواقع :

انها كتبت تحت عنوان « مشكلة الشيخوخة عند
العجائز » أن أمريكا تعاني اليوم مشكلة دقيقة استعصت
عليها معالجتها ، انها مشكلة الشيوخ والعجائز ، فقد زاد
عددهم في هذه العقود الأخيرة ، الى ١٢ مليون نسمة ، انهم
نيفوا على ٦٥ عاما ويملكون حق التصويت ، واقترح البعض
أن تقدم اليهم الدولة المعونة الطبية مجانا ، ولكن اتحاد
الأطباء عارض هذا الاقتراح أشد المعارضة ، انها مشكلة
تعانى منها انجلترا والنرويج ، والسويد ، والدنمارك ،
وألمانيا ، واليابان أيضا ، انها دعت هذه المشكلة بـ
old age problem وتريد حلها بانشاء دور
الرعايا nursing homes وتدابير أخرى .

ونشرت الجريدة بعض صور تدل على الوضع القاسي
الشديد الذي يعيش فيه هؤلاء البؤساء « الأموات الأحياء »
فيها صورة لاحدى المستشفيات العقلية mental institutions
جلست فيها عدد من المريضات الناعسات
وقد وضعن رؤوسهن على ركبهن ، ونثرن شعورهن على

كواهلهم ، تدمرا وأسى ، وبمقربة منهن نساء يزاولن حركة
رياضية بذراعهن فى حركة يومية معهودة .

وصورة لعجوز فى المستشفى ارتمت على فراش تحمق
فى الجو فى صمت مطبق وليس عندها أحد .

وهناك صورة أخرى لعجوز نيفت على السبعين ، انها
فقدت اتزانها من شدة الوحدة ووحشتها والعزلة التى لم
تطقتها ، جلس بجوارها عالم من علماء النفس يدلى اليها
ببعض الأسئلة فى هذ الشأن ، وفى صورة أخرى نراها
جالسة فى حجرة للبحث عن وظيفة فى دار من دور الإقامة
وقد وضعت يمينها على يسارها ، وعلى وجهها سحابة من
حسرة وأسى .

وصورة لدور العجائز Oldoge Homes اجتمع
عدد كبير من الشيوخ المعمرين ، يشتغلون بأمر مختلف ،
أو بالأصح ينتظرون منيتهم ، وهم يتقطعون حسرة وأسى
وغما وألما .

انها صورة حية لهذه المستنقعات البشرية ، والأحوال
الانسانية التى لا تحيا فيها الا الشهوات الرخيصة ، واللذة
الجسدية الفانية ، والنزعات الجنسية الهابطة الساقطة .

هل انها حضارة ؟ هل انها معرفة ؟ هل انها طبيعة
قاهرة لا دخل لنا فيها ؟ كلا ! بل انها عذاب فى الدنيا قبل
العذاب فى الآخرة .

انها تفسير « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (١) .

انها سامة وخواء ، وكبت وتذمر ومقت ، سميها
فى الشرق : الحرية ، والعالم الحر ، والمجتمع الحر ، والطبيعة
والفن .

انه يأس مرير ، وفراغ هائل ، وتخبط وفوضى ،
وانهيار وحيرة وضلال ، سميها فى الشرق «وجودية وثورة
وانطلاقا الى قائمة طويلة من الأسماء والشعارات ألفت بها
أمريكا وفرنسا ، وتلف عليها أدباؤنا الشباب وتساقطوا
عليها كأنها « وحى من الله » أو « مائدة من السماء » .

ان الله لا يعذب عباده الذين بغوا فى الأرض بسيول
عارمة وعواصف قاصمة فحسب بل انه يعذبهم أحيانا فى
راحتهم وهنائهم . ويشقيهم فى أموالهم ، وبين أزواجهم
وأبنائهم « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان
كىدى متين » (٢) .

وانظر الى هذا الجانب المشرق الذى يقوم عليه المجتمع
الاسلامى المثالى « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين

(١) الحشرة ، الآية ١٩ .

(٢) سورة القلم ، الآية ٤٤ - ٤٥ .

احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل
لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما
جناح الذل من الرحمة ، وقل لهما قولا كريما ، وقل رب
ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم ،
ان تكونوا صالحين ، فانه كان للأوابين غفورا «(٢)» .

صدق الله العظيم

(٢) سورة بنى اسرائيل ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ .

الاسلام اوسع من الاصطلاحات

الاصطلاحات - فى كل مجتمع وفى كل بلد - لها جو خاص وطابع ممتاز ، وهى وليدة تجارب يمر بها شعب أو مجتمع ، وعصارة أفكار وعقول ، ونزعات وميول ، وتقاليد وعادات ومرافق ، فاذا أخذناها برمتها ، واستوردناها مع أجوائها وظلالها وتاريخها ، وسائر مقوماتها الداخلية وعواملها النفسية .

ان معظم هذه المصطلحات تدور حول الأدب والفلسفة والاقتصاد والسياسة ، وتعبر - دائما - عن وضع خاص ، وتشير الى منهج خاص فى هذه العلوم والآداب ، ومن هذه المصطلحات المشهورة التى استوردناها ، الديمقراطية والرأسمالية ، والشيعوية ، والاشتراكية ، والشيوقراطية ، الخ ..

فما كان الداعى الى قبول هذه الاصطلاحات ؟

اننا رأينا فى هذه المصطلحات بعض ما يلائمنا ، أو يعجبنا ، أو يتفق - فى خط من الخطوط - مع أهدافنا ، فأحببنا أن نستعين بها فى تعريف الاسلام وعرضه على الجيل المثقف الجديد ، الذى افتتن بهذه المصطلحات وآمن بها كإيمانه بالله ورسوله .

وكان المجال الأول والمجال القريب هو الحكم الاسلامى،
الذى صار موضوع النقاش والجدال منذ أعوام طوال ، وقد
ظهرت هذه المحاولات فى العالم الاسلامى - خاصة فى مصر
وباكستان - فى صورة مؤلفات ودراسات تنظر الى الحكم
الاسلامى بهذا المنظار الغربى الجديد - منظار المصطلحات
المحدود - فاذا رأو فيه حرية شخصية قالوا : انه ديمقراطى
ورأسمالى ، واذا رأو فيه مساواة قالوا : انه اشتراكى ،
واذا رأو فيه خليفة يأمر وينهى ، قالوا : انه ديكتاتورى ،
واذا رأو فيه أحكاما الهية لا دخل فيها لبشر ، قالوا : انه
ثيوقراطى ، واذا رأو فيه بيعة عامة وخليفة كأبى بكر رضى
الله عنه - يقول فى أول خطبته حين بايعه الناس « أطيعونى
ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » قالوا :
انه شعبى ، الحكم الأخير فيه للشعب !

فما هى طبيعة الحكم الاسلامى ومنهاجه الاصيل ،
المبتكر المجرد عن الملابس والمصطلحات والشكليات ،
أليس للاسلام فكرة مستقلة خاصة، ونظام متكامل، متكافل،
متناسق ، غنى عن الأخذ والاقْتباس والاستيراد ؟ أليس له
دعوة ومنهاج وحكم ؟ ثم أليس له مصطلحات وأسماء وشعائر
أو شارات نعرفه بها ، ثم ندعو الناس اليها ؟

لا بل ان له منهاجا مستقلا كاملا !

فلنلق نظرة سريعة عابرة على ما يستقل به الحكم
الاسلامى • أو ما يتميز به دون غيره من المناهج السياسية

والاقتصادية المعروفة ، ولنر كيف يسمو عليها بنظامه
الربانى العميق الدقيق ، وما هو الفارق بين المصطلحات
الجاهلية والمصطلحات الاسلامية، وهل تسعه هذه المصطلحات
أم لا ؟

الاسلام دين كامل أتم الله به نعمته على البشر ، فقال :
« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت
لكم الاسلام ديناً » (١) فهو اذا نظام ربانى أنزله الله على
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأتمه فى ثلاث وعشرين
سنة ، ولم يدعه عرضة للأوضاع المتغيرة ، والملابسات
الخارجية ، والمشكلات المتجددة والعصر المتطور ، شأن
المذاهب السياسية الأخرى التى لا تزال فى دور التجربة
والتكوين والبناء ، فجاء شاملاً لسائر النواحي والوجهات
بل الدقائق والخلجات التى لا تدركها الأبصار ، ولا يترقى
اليها عقل البشرية القاصر المحدود .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٢) .

« أفحكم الجاهلية يبغون » (٣) « وله أسلم من فى
السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » (٤) .

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى
بطون أمهاتهم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن أتقى » (٥) .

(١) المائة ، الآية ٣ .

(٢) الملك ، ١٤ .

(٣) المائة - ٥٠ .

(٤) آل عمران - ٨٣ .

(٥) سورة النجم .

والآيات فى هذا الباب كثيرة معلومة .

هذه هى المبادئ الأولية للحكم الاسلامى وأبعاده ، وسوف نتقدم الآن ببعض التفصيل ، ولنتذكر - ونحن فى بداية السفر - تلك الحقيقة الكبرى أن الاسلام دين سماوى منزل من الله ، وأنه دين كامل لا يؤذيه التطور ، ولا تنال منه الأحداث ، أما المذاهب الأخرى - والمذهب أيضا اصطلاح لا يعبر عن النظام الاسلامى مطلقا - فناقصة محدودة لا تزال فى دور التجربة أو فى دور الطفولة ، وقفت فى سيرها أو بحثها عن الحق على بعض محاسن ووجوه من الحق والجمال ، والبر والمعروف ، فحسبتها نهاية المطاف وآخر الشوط ، وظنت أنها ظفرت بالغاية المنشودة ، وسمتها باسم خاص ، ووضعت لها مصطلحات ، مع أنها كانت جانبا ضئيلا لا يصح الوقوف عنده أو التمسك به ، ولا يصح اعتباره كاملا ، يتوقف عليه مستقبل البشرية اذا قيس بالجوانب الضخمة الأخرى ، التى لا تكتمل بدونها الصورة ، ولا يستقر بغيرها الوضع .

ونقدم الآن بعض جوانب الحكم الاسلامى على سبيل

المثال :

- « وأمرهم شورى بينهم » (١)
- « وشاورهم فى الأمر » (٢)

(١) الشورى الآية - ٣٨ .

(٢) آل عمران الآية - ١٥٩ .

وفي المستدرك « عن أبي هريرة رضى الله عنه :
ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله
عليه وسلم » (١) .

انها ناحية مهمة من نواحي الحكم الاسلامى حسبوها
ديمقراطية يخضع فيها الرئيس لرأى الأكثرية ، ولو كان
هذا الرأى غير صالح أو غير نافع ، وهو تجن على الاسلام
ودليل على سوء فهمه .

ويأتى مبدأ « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر
منكم » (٢) .

وهو جانب خطير أيضا ، فقد نهى الجمهور عن معارضة
الخليفة والأمير والحاكم « ما أقاموا فيكم الصلاة » ونهى عن
الخروج عليهم « ما لم يظهروا كفرا بواحا » وهذا اقرار لقيمة
الحكم الاسلامى وأهميته ، وسموها على الخلافات الصغيرة ،
وفيه تدعيم لأركانه ، وتشبيد لبنيانه ، وهناك تلتقى
الصورة أحيانا ببعض صور الحكم فى التاريخ القديم والحديث ،
ولكنها لا تمتزج فيها أبدا ، وقد تجلى ذلك واضحا صريحا
فى موقف عمر رضى الله عنه ، حين قال :

« اصابة امرأة وأخطأ عمر » .

(١) زاد المعاد ج ٢ - ص ٦٤ .

(٢) النساء آية ٥٩ .

انه وضعت له حدود ومعالم واطار واضح ، وهو
« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وروى الشيخان « على
المرأ المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ، الا أن يؤمر
بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ، انه ليس الحكم المطلق ولا
الطاعة الدائمة ، بل شيء بين هذا وذاك ، هو أقرب الى
الفطرة وأقرب الى روح الاسلام ، وأما أمر البيعة فهو أشبه
بنظام الانتخاب والتصويت في العصر الحديث ولكنه يفترق
عنه كما افترق أولا في سائر المبادئ والوجهات في عهد
الأصوات ، بل انه بيعة عامة مستقل بها الخليفة وأمير
المسلمين ، ثم يدير دفة الأمور بمشورة من أصحابه .

هذا هو الاطار العام الوجيز السريع للحكم الاسلامي
وهو نظام مستقل بطبيعة الحال ، غنى عن الاصطلاحات ،
بعيد عن الشكليات ، بل ان الاصطلاحات تجنى عليه وتحول
بينه وبين فهمه على حقيقته ونمطه في الشؤون الاقتصادية
مثل نمطه في الشؤون السياسية .

وموقفه في السلطة الشخصية ، وفي مسألة الأحزاب
الفردية ، وفي التأميم وعلاقات العمال ورجال الأموال ، وفي
المساواة الطوعية والاجبارية ، ونحو ذلك من المشكلات
الفنية موقف مستقل بذاته ، ذو طابع خاص وسمات واضحة
مشرقة ، وحدود معلومة ، لا تستطيع هذه المصطلحات

السياسية (التي حملها اليينا الغرب) أن تعبر عنه بدقة ،
أو تصوره تصويرا صحيحا .

انها لا تقدم الا صورة مشوهة ، محدودة ، شاحبة
لهذه النواحي الهامة ، ولا تستطيع أن تدرك غايتها أو تمس
مستواها ، وتفهم روحها وأسلوبها ومنهجها المستقل
الأصيل ، المتفرد ، المبتكر .

ان جوانب الحكم الاسلامي أعلى من أن نعبر عنها بهذه
الاصطلاحات المكدودة المحدودة ، فلنرجع الى المآخذ الأولى
والشعائر الأولى ، أو نضع لها اصطلاحات اسلامية خاصة
ليس لها صلة بالغرب ونفسيته نقيه من شوائبه وعلائقه ،
وأكداره .

جان بول سارتر والأدب الوجودى

(١)

الوجودية (Existentialism) من التيارات الفكرية والأدبية المعاصرة التى صادفت هوى فى نفس الأدباء ، وتجاوبت مع أفكار كثير من الشباب المثقف الحر المنطلق فى فرنسا وبالتالى فى سائر أوروبا .

وكان نصيب واحد من زعماء هذه الحركة الأدبية والفلسفية « جان بول سارتر » (Jean Paul Sartre) أكثر من زعيمها الآخر « مارسيل » (Marcel) شهرة وقبولا ، مع أن مارسيل يعتبر من أقطاب الوجودية وهو مؤسس مدرسة فكرية مستقلة فى المذهب الوجودى .

ونرجع قليلا الى الوراء فنلتقى « باندرية جيد » الذى نال اعجاب الجمهور المثقف وتخطت شهرته البلاد والأمصار، وبرز على مسرح الأدب القصصى العالمى كقائد وزعيم .

فماذا كان السبب فى نجاحهما وشيوع أفكارهما فى أوروبا ، بينما فشل الآخرون ؟ وما هو السر فى هذه الشهرة السائرة الذائعة الصيت ؟ وما الذى حمل بعض أقطاب السياسة فى العالم العربى على تكريم واحد منهم، والترحيب به على الصعيد الرسمى ؟

ذلك ما نحاول عنه الاجابة فى السطور الآتية :
أما السر فى نجاحهما وشيوع أفكارهما فهو نقدهما
اللذاع على التقاليد والأخلاق ، والمبادئ « المزعومة » ، فهو
نفس الشئ الذى نجده فى « داروين » و « فرويد » و « أدلر »
وأمثالهم .

وقد يلتقى « سارتر » مع « فرويد » فى كثير من
الخطوط ، وربما استقى منه جزءا كبيرا من نظريته الشاذة عن
الحياة ، والوجود ، والعدم ، كما يلتقى أحيانا مع « أندرية
جيد » الذى سبقه فى دعوته الى الانطلاق العام عن المبادئ
الخلقوية التى يفرضها المجتمع ، فجمع بين سواتهما ، وأضاف
اليها ما أملى عليه فكره ونفسه من نظريات وآراء أكثرها
غامضة مبهما تنم عن ذهن مائع لا يستقر فى مكان ، ولا
يطمئن الى نتيجة وفكرة ، انه يؤمن - ك « فرويد » - أن
Mature sex impulse هو نتيجة تطورات طويلة ،
وأنة أصل عميق فى الكيان البشرى منذ طفولته ، ويسرى
فى العلاقات الانسانية كلها ، ولكنه يضيف اليه أن الدافع
الى الجنس ليس القوة الجنسية وأسبابها فحسب . بل ان
نزعة الوجودية الكامنة فى الانسان تدفعه على ذلك (١) .

أما « أندرية جيد » فقد اعترف الأدباء أن « سارتر »

(١) اقرا : Being and Nothingness (introduction)
By "J. P. SARTRE"

شديد التأثير بهذا الكاتب الفرنسي ، وقد أخذ منه مفهومه عن الخير والشر والأقدار الخلفية . وأكمل منه ما نقص وزاد فيه زيادات ، وهو يؤمن كأندرية جيد أن هذه الأقدار كلها نسبية لا مطلقة ، وأن الانسان هو صانع هذه الأقدار أو خالقها بلا استثناء(٢) كما أنه تأثر الى حد كبير بالفلسفى الوجودى الألمانى «هيدجر» (Heidegger) الذى مزج الباطنية بالاحاد وعرف به ، ولكن يبدو من دراسته أنه تلمذ على « فرويد » - فكريا - أكثر من أى شخص آخر ، وقد شهد بذلك (Hazelebarnes) الذى نقل كتابه الهام - أو المبهم فى عبارة أصح - الى اللغة الانجليزية، وهو شديد الاعجاب به ، كثير الاستيحاء منه .

فالسروالوحيد فى بروزه وشهرته أنه برر للشباب طريق الهوى ، وزينه بالعلم والفلسفة والأدب والرواية ، بالعكس من « مارسيل » مؤسس مدرسة فكرية خاصة فى المذهب الوجودى الذى نتحدث عنه قريبا .

ونستعرض الآن بعض نظراته الأساسية التى قامت عليها الوجودية :

ان الايمان بالله هو العائق الوحيد عند الوجوديين ، لأن الانسان اذا آمن بقدرة تسييره ، وحكمة تدبر أمره ،

(٢) « الأدب الفرنسى » للدكتور « يوسف حسين » ص : ٤٥ - ٥٠ .

وقوة تسيطر عليه ، ورقابة لا تنفك عنه ، فهو لا يستطيع أبدا أن يستقل بوجوده ولا أن يتحمل المسؤولية دون غيره ، أو دون الله ، فوجود الانسان نفسه وحبه للحرية والانطلاق وتحمل المسؤوليات على حسابه وعدم التقيد فى تقاليده وأوضاعه ، ينفى وجود الخالق المدبر ، وقد أشار اليه الأستاذ "Hazelebarnes" فى مقدمته لكتاب سارتر "Being and nothingness" بشيء من التفصيل .

وقد رد « سارتر » على تصور Leibniz للحرية ، الذى يقول : بأن الله أودع فى كل انسان جوهرًا خاصًا Essense ، ثم تركه وأعطاه الحرية الكاملة أن يتصرف فى حياته وفق ما يقتضى منها هذا الجوهر - وهى نظرية تشبه نظرية القدرية التى كانت تؤمن بالتعطل وتجرد الخالق عن قدرته وصفاته ، وكان جوابه عليه أن هذه الحرية ليست حرية فى أى حال من الأحوال ، لأننا اذا فرضنا أن الله خلق فينا جوهرًا خاصًا فمعنى ذلك أنه يكيف الحياة تكييفًا خاصًا وتتسم حياة الانسان اذا - بطابع محدود خاص (١) .

وذلك يشير بصراحة ويؤيد قولنا بأنه يعتبر الايمان بالله عائقًا كبيرًا فى حرية الانسان ، ولا يجب أن يرى فى

(١) Being and nothingness (introduction) by Translator

الانسان أثرا ما للتعاليم الالهية وأوامرها ، لأنها - عنده -
تفسد عليه حريته أو بالأصح - تضيع فرصته - فرصة
التمتع بالأهواء والتمرغ فى الشهوات .

الوجودى لا يؤمن بوجود الله ولا يؤمن بنظام خلقى
يسود على الانسانية ، الانسان عنده حر ومسئول فى ذات
الوقت ، لكنه مسئول أمام نفسه ، لا أمام الله (٢) ، انه لا
يعتمد على عقله ولا يعتمد على الروح ولا يؤمن بالله ولا
بنفسه ، هو يقول : ان الانسان مجموعة أعماله ، وهذه
الأعمال ظل ما يملئ عليه وجوده انه يعارض أى
نظام وتنسيق للحياة البشرية - لأنه يناهى الحرية المطلقة
عند القوم - ويقضى حياته بتوجيه من عمله ووجدانه
فحسب ، أيا كان نوعه ، ومهما جر من ويلات على
البشرية (٢) .

وننتقل الى ناحية أخرى لها أهمية كبرى فى تكييف
حياة الوجوديين ، وهى تلقى الضوء على نظرة « سارتر » الى
الاقدار الخلقية والحير والشر ، وعلاقة الانسان بالانسان .
ونستطيع أن نلخص فكرته فى جملة واحدة ، وهى
أن هبوطنا وسقوطنا وأخطائنا لا وجود لها بنفسها ، بل
ان لها مبررا من وجود الآخرين الذين نعيش فيهم ، فلولا
« هؤلاء » أو لولا « الخارج » ما كان لهذه الأخطاء معنى ،
ويشرح هذه النظرية بقوله : *It is before the others*
that I am Guilty ويقول فى صدد الكلام : « اننى مجرم اذا

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣) الأدب الفرنسى ، ص : ٤١٤ .

رأيت الى الآخرين(١) .

ويقول : اننا نعيش مساكن في هذا العالم ، لأن وجود كل واحد منا هو يتداخل في وجود الآخر بطبيعة الحال من غير أن نحب أو لا نحب، فاحترام بعضنا لبعض واستيحاء بعضنا من بعض ومفاهيمنا الأخرى لا حاجة اليها ، لأنه انتهاك مكشوف Voilation لهذه الحرية التي نحترمها(٢) .

ويضرب لذلك مثلا في التعليم ، فيقول : ان هناك منهاجا للتربية يرغم الأولاد على اعتناق ما ينبغي من قيم وأقدار ، ويسوقهم الى أهدافه الخاصة التي يريدونها ، وهناك منهج آخر أكثر توسعا ومرونة ، فهو لا يستخدم هذه الحشونة أو الضغط ، ولكنه يريد أن يوجه الأولاد الى أغراض معينة ، مع أن ترغيب الأولاد (اذا فرضت عليهم قيم معينة) ليس أقل خطرا من الترحيب، وهكذا الاحترام لحرية الآخرين فهو أيضا كلام فارغ ، لأنه تجريح لحرية التي ننشدها(٣) .

هذه خلاصة لبعض أفكار هذا الوجود ومقوماته الأساسية التي تدل على فلسفته الحائرة التي يسميها L'Étreteant أو Being and nothingness

بالانجليزية ، وقد تدور معظم أبحاثه بين الوجود بنفسه Being for itself والوجود لغيره Being For Others

Being and nothingness P. 409-410

P. 409

(٢) و (٣) نفس المصدر

ولكن الطابع الذى تتسم به أبحاثه من غير استثناء هو طابع اليأس والألم ، والمقت ، والتذمر ، والقلق ، والتشاؤم ، والشعور بأنه لا يستطيع أن يعبر عن وجوده وذاتيته على الوجه الذى يريده ، فالحرية المطلقة مهددة دائما بالآخرين الذين يعيش بينهم حتى يموت ، والشعور بهذا العبء الثقيل ، عبء المسئولية الكبرى التى حملها على عاتقه وحده تكميلا لحرية المفقودة المنشودة ، والشعور بالخواء الروحى العظيم الذى نشأ من أجل الاحاد ، ونبذ القيم الخلقية ، واعتبار المجتمع والدولة والأسرة والعائلة متداخلة فى شئون الفرد ، منفصا حرية ، ولكنه يحاول أن يكسو هذا الشعور القاتل بالعزلة والوحدة والحياة واليأس ثوب الفلسفة والأدب ، فيأتى أدب غامض مبهم ، وفلسفة مليئة بالمتناقضات والأضداد والأسئلة الحائرة التى لا تجد جوابا ، وغموض لا يقبله العقل السليم ، وشذوذ لا تستسيغه الفطرة السليمة ، وتستعصى عليه هذه الأسئلة وتزعجه حتى يضطر الى أن يؤخر الرد والبحث فيها لعمل قادم

Future Work

وقد أعلن بذلك فى آخر كتابه .

انه يدعو الى الحرية المطلقة الدائمة البريئة عن كل قيد ، ثم يقيدتها بوجود الآخرين ، فيتركهم ليعيشوا أشقياء أبدا ، تعساء دائما ، يحلمون بها ، فلا يجدونها ، وينشأ بين وجود ووجود ، أو بين Being for others وبين Being for itself

لون من العداء ، أو نوع من

الجفاء .

جون بول سارتر والأدب الوجودى

(٢)

الاتجاه الفكرى الذى يتزعمه « سارتر » فى المذهب الوجودى هو - فى الواقع - ظل هذه الحروب العالمية التى رزئت بها الانسانية ، ان هذا القلق ، والسآمة ، والفوضى ، والميوعة الفكرية التى طغت وسادت على التفكير الانسانى ونشاطه فى العقود من السنين ، هى المسئولة عن هذا المذهب الاباحى الغامض ، ولا عجب فى ذلك فقد اکتوى الرجل بنار هذه الحرب وعاش بين شظاياها ، حين قبض عليه فى الحرب العالمية الثانية ، ولبث فى السجن عاما كاملا ، ثم تسلسل من هذا السجن ، ولاذ بأذيال الفرار ، وانضم الى حركة معادية لألمانيا وعاد أخيرا بأدب جديد يرخى العنان للانسان ويبرر كل صنيعه أو شنيعة يأتى بها ، ويحاول أن يقضى على همومه ومتاعبه وآلامه عن طريق هذه الحرية التى لا حدود لها ولا قيود ، ولا رقيب لها ولا حارس .

ان « سارتر » يعترف - بنفسه - ان هذا الخواء ، والوحدة والعزلة أصيلة راسخة فى كيان الانسان ولكنه يرجو أن يستولى عليه الانسان ، أو يتناساه - فى تعبير

أصح - بهذا الشذوذ الفكرى والاباحية العقلية ، والتصرف
 الحر ، ويضع عنه « أغلاله » و « أثقاله » من الايمان والأخلاق ،
 والمثل العليا ، ويحطم كل مقياس أو ميزان للخير والشر ،
 والحيث والطيب ، والمنكر والمعروف ، أما اذا تدخل فى
 هذه الحرية وجود انسان آخر ، فذلك قسر طبيعى ، لا نملك
 الا أن نواجهه بضغط نفسى شديد وكبت ، أو نتصر عليه
 باستعمال حريتنا فى نطاق أوسع أو بالامبالاة الى آخر
 الحدود .

وقد تجلى ذلك فى روايات «سبل الحرية Les Chemins
 Laiberte « وموتة الروح Lamort dans l'ame
 . و « عصر العقل L'agederasion

التي صور فيها تلك الأوضاع الاجتماعية والظروف التي
 تحيط بالانسان المتمثل فى شخص « بطل القصة »
 الأوضاع التي تتدخل فى حريته الفردية وانطلاقاته الواسعة
 فيواجهها بعنف أحيانا ، وبلا مبالاة بعض الحين .

وهو فى هذه الناحية - ناحية اليأس والتشاؤم -
 لا يقل فى أى حال من شهبوبنهور (Schopenhauer)
 - زعيم المتشائمين - الذى قال :

Life swings like a pendulum from

Pain to ennui from ennui to pain. أى ان
 الحياة تتدلى كالبن دول من الألم الى السامة ، ومن السامة الى

الأم ، (١) هذه السامة والقلق هي الطابع العام البارز ، لجميع هؤلاء الكتاب والفلاسفة والأدباء ، السامة والشعور بالفراغ ، ثم ملء هذا الفراغ بالتدهور الى درجة الوحوش والسباع ، وممارسة ألوان مضحكة للتسلية والترفيه ، وارواء هذا الظمأ النفسى الشديد بسخافات لا يصدقها العقل السليم ولا تقبلها الكرامة البشرية (٢) .

فالسبب الرئيسى لانتصار هذا المذهب وانتشاره فى الشباب والأدباء والكتاب أنه هيا سندا كبيرا وركنا شديدا للمستهترين والعابثين وفتح لهم الأبواب على مصراعيها لتحقق نزوات الجسد ، وشهوات النفس ، بمرأى من العالم ومسمع ، وذلك تحت ستار « الفلسفة » و « الأدب » والأدب كما قال « اندرية جيد » : لا ينبغي أن يصبوا الى غاية ويفضى الى نتيجة حتى يبقى هذا الحد الفاصل ، أى النتيجة والغاية بينه وبين الدين دائما (١) .

ونعود الآن الى « مارسيل » (Marcel) الذى يعتبر من أقطاب المفكرين فى فرنسا ، ١٨٨٩) وهو زعيم مدرسة

Islam and Modernsim by Maryam Jumeela. P. 13.

(٢) وما هذه الرقصات المجنونة الثائرة أمثال الجاز والروك أندربول أو

رقصة الحمير والبغال ، وهى آخر الموضات ، أو ظهور عصابات للمغنيين والمغنيات أمثال **Elwis presley' bingcras by, Franksintara**

أو Beatles

الا محاولات يائسة للتخلص من هذا القلق النفسى والحرمان واليأس الذى يثن الغرب كله تحت وطائه الشديدة .

(١) الأدب الفرنسى ، ص : ٥٥١ .

خاصة فى المذهب الوجودى ونرجع منه بصورة نقابلها بصورة « سارتر » فاذا هى تختلف عنها اختلافا هائلا ، سواء فى الأبعاد والحجم ، أو فى القسّمات والملامح ، أو فى الطابع واللون ، مع أنّهما زميلان فى المذهب الوجودى رغم اختلاف المنهج الفكرى School of thought والاتجاه الأدبى .

الفرق الرئيسى والفرق الأصيل بين الأدبين أن الأول يمثل الجناح الملحد الإباحى ، الكافر بسائر القيم الخلقية فى هذا المذهب أو هذه الحركة الفلسفية الأدبية ، والثانى يمثل الجناح المؤمن بالله المعترف بالقيم الخلقية ، الداعى الى التفاهم مع المسيحية .

ان « مارسيل » يؤمن بالروح ، ويعتقد أن الانسان لا يحظى بالحرية الصحيحة والحرية الكاملة الا اذا اتصل بقوة أكبر منها ، وهى الذات الالهية ، وكل اعتباره وقيّمته أنه اختار الله ورضى به غاية وهدفا ، انه يرى أن الاستقرار فى النشاط الفردى والكفاح الاجتماعى لا يتأتى بدون هذا الايمان ، وهناك يلتقى « مارسيل » بالمسيحية فى أوسع نطاق وأفسح مجال (١) .

(١) الأدب الفرنسى ص ٥٤٨ .

انه يقول : ان الحس الخفى والارادة الشخصية هما
يفيضان على الحياة معنى وغاية ، انه لا يعتبر الحياة ضائعة
مهملة لا معنى لها ولا قيمة شأن « سارتر » و « كامو »
(Camus) بل انه يؤمن - بالعكس - بأن الأمل والرجاء
أصيل متسرب فى الروح البشرى متغلغل فى كيانه ، ونحن
لا نستطيع أن نفوز بذواتنا الا فى حالة الأمل والرجاء ، لا
فى حالة اليأس والشقاء ، فان الأمل للحياة الروحية ، بمثابة
النفس ، للحالة الطبيعية (٢) .

انه يؤمن بالحب والوفاء والرجاء وسائر المعانى النبيلة
الكريمة التى أودعها الله فى الانسان ليستعين بها فى مشاق
سفره ، ويتزود بها فى رحلته الطويلة فتخفف ما به من
آلام ومتاعب وصعوبات ، ومشكلات وعقبات ، ولكنه لا
يستطيع أن يضع لها تصميما وضحا ، أو يشير الى منهج
خاص يضىء له الطريق ، فاذا كان الأول كمثل « الذين
طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم » (٣) كان الثانى
كمثل الذين وصفهم الله بهذا الوصف المعجز البليغ « كلما
أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله
لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير » (٤) .

(٢) نفس المصدر ص ٥٤٩ .

(٣) سورة النحل ، آية ١٠٨ .

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٠ .

وأما روايته وتمثيلاته فمجرد عناوينها وأسمائها تدل على منهج تفكيره وعاطفته ووجدانه ، فهنا تمثيلية مشهورة له سماها « ولي من أولياء الله » Unhomme de dien ورواية تحت عنوان « قلوب الآخرين Lacoerdes autres بخلاف روايات « سارتر » .

Lagrace وثالثة اسمها « التوفيق الالهي »

ونقدم هنا نموذجا واحد من رواية « ولي من أولياء الله » فهو يلقي الضوء على أسلوب تفكيره وعلى ضميره العلمي ، وعقله المشبوب بالوجدان والعاطفة .

انه يصور في هذه الرواية قسا من البروتستانت (وهو بطل الروية) غفر لزوجته بعض جفوتها وعفا عما أتت به من جناية أو خيانة ، ولكنه تحول منذ ذلك الوقت شخصا آخر ، وحدثت في نفسه ثورة عجيبة ، فبينما كان يثق بكل واحد أصبح لا يعتمد الآن على أى شخص مطلقا ويرى الناس حوله بنظرة الشبهة ، ويسئ بهم الظن ، ثم راح يشك في نفسه فتعبد في الخلوات ، ومضى في العبادات لعله يبرأ من علته ، ولكنه لم يتخلص منها ، وابتلى بها مدة من الزمان ، وتوجه أخيرا الى خدمة الرهبان في الكنيسة ، وانصرف اليها كليا ، وحاول أن ينسى نفسه في زحمة الأشغال والوظائف اليومية المعتادة ، ونجحت هذه الفكرة وهذه المحاولة ، فلم تذهب عنه الظنون والشبهات فحسب ،

بل انه عشر بذلك على ضالته المنشودة . فبدأ يلمس في حياته معنى خاصا .

انه نموذج لكاتب كبير له مكانة مرموقة في الأدب الفرنسي وطابع ممتاز بين المناهج الأدبية وأساليبها ، وزعيم من كبار زعماء المذهب الوجودي ، فما هي اذا جنايته اذ تخونه الأعين وتفوته الأبصار ، في مصر وسوريا ولبنان ، ولا ينال هذا الأديب المؤمن بالذات الالهية وبالقيم الأخلاقية - وأنا لا أدافع عنه ففي أدبه مؤاخذات وفي فلسفته فجوات وثغرات يضيق عنها المكان - بعشر ذلك الترحيب الحار أو بهذه الورود والأزهار التي نالها ذلك الكاتب الملحد المعروف بذهنه المائع وفلسفته الفاجرة الهدامة لسائر القيم والمبادئ والأخلاق ، والدعوات والرسالات التي قامت بها الأرض وتشرفت بها الانسانية ، وامتاز بها الجنس البشرى على حشرات الأرض وفقايع البحر .

هل هي « مؤامرة أدبية » للكتاب الاشتراكيين والأدباء الثوريين لتحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من هدم للدين واشاعة الفاحشة في المسلمين أم انه انسياق مع التيار من غير هدى ، وتخبط في ضلالة وعمى .

لقد أحاطوه بهالات التقديس والاجلال وفرشوا له المحاجر والقلوب ، كأنه نبي أرسله الله الى الاشتراكيين

العرب ، أو قديس جادت به أرض فرنسا - كعبة هؤلاء
الادباء المزعومين - ليمسح دموع هذه الأمة المنكوبة ويبارك
على أحزابها المتنافرة وهيئاتها المتنافسة ودويلاتها المتفرقة
وحكامها المتناحرين المتكالبين على مقاعد الحكم والقيادة ،
ومناصب الامارة والرئاسة ، أم أنه مسيح يحيى الموتى
ويبرئ الأكمة والأبرص باذن الله .

لقد وقع بصري على تصريح وتعليق لبعض رجال
السلك الدبلوماسي ، فألمنى هذا المستوى المنخفض الساقط
الدليل من التفكير وهذه العقلية الصغيرة القاصرة ، عقلية
العصافير أو عقلية القرود والبيغاوات التي تحسن التقاليد
وتجيد فن المحاكاة .

ياعباد « سارتر » ! يا أيها الأقرام المقلدون ، المتآمرون
على الشعب العربي المسلم ، ويا أيها المتنكرون لمبادئكم ،
المنحرفون عن جادتك ، السادرون في غيكم ، ان تحمسكم
لهؤلاء الكتاب الملحدون واحتفالكم بهؤلاء الأدباء الأشقياء في
الدنيا والدين ، وتصفيقكم لهذه الشرذمة القليلة من الطغاة
والمجرمين - الذين سودوا وجه الانسانية وانحطوا بها الى
درجة الكلاب والذئاب - تسوقكم في نهاية المطاف الى مزبلة
التاريخ التي تكدر فيها كلما أبته النفوس الطاهرة المؤمنة ،
ومجته العقول النظيفة والأرواح الشفافة ، وعافة القلب
السليم والفكر المستقيم .

انها ترمى بكم فى النهاية ومن غير احتفال فى أوساخ
التاريخ أو فى مهوى سحيق ، فهل أصبركم « سارتر »
و « ماركس » و « تيتو » و « هيللا سلاسى » على هذا المصير؟؟

« وان يروا سبيل الرشده لا يتخذوه سبيلا ، وان
يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا » (١) وصدق الله العظيم .

(١) سورة الاعراف ، الآية : ٤٦ ، ١

بناء الانسان أفضل أم بناء العمارات ؟!

من المحن والأزمات التي ابتلى بها الشرق الاسلامى شغفه الزائد بالبنائيات الحديثة والمعاهد العلمية الفخمة التي تشبه الفنادق والبنوك في ضخامتها وارتفاعها ، وأناقته وتأثيرها ، وشاع أمثال هذه الجمل : ان هذه البناية أكبر بناية حديثة في الشرق الأوسط ، وان هذا الصالون أو هذا المدرج أو هذا المتحف ، الأول من نوعه في المنطقة بأسرها ، وقد سموا هذا البناء الحجرى ، أو البناء الظاهرى بناء الوطن ، بناء الجيل ، بناء الحضارة ، بناء الثقافة ، الى آخر هذه التعبيرات البراقة التي كثر استعمالها في الوقت الحاضر .

وقد طغى « آخر موضة » و « آخر طراز » على جميع الحقائق وأصبح « الأحدث » و « الآخر » و « الأكبر » المثل الوحيد للنهضة والرقى ، والبراعة والنبوغ ، وقد عمت هذه الظاهرة في أكثر البلاد الاسلامية ، فهذا أكبر مسجد في العالم في أندونيسيا ، وآخر في « كوالالمبور » وثالث في « اسلام اباد » ، وقوى هذا الاتجاه المعمارى على حساب الأصالة في العلوم والتعمق في الدراسة ، والرسوخ في

العقيدة ، والاضطلاع بالدعوة ، وأصبحت البنايات تستهلك قوى الأمة ، وتستنفد مجهودها وطاقاتها ، ومكاسبها ، وأموالها وعقولها ، لا تستطيع عنها حولا ، ولا تبغى بها بدلا ، لأنها آخر طراز وآخر ما قدمه الفن المعماري الحديث ، والأولى من نوعها في آسيا و « ذلك مبلغهم من العلم » .

هذا في محيط البنايات ، أما في محيط الانسان فلم نسمع - في عرض العالم الاسلامي كله - من يقول في نفس التعبير ، وفي نفس القوة والاعتزاز ، هذا أكبر عالم في الشرق ، وهذا أكبر طبيب في « آسيا » . وهذا أكبر مهندس في العالم الاسلامي ، وهذا أكبر كيميائي في المنطقة بأسرها ، وهذا أكبر ضابط وأعلمهم بفنون الحرب في البلاد العربية كلها .

ان كثرة البنايات والفنادق - يقادة العالم الاسلامي - لا تنجب الرجال ولا تنجب الكفاءة والمقدرة ، والنبوغ والبراعة ، والعلم والتقوى ، انها - بالعكس - تلهي الأمة عن المكرمات والبطولات ، انها تستنفد قواها وتشغل بالها ، وتصرفها عن غايتها السامية ، وأهدافها العالية ، وتجعلها في قفص ذهبي تجد فيه كل ما يحتاج اليه جسدها من عيش رغيد ، وتفقد كل ما يحن اليه طائر الروح من حرية للخروج وأجواء فسيحة للطيران تزكى جوهرها الأصيل وترخي لها العنان .

ان بناء الانسان لا يحتاج الى بناية ولا يحتاج الى

دعاية ، بل انه يحتاج - فقط - الى تصحيح الاتجاه ،
وتنوير الوعي ، وتنمية الشعور والعناية بالأولى والأهم ،
والتركيز على النواحي المهمة الحساسة ، وتقوية الجانب الذى
تضائل واطمحل وضعف ، بدلا من تغذية الجانب الذى
تسمن وتضخم ، وطغى وبغى على الجانب الضعيف .

ان مثلنا فى ذلك كمثّل رجل نزل عنده ضيف اشتد
به الجوع فاعتنى بغرفته كل العناية ، وأثّها تأثيثا جميلا ،
وحشد له كل ما لا يحتاج اليه من كماليات ، ومع ذلك فلم
يقدم اليه وجبة طعام ، أو كأسا من ماء .

أو كمثّل رجل أنه مريض يشكو ألما فى القلب ، أو
وجعا فى الصدر فهداه الى مساحيق التجميل ، أو استعمال
الملابس الفاخرة .

لقد عيننا - كثيرا - بالبنيان ، فلنتجه الآن الى
الانسان .

همسات الى جزيرة العرب ..

ان نظرة المسلمين اليك يا جزيرة العرب - يا مهبط
الرسالة الأخيرة ومأوى النبوة الخالدة - تختلف عن نظرتهم
الى شقيقاتك من البلاد العربية والبلاد الاسلامية القريبة
والبعيدة كل الاختلاف ، فأنت فى نظرهم مأزر الاسلام
والايمان ، ومركز الحسن والاحسان ، ومنبع الصدق والوفاء ،
ومعدن الحب والولاء ، وملتقى الأرض والسماء .

وأنت فى نظرهم - بجانب ذلك - محط الآمال وموئل
الأمة الشاردة الحائرة ، المفتتة الموزعة ، المتخاصمة المتناحرة
وسهمها الأخير الوحيد الذى يتوقف عليه مصيرها
ومستقبلها ، وعزتها وكرامتها .

أنت فى نظر المسلم العجمى أحب اليه من الوطنى الذى
عاش فيه منذ نعومة أظافره ، والأرض التى قضى عليها أحلى
أيامه وأسعد أوقاته ، والبيت الذى حمل أطيب ذكرياته .

فهل تعرفين سبب حبه لك وغرامة بك ، وتهافته
عليك تهافت الصادى على الماء الزلال ، وتساقطه عليك
تساقط الفراش على النور ؟

وهل تعرفين سبب ايمانه بك كالمقل الأخير والحسن
الأخير للاسلام فى هذا الزمان ؟

انه نداء ابراهيم ودعوة محمد صلوات الله عليهما
وسلامه ، ان هذا الاسم العظيم الكريم ، الحبيب الأثير ، اسم
محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذى أضفى عليك كل هذا
الطهر والقداسة ، ومنحك تلك المكانة الفريدة المحسودة
التي لا يمسيها بلد من بلاد العالم ، ولا تحلم بها بقعة من
بقاع الأرض .

لقد كانت مروج « كشمير » وجبال المغرب وضفاف
النيل وغوطة دمشق أجمل بقعة من بقاع العالم وأغناها
بالمواهب الطبيعية ، ولكن شاعت حكمة الله أن تبقى هذه
البلاد كلها - وما سواها - عالة عليك فى دعوتك ورسالتك ،
متطفلة على فتات مائدتك ، تنظر اليك بنظرة السائل
والمحروم ، ولا ننكر فضلك يا جزيرة العرب فقد آتيتها
سؤلها ، ومننت عليها بما هو أعلى من الوجود وأثمن من
الحياة ، وهو الايمان .

لقد شاعت حكمة الله البالغة أن ينزل أول وحى على
محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء ، بين رمال وعساء
وجبال جرداء ، وتنطلق الشرارة الأولى للدعوة بواد غير ذى
زرع ، وتدور المعركة الفاصلة فى تاريخ الاسلام ، معركة
بدر الكبرى فى الصحارى القاحلة والأرض الجرداء المجسدة
التي لا زرع فيها ولا نبات ، فكأنها بذلك أرادت أن تقطع

صلتك بالمظاهر المادية قطعاً باتا ، وتعلن أن قيمة هذه الجزيرة في دعوتها ورسالتها وفي الأهداف التي جاهدت في سبيلها ، لا في مظاهرها وثرواتها ، ووسائلها وأدواتها .

ان هذا الاسم العظيم الكريم الحبيب الأثير اسم سيد ولد آدم وسيد الأنبياء : محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذى منحك هذا المكان النادر ، الفريد الأصيل ، الجميل ، الكريم ، النبيل ، فى مصاف الشعوب وأسرة الأمم ، مكان الوصايا العادلة الرحيمة ، على الانسانية الحائرة والقيادة المحنكة الرشيدة للشعوب الضالة ، مكانة الجهاد المتواصل المرير مع القوى الباغية ، والرباط الدائم على ثغور الاسلام ، مكان النجدة والغوث للمسلمين المعذبين ، فى مختلف أرجاء الأرض ، وأقصى بلاد العالم .

ان قيمتك أيتها الجزيرة الحبيبة ليس فى هذا الذهب الأسود الفاض الذى تتدفق به الصحراء ، وفى هذه المباريات للريح والناطحات فى السماء ، ان قيمتك واعتبارك وثمانك فى سوق العالم - مهما تغيرت الدنيا وتطورت - هو ايمانك بهذا النبى صلى الله عليه وسلم ، وحبك له ، واتباع النور الذى أنزل معه .

ان قيمتك هى الحفاظ على سمعة هذا الاسم الحبيب والانتصار له والتمسك به ، والتفانى فى سبيل عزته وكرامته فى وقت عم فيه الضلال وانتشر فيه الغوغاء ، وقل فيه الوفاء ، وكثر فيه النكران والجحود .

اننى أراك أيتها الجزيرة تنظرين الى الغرب الذى داس
كرامته الثوار فى « فيتنام » بالأقدام ، نظرة فيها بعض
الاجلال ، وفيها بعض الطمع ، وفيها بعض الشعور بالهوان،
وفيها شيء كأنه « الندم » مالى أراك مسرعة متحضرة تريدين
استدراك ما فاتك فى هذه العقود من السنين من رواسب
الحضارة الغربية وأثاثها البالى القديم .

اننى أراك يا جزيرة العرب تستوردين من الغرب كل
شيء ولا تصدرين اليه ما خصك الله به من عقيدة نقية
صافية ، وايمان عمق ، وغايات نبيلة ، ودوافع صالحة ،
وجمعك بين الأخلاق والوسائل ، والغايات والوسائل ،
وما خصك الله به من نور النبوة الذى انطقت مصابيح
وانظمت معالمه فى الغرب .

انك يا جزيرة العرب تواجهين عدوا يضمرك الحقد
والكيد منذ زمن طويل ، عدوا يعلن مطامعه التوسعية ويهدد
الأماكن المقدسة ، ويطمع فى المدينة المنورة وخيبر ، فليكن
ردك عليه رد الرجال الأبطال ، لا رد بنات الحدور وربات
الحجال ، وذلك لا يمكن الا اذا حولت بلادك وفلذات أكبادك،
ومحلاتك التجارية وأسواقك العامرة ، وأبينتك الشامخة ،
ومدنتك وبواديك الى معسكر ، والى قاعدة حربية ، ومركز
تدريب ، فاذا نزل ضيف وورد زائر رأى أمة متهيأة للوثوب
منتظرة ساعة الصفر ، متعطشة الى المعركة ، متلهفة على
الشهادة، ورأى شبابا يسرعون الى نوادى الرماية، ومخيمات

التدريب ، ومراكز الدفاع والحرس الوطني ، كما يسرعون الى الملاعب ، ومراكز الرياضة ، البدنية ومباريات كرة القدم .

انك لو كنت يا جزيرة العرب مثل البلاد الاسلامية الأخرى كتركيا أو اندونيسيا أو أفغانستان لحففنا عليك الثقل ، وأقلنا عنك الحمل ، والتمسنا لك الأعذار ، ولكنك في مكان دقيق وموقف دقيق ، ومسئوليتك أكبر وأضخم من مسئولية أى بلد اسلامى فى العالم ، فاذا طلبنا من غيرك تضحية طلبنا منك تضحيتين ، واذا رجونا من غيرك مرة رجونا منك مرتين ، ولا عجب فهي ضريبة الشرف ، بل هو عين الشرف .

ان مسئوليتك بحكم هذا الشرف - أضخم وأكبر من مسئولية مصر ، ومسئولية سوريا ، ومسئولية الأردن ، ومسئولية العراق ، ومسئولية الجزائر ، وتركيا وباكستان .

ان أمل العالم الاسلامى قد ضعف فى شقيقاتك الأخرى التى انسأقت مع التيارات الغربية كل الانسياق - وأنا آسف على هذه الصراحة - وهو لم يعد يرجو منها خيرا ما دامت على نكرانها بنعمة الاسلام ، وجحودها بفضل محمد صلى الله عليه وسلم ، وما دامت تلهج بالثناء على الحضارات السائدة والمدنيات الجاهلية ، وما دام فيها من البعثيين الملحددين الذين يسخرون من الله فى الصحف الرسمية علنا وجهارا ، ومرارا وتكرارا .

انك يا جزيرة العرب السهم الأخير الوحيد فى كنانة العالم الاسلامى - والله أعلم بأسراره وخفايا أموره - فلا تخيبى أمله ورجاءه ، ولا تنظرى الى هؤلاء « الأقزام » باكبار واعجاب الذين أساءوا الى العالم العربى اساءة لن ينساها التاريخ .

انك أيتها الجزيرة قد جهرت بالاسلام فى كل مناسبة من المناسبات ، محلية كانت أم دولية ، سياسية كانت أم دينية ، بينما استحى منه الآخرون ، واستنكف منه « البعض » وحاربه « البعض الآخر » وأشدت بذكره بكل صراحة وقوة واعتزاز ، وهى مآثرة سوف يسجلها لك التاريخ بكل تقدير واعجاب ، وذلك ما حمل المسلمين فى جميع أنحاء الأرض على أن يعتبروك المعقل الأخير فى هذا الصراع الطويل المرير بين الدين واللادينية ، والاسلام والجاهلية . الذى تدور رحاه فى البلاد العربية فى أقسى صوره وأفظع مظاهره ، فاعرفى مسئوليتك الضخمة الدقيقة فى هذه المعركة الفاصلة الحاسمة ، والمرحلة الخطيرة الهامة فى تاريخك المشرق الطويل .

انك أسعفت الانسانية يا جزيرة العرب فى القرن السادس المسيحى ، بعد أن كادت تقع فى الهاوية وأخرجتها من جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، وهى لا تزال تذكر فضلك وتذكر أبطالك الغر الميامين ، من الصحابة والتابعين ، ولكنها ترنو اليك مرة

ثانية ، مستعطفة مسترحمة أن تسعفيها مرة أخرى وتتولى
زمام قيادتها من جديد .

وأريد أن أهمس في أذنك يا جزيرة العرب بكلمة
وجيزة أخيرة سامحيني فيها ولا تؤاخذيني عليها ، وهى ان
الحياة صبر وجهاد ، وجد واجتهاد ، وشوك وقتاد ، ان الحياة
الكريمة الحرة ، حياة العز والسعادة ، والشرف والكرامة لا
تبنى بالرقه والنعومة ، والبذخ والاسراف ، ولا بوسائل
الترفيه وأدوات التسلية ، أو أسباب الزينة والجمال ، انها
تحتاج ادموع ودماء ، وتحتاج الى صبر وتضحية ، وغلظة
وخشونة ، وبساطة فى المعيشة ، واقتصاد فى المأكل
والملبس ، والمسكن ، فاذا جمعت بين عقيدتك ودعوتك ،
وبساطتك وتضحيتك ، أحسنت الى نفسك والى الأمة
الاسلامية كلها والى الانسانية بأسرها ، وتفضلى أخيرا
بقبول تحيات من عاش فى أحضانك زمنا سعيدا وقضى فى
ربوعك وعطفك ورفدك أياما حلوة ، ورأى من واجبه الدينى
أن يهمس فى اذنك وينقل الى سمعك وبصرك ما شاهده
بدقة وأمانة وصدق ونزاهة ، والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته .

فيتناميات جديدة

ان الأمم لا تحارب بالأسلحة ولا تحارب بالمال ، ولا تحارب بالأعلام ، أو بالأمانى والأحلام ، انما هى تحارب بالروح المعنوية ، بالوعى الحربى ، بالدم الفائر ، بالقلب الثائر ، بالأهداف الواضحة ، بالغيرة والاباء ، بالجروح والآلام ، انها لا تحارب بالصاروخ « الظافر » و « القاهر » (١) والبوارج والبواخر ، بل انها تحارب بتلك الشوكة الصغيرة التى يشاكرها قلبها ، فتؤرق نومها ، وتنغص نعيمها ، بتلك الغيرة البشرية ، والحياء الانسانى الذى يظلم عليها الحياة ويضيق عليها الأرض ، بتلك الغضبة التى تطيح بالأرباح الرخيصة الحقيرة وتكتسح النباتات السامة والأحراش الخبيثة ، انها تحارب بوقفة الرجل الحر الكريم ، الذى أهين فى عرضه ، وجرح فى شرفه ، وشتم فى مروءته ورجولته ، ولعن فى سلالته وأسرته ، وفصيلته وقبيلته ، فيهجرببات الحجال ، ويركض الى ساحة القتال ، ليغسل عاره ، ويأخذ ثأره ، ويرد اعتباره .

ان الأمم - يا أبناء سيد الشعوب والأمم : محمد صلى الله عليه وسلم - لا تحارب بصور الممثلين والممثلات ،

(١) أسماء الصواريخ التى تبجحت بها الصحافة فى العهد الناصرى تم

تلاشت وتبخرت .

والمغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات ، انما هي تحارب بالشرارة الملتهبة في الصدر ، بالدماء المتوثبة الفائرة في العروق ، ببريق الثأر والنصر في العيون ، باشراقفة الغد المأمون المضمون على الجباه ، بترنيمة الفجر الجديد والنصر الأكيد على الشفاه .

انها تحارب بعاطفة « صلاح الدين » وغيره « بابر » و « شهاب الدين » (٢) التي أبت وعافت كل ما لذ وطاب ، من طعام وشراب وثياب ، ما لم يتم النصر ويتحقق الانتصار ، وتقر عيون المسلمين بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم .

انها لا تحارب بالعمارات والعقارات ، والفنادق والسيارات ، والصحف والمجلات ، والتلفزيون والاذاعات ، ولا تحارب بالدخول والايراد ، وتضخم الميزانية وحركة التصدير والتوريد ، والمرافق العامة والمنشآت الجميلة ، والتجارة المزدهرة ، والسوق العامرة النافقة ، والمحلات التجارية الكبرى ، والبواخر المحملة بالبضائع ، والذهب الاحتياطي في البنوك ، والأسهم الكبيرة في المصارف والشركات ، والرحلات الجوية الى روما وباريس وبيروت ، فحسبك ما كان عليه الفرس والروم في زمن البعثة المحمدية من زينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد ، فلم يغن عنهم

(٢) من غزاة الهند المسلمين وملوكها الفاتحين .

شيئا ، وما كانت عليه فرنسا - في الزمن الأخير - من حضارة زاهية مزخرفة رقيقة ، وأسواق عامرة ، وسمعة طيبة ، فلم تغن حضارتها وأسواقها وسمعتها من جحافل ألمانيا شيئا ، وما عليه الآن أمريكا من قوة وسيطرة وتجارة ونفوذ ، وحياة ارتفع مستواها وتنوعت مطالبها ، ورقت حواشيتها ، وكثرت ملامحها ، فلم يغن عنها مستواها الرفيع ، وقوتها السياسية والعسكرية ، وتجارتها العالمية ، ونفوذها الكبير ، وأساطيلها البحرية المشهورة ، وغاراتها الجوية ، وقنابلها المحرقة ، وغازاتها السامة ، وحمالاتها الوحشية الانتقامية من الثوار الفيتناميين شيئا .

انها سنة الله في الخلق ، وهي لا تفرق بين مسلم وكافر ، ولا تميز بين عربى وعجمى « من يعمل سوءا يجزيه ، ولا يجد له من دوا الله وليا ولا نصيرا » (١) .

لقد كانت جيوش ألمانيا تحارب بنشوة غريبة ، وعاطفة قوية ، وروح معنوية عالية ، حينما كانت فرنسا غارقة في لهوها ، عابثة بأموالها ، معجبة بأدابها وحضارتها ، مزهوة بقوتها ووزنها السياسى ، لا تملك عاطفة ، ولا تحمل روحا قوية تهون عليها الشدائد ، وتكهرب طاقتها الكامنة ، وتأخذ بيدها فى البأساء والضراء ، وحين البأس .

(١) النساء ، الآية ١٢٣ .

وهذه هي قصة الفيتناميين ، فانهم يحملون من الروح المعنوية والوعى الحربى ، وعاطفة الأخذ بالثأر ، ما لا تملكه أمريكا - رغم كل ما فيها - والنتيجة معلومة ظاهرة لا تحتاج الى بيان .

اننا نستحى كثيرا بسرد هذه الأسماء ، وضرب المثل بالشعب الفيتنامى أو الألمانى ، لأحفاد محمد الفاتح ، وصلاح الدين ، ولكنه حضيض وقعنا فيه ورضينا به ، ووضع قبلنا وعشنا فيه ، وصورة مشوهة أحببناها ناسين وجهنا الحقيقى وسيرتنا الأولى .

ان عنصر الحياء هو العنصر الوحيد الذى ينعش الرفات ، ويحيى الأموات ، ويجعل الرجل الحامل المتكاسل يثور كالليث ، وينقض على عدوه كالصقر ، فليعن العالم الاسلامى والشعوب المسلمة بهذا العنصر الذى تضائل واضمحل ، وتقلص وانكمش ، أكثر من أى عنصر آخر ،

ان هذا العنصر ، عنصر هام أساسى فى الحروب ، وركن شديد تأوى اليه الشعوب ، انه يمسح هذا الغبار ، الذى يتراكم على الأمم الضعيفة الصغيرة بعض الأحيان ، فتأتى بالعجائب ، وتصنع المعجزات ، وترضى بموت الشرف أو حياة الأسد الغيور ، والليث الهصور ، مقابل لقمة العيش وتمديد أجل الحياة ، حياة الذل والخضوع ، والاستسلام والخنوع .

ان العالم الاسلامى اصيب بنقصان فى هذه
الفيتامينات الروحية ، والقلبية والعصبية - اذا لم نقل انه
فقدتها - منذ زمن طويل ، فأصبح مشلول القوى ، عاطل
الارادة والتفكير ، وفاقد الهمة والطموح ، لا تثيره محنة ،
ولا يهزه « تأديب » ولا تجرحه اهانة ، ولا يستفزّه عدوان .

فليكن تركيزنا على هذه الناحية ، وضغطنا على هذه
النقطة ، والضرب على ذلك الوتر الحساس ، من أوليات
الأمور التى نتدارسها ، ونعالجها حول نكبة ٥ حزيران ،
والله المستعان .

دولة لا تقرب عنها الشمس

اننا فى حياتنا الشخصية والاجتماعية والسياسية -
نعالج الأغراض بالأغراض ، ونعالج الأناية بالأناية ،
والطمع بالطمع ، والحيانة بالحيانة ، والظلم بالظلم ، والاثم
بالاثم ، فتصبح الحياة كلها غابة موحشة مظلمة لا توجد فيها
غير الذئاب والكلاب ، والأسد والدياب ، وغير الأحرار
والآجام ، والأحوال والمستنقعات ، وتصبح الدنيا كلها
مسرحة تتصارع فيه الأغراض ، وتتشابك فيه المنافع ، اننا
نقول : منينا بهذه الخسارة لحيانة فلان ، ومؤامرة فلان ،
واهمان فلان ، وجناية فلان ، ولكننا لا نعلم أننا منينا بهذه
الخسائر لمجرد تلك الأغراض الشخصية والفردية ، والحزبية
والقيادية ، التى تتحكم فى جميع مصالحنا ، ومرافقنا
العسكرية والمدنية ، وتتحكم فى مخبراتنا وفى قيادتنا
العربية « الموحدة » وتتحكم فى ولاة الأمور وحكام البلاد ،
ورؤساء الجمهوريات ، بمثل ما تتحكم فى أوساط الناس
وعامة الشعب ، أو تتحكم فى رب البيت ورجل الشارع .

ان هذه الأغراض تتحكم فى مدرس كلية وأستاذ
جامعة ، فيروق له أن يتخطى جميع الحدود ، ويهضم جميع

الحقوق ، ويغض النظر عن كل شيء ، ويستغل كل شيء ، حتى يصل الى مقامه اللائق ، في الكلية والجامعة ، حيث يتقلب في أعطاف النعيم ، ويعيش عيشة الأمراء وكبار الوزراء .

وتتحكم هذه الأغراض في ضابط صغير بدأ يحلم « بالرئاسة » رئاسة جمهورية اشتراكية تقدمية مثلا ، أو بدأ يسعى للوصول الى درجة ضابط كبير ، صاحب الأوسمة الرفيعة والبطولة الفذة من غير حق ، فيستغل جميع الفرص ، ويتآمر على سلامة البلاد ، ويستعين بالأعداء ، ويقف بوطنه وبلده وشعبه على فوهة بركان لمجرد الفوز بالمرتبة الأولى أو الثانية .

وتتحكم هذه الأغراض في حارس مركز استراتيجي كبير ، فتتراءى له الدنيا حلوة راقصة ، وينساق مع أوهامه وأحلامه ، فيرى أن اللذة القادمة والمتعة الرخيصة طوع أمره ، ورهن اشارته ، فيبيع الأسرار بثمن بخس .

وتتحكم هذه الأغراض في حارس مركز استراتيجي جمهورية ، فيطمع في البلاد المجاورة ، ويسيل لعابه على خيرات الآخرين وتشتد فيه شهوة الحكم وشهوة المدح والاطراء فلا يبالي بالملايين من الضحايا ، ولا يبالي بالرؤوس المهشمة ، والأجساد المحرقة ، ويقامر بكرامة بلاده .

ان ٩٩ في المائة من الحروب والمعارك والتعذيب والاضطهاد والشر والفساد ، يرجع الى الأغراض ، أما

« الضمير » و « المبدأ » و « حقوق الانسان » و « من أجل الشعب » و « فى سبيل الشعب » و « باسم الشعب » فهى ألفاظ فارغة ، وكلمات معسولة ، لا يراد بها وجه الحق ، بل انها ستائر تلقى على هذا الوجه القبيح من الأغراض ، لئلا يفتضح الأمر ، وينكشف السر .

ان هذا الحرص الشديد على زعامة الشعوب العربية المؤمنة لا يتصل - من قريب أو بعيد - بالايمان العميق بالمبادئ ، والاخلاص الكامل فى الجهود والأهداف ، انها زعامة فى سبيل توزيع المنافع والأرباح ، والمناصب والجاه ، انه تسابق الى الأوسمة والشارات ، والأسماء والشعارات ، وكسب الجماهير « الثائرة » للتصفيق والتهتاف على الوعود المعسولة ، والتهديدات المججلة ، والخطب الرنانة الطنانة ، والأحاديث الرخيصة الرصينة ، على أمواج الأثير وشاشة التلفزيون .

ان « الأغراض » هى التى أضاعت المسجد الأقصى ، وأراقت الدماء فى غزة وسيناء ، وذلت رقاب المسلمين فى العالم ، وأنشأت الفوضى السياسية والخلقية فى البلاد العربية « الاشتراكية » وتركت القوى العربية تقاوم وحدها العدو المشترك .

فهل هناك طريق للتخلص من هذا الداء ؟

ان طريق الخلاص قريب وبعيد ، وسهل وعسير فى

نفس الوقت ، انه قريب منا ومن أرضنا ومن تاريخنا ، ومن
دمائنا وعروقنا ، بعيد عن واقع حياتنا ، وأوضاعنا السائدة
التي نعيش فيها ، بعيد عن القيادات، التي لا تعرف غير «شكوى
فى مجلس الأمن» ، بعيد عن هذا الأسلوب الرخو الناعم ،
الرقيق من الحياة ، التي لا تستطيع أن تواجه الشدائد
وتركب المخاطر وتخوض المعارك .

انه سهل لا نحتاج الى أن نبحث عنه فى تركستان
والقفقاز والهند والسند ، فهو فى متناول اليد والسبب
الوحيد اننا لم نسر على هذا الطريق منذ زمن بعيد ، فأصبح
غربيا علينا ، وأصبحنا غرباء عليه .

انه طريق التضحية والايثار ونكران الذات ، والكفاح
الشاق المضنى على درب الحياة ، انه طريق الاحتمال والصبر،
وكبح جماح النفس ، وايثار الآجل على العاجل ، والالتحاق
بركب الصحابة والتابعين على صعيد الدعوة الى الله ورسوله .

ان هذا الطريق لا مكان فيه للأغراض ، فان الاخلاص
لله يعارض الأغراض المادية على طول الخط ، فاذا دخل
الاخلاص من باب واحد خرجت الأغراض من باب آخر .

وقد روى المؤرخون من العجائب والنوادر فى الاخلاص
والتجرد عن الأغراض ما يكشف سر هذه القوة والنصر ،
والعزة والكرامة ، والهداية والقيادة ، ويحجز التاريخ
البشرى عن نظائره على طوله وامتداده .

فقد يغنم جندي في المدائن تاج كسرى وبساطة ، وهو
يساوى مآت الألوف من الدنانير فلا تعبت به يد ، ولا تشح
عنه نفس ، ثم يسلمه الى الأمير ، ويرسله الأمير الى خليفة
المسلمين فيتعجب ويقول : ان الذين أدوا هذا لأمناء •

ويعزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : خالد بن الوليد ،
وهو في غمار المعركة عن منصبه العسكري الكبير ، وهو
منصب « القائد الأعلى للقوات المسلحة » في التعبير الحديث ،
فيقبل أمر العزل عن طيب خاطر وينقاد للحق ، ولا يعبت
به الهوى شأن القادة والزعماء ، ولا يضعف ولا يخور في
القتال ، بل ظل يجاهد بنفس القوة والعاطفة والنشاط كأنه
لم يعزل عن هذا المنصب ، ولا آتاه أمر جديد •

فلو سمح للأغراض - لا قدر الله - أن تعمل عملها في
ذلك الزمان ، وأرخت لها العنان ، لما كان الاسلام وما كانت
مصر والشام ، وثارَت العصبية القبلية ، والوطنية
والجنسية ، واستبد كل امرئ برأيه وحكمه وهواه ، واحتدم
التنافس والتباغض والتحاسد بين مختلف الطبقات والفئات ،
وضاعت هذه البلاد كما ضاعت الأندلس وفلسطين •

ان الاخلاص أنقذ هذه الأمة دائما من الهبوط والتردى
وأسعفها في أيام المحنة ، وأبان لها معالم الطريق ، أما
الأغراض فقد حالت - دائما وأبدا - دون رؤية الحقائق ،
وأعمت القلوب والبصائر ، وأرغمت أبناءها على سخافات لا

يتصورها العقل ، وتصرفات صبيانية وألعاب بهلوانية تذر الرماد في العيون ، وتلقى الغشاوة على الأبصار ، كما حدث عند اغلاق خليج العقبة ، ومضايق تيران وحرب ٥ حزيران .

ان الاخلاص والتجرد عن الأنانية والأغراض ، حاجة الأمة الأولى في كل عصر ومصر ، وكل زمان ومكان ، فان تغيير الالفتات والواجهات ، وتبديل الشعارات والهتافات ، واختراع التعبيرات وضخامة الحروف والكليشات ، لا يقدم ولا يؤخر في القضية ما دامت الأغراض تتحكم في النفوس والقلوب ، وما دامت الأنانية وتعبد الذات ، وتقديس الأصنام البشرية والهيكل الانسانية متغلغلة في الأحشاء، جارية مع الدماء ، غارقة في الأنفس والأرواح ، وما دامت المصلحة الشخصية ، والمتعة المادية ، والحياة الرخيصة التافهة ، وتقليد الغرب « التعس الشقى » عن فهم ومن غير فهم ، والغرام بفنون اللهو وألوان الطرب أقصى ما تهفو اليه القلوب وتشرئب اليه الأعناق ، وغاية ما يحلم به أبناء الفاتحين العرب ، وأشبال الأمة الاسلامية في الشرق والغرب .

كيف نؤدى دورنا فى بناء العالم المعاصر ٢٠٠٠؟

ان الحياة تغيرت فيجب أن نتغير معها ، ونسايرها الى آخر الشوط ، ونهاية المطاف ؟ تلك هى خلاصة ما يقوله دعاة التجدد والتغريب فى هذا الزمان ، وعلينا أن ننظر فى صحة هذه النظرية قبل أن نحكم عليها «بنعم» أو «لا» .

اننا نجيل البصر فى العالم المعاصر ، ونجول فى عواصم العالم الكبيرة المشهورة ، فنؤمن بصدق هذه النظرية ، ونرى أن الدنيا تقدمت تقدما كبيرا فى جميع نواحيها ومرافقها ، وأصبحت غير ما كانت عليه قبل عقود من السنين فضلا عن الاجيال والقرون ، اذا كيف يجوز لنا أن نقف جامدين ، متمتمين نحو هذا التقدم المشاهد الملموس ؟

ان المنطق والعقل ، والبداهة والتجربة كلها تقتضى أن نغير موقفنا ونغير نفوسنا وأفكارنا حتى ننسجم مع هذا التطور المدهش السريع ، ولا نتخلف عن الركب ، ولا نحرم المتع واللذات ، والوسائل والتسهيلات التى توفرت وانتشرت فى جميع البلاد والأقطار ، ان معنى هذا ان الحالة الاقتصادية والأوضاع المادية ، هى التى تولد الأفكار ، وتنتج النظريات ، وتصنع الاتجاهات ؟ ومعنى هذا أن الصناعة هى التى تنشئ

• الحضارة وتنشئ المفاهيم ، وتحدد الاتجاه ، وتقرر الأهداف .

هذه فلسفة آمن بها الغرب والشرق ، وأجمع عليها الطبقة المثقفة الذكية في العالم أجمع ، حتى أصبحت « حقيقة مسلمة » لا تحتاج الى جدل ونقاش ، حتى ان جميع الدراسات العلمية ، والحركات الفكرية في الغرب قامت على أساسها

وهذه في نفس الوقت نقطة لا يقبلها الحق والحقيقة في أي حال من الاحوال ، والاسلام يعارض هذه النظرية على طول الخط .

الصناعة في الاسلام لا تكيف الحياة ، ولا تصنع النظريات ، والافكار ، بل ان النظريات والافكار هي التي تسخر الصناعة وتكيفها كيف تشاء .

«الأهداف» - في الاسلام - هي التي تتمتع بالحكم الأخير والقول الفصل ، والكلمة المسموعة ، في جميع مرافق الحياة ونواحيها أيا كان نوعها ، ومهما كانت ضخامتها ، ومهما كان نفوذها وفعاليتها .

ان قيمة الصناعة عنده نسبية (RELATIVE) انها مقبولة ومرحب بها مادامت تخدم مصالحه ، لا تطفئ على مثله وأهدافه ، ونظرته وأفكاره ، ولا تمسها بسوء ، أما اذا هي طغت عليها ، وتعدت حدودها فهي مرفوضة مردودة ، وقد تجلت هذه النظرية في الآية التالية «ولأمة مؤمنة خير من مشركة ، ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ،

ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون الى النار
والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه (١) .

وبذلك تنتهى خرافة (الصناعة الخلاقه) للنهاية .

وظهرت هذه النظرية القرآنية أكثر صراحة فى آية أخرى .

« ويستلونك عن الحمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير
ومنافع للناس . واثمهما أكبر من نفعهما (٢) » .

ان القيم والاقدار لا تتغير بالوسائل والعمران ، والنهضة
الصناعية .

فالذى يريد أن يغيث ملهوفاً أو ينصر مظلوماً أو يطعم
جائعاً مسكيناً يستوى عنده العربية والطائرة ، الا أن الطائرة
تعجل هدفه وتيسر مهمته ، أما اذا لم يرد شيئاً ، ولم يحمل
عاطفه ، فان الطائرة والعربة حتى الصاروخ وما فوقه لن
يقدر على أن يثير فى نفسه ذرة من شعور ودبيبا من ألم .

والذى يريد أن يكتب شيئاً يستوى عنده قلم الرصاص ،
والقلم الناشف ، وباركر من أعلى الانواع ، ان « باركر »
لا يدفعه على أن يكتب فى موضوع نافع فاضل ، كما أن قلم
الرصاص لا يرغمه على أن يكتب فى موضوع رخيص سافل ،

(١) البقرة : ٢٢١ .

(٢) البقرة : ٢١٨ .

الاعتبار هنالك بالفكرة التي آمن بها صاحب القلم - أيا كان نوعها ، وأيا كان لونها - والعاطفة التي حملها في صدره .

وقد تجتمع الوسائل عند أناس يختلفون في المبادئ والعقائد فلا توحدهم هذه الوسائل ولا توحدهم الصناعة على مبدأ واحد ، وذلك ما أبان عنه القرآن قائلًا .

« كلا نمد هؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا (١) » .

انه يقول ان هذه الوسائل عامة مباحة للمؤمن والكافر، هذا يستعملها في خير ، وذاك يستعملها في شر .

« قل ، من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة (٢) » .

ان الصناعة - من صناعة الاقلام الى صناعة الصواريخ والاقمار - لا تملك قدرة على انشاء نهضة وتقديم مثل ، وتوجيه أذهان ، انها آلة صماء في يد من يحملها ويستعملها .

فالقول بأن الحياة تغيرت ، فيجب أن نغير نظرتنا الى الحياة حتى ننسجم مع هذا التطور ، ولا نتخلف عن الركب ،

(١) سورة بنى اسرائيل : ٢٠ .

(٢) سورة الاعراف ٣٢ .

قول لا أساس له في عالم الواقع ، انه سحر هذه الحياة الزاهية
المتحررة الخلابه . التي عبر عنها القرآن بكلمة بليغة وجيزة
« ولو أعجبتمكم » .

ان الاعجاب بهذه الحضارة التي نشاهدها في الغرب هو
الذي يدفعنا على التقليد الاعمى ، ويخيل الينا من ضجيج
الماكينات وهدير الآلات أن الصناعة هي التي انتجت هذه
الحضارة مع ان الأمر بالعكس .

ان الدنيا لا تتغير في الخارج أبدا ، انها تتغير في داخل
نفوسنا أولا ثم تبدو نتائج هذا التغير النفسى العميق على
السطح المادى الظاهر ، يقول الله تبارك وتعالى :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢) »

ان الحياة لم تتغير حتى نحتاج الى تغيير ، اننا نحتاج
فقط الى تصحيح مفاهيمنا وأفكارنا واتجاهاتنا ، حتى نستعمل
هذه الوسائل فى صالحنا كما يستعملها غيرنا فى صالحه .

نستعملها فى بناء مجتمع نظيف كريم ، وأسرة صالحة ،
وحكومة رشيدة ، كما يستعملها عداؤنا فى الضلال
والاضلال ، والفساد والدمار ، واثارة الفرائز والشهوات ،
واشاعة المنكر والفحشاء .

(١) سورة الرعد : ١١ .

المصيبة أننا - فى الشرق - نهتم بالوسائل والمظاهر أكثر مما نهتم بالروح والحقيقة ، والهدف والغاية ، والدعوة والرسالة ، فكانت النتيجة أن هذه الوسائل بدأت تتحكم فىنا ، وتملى ارادتها علينا بدلا من أن نتحكم فيها ، ونملك زمامها ونسيطر عليها ونوجهها الى حيث نشاء .

ان كثيرا من الشباب المثقفين ، وكثيرا من الموجهين والمفكرين ، والزعماء السياسيين ، يظنون أن هذه الوسائل المريحة هى الحضارة ، وأصبحت المقاييس تتغير حسب الاذواق ، فالحضارة عند البعض رفع مستوى المعيشة - أو بتعبير أصح - فندق كبير مزود بأحدث الأجهزة ، متوفر بكافة التسهيلات ، والحضارة عند البعض رحلات الى رومة ، وباريس ، وعند الآخرين تقليعات وموضات ، مع أن كل هذه الاشياء لا صلة لها بالحضارة ، انها أدوات فى أيدي المتحضرين ، خلقها الله سبحانه للبشر لينظر كيف يعملون ، قائلا فى كتابة المجيد « هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا(١) » وقال على لسان قوم موسى عليه السلام « وابيع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (٢) » .

وقد ثبت من هذا أن « الدعوة » الى التغير مع تغير الزمن دعوة غير علمية ، وغير مبنية على الاصاله والتعمق ، انها

(١) سورة الملك : ٣ .

(٢) سورة القصص : ٧٧ .

تبدو بريئة في أول أمرها ، ولكن سرعان ما ينكشف أمرها ويفتضح سرها ، انها تدل على أننا استوردنا هذه الفكرة من الغرب ضمن مشحوناتنا الاخرى من غير أن نفكر فيها .

فاذا كان السيارة تحمل المرء في لندن أو شكاغو السى صالة رقص أو حانة خمر . . . ظننا من شعور أو من غير شعور أن كل من يشتري هذه السيارة لا بد له أن يتوجه حيث ماتوجه اليه الانجليزى والامريكى .

وإذا كان التلفزيون في الغرب أداة للعبث الحرام ظننا أنه على كل من يصنع هذا التلفزيون أو يستورده أن يقدم نفس البرامج ، كأن السيارة لم تخلق الا ليتوجه الى البار ، وكأن التلفزيون لم يصنع الا للخلاعة والمجون ، وهذا ينطبق على سائر مرافق الحياة ، اننا لم نستورد الوسائل فحسب ، بل اننا استوردنا معها الغايات والمناهج ، والفكرة والروح ، والذوق ، وتلك هى الطاقة الكبرى ، والبليّة العظمى .

وهكذا حدث في التربية .

التربية فى جميع الأقطار أداة لتوجيه الشعب الى غايات معلومة ، واضحة المعالم ، ظاهرة الملامح ، فالتربية فى الدول الاشتراكية غير التربية فى الدول الغربية ، بل ان التربية فى أمريكا ، غير التربية فى انجلترا والتربية فى الصين الشيوعية غير التربية فى الاتحاد السوفيتى ، وذلك لأن لكل

دولة أغراضا ومصالح وأهدافا يسخر لها جميع أجهزة البلاد بما فيها التربية والرياضة ، والمسرح والسينما والاذاعة ، أما نحن في الشرق فقد نستورد هذه المناهج التربوية والكتب التربوية (بنقلها الى العربية) بجملتها ، مع أنها تعارض أهدافنا الاسلامية الواضحة ومثلنا العليا ومصالحنا الدينية كل المعارضة ، وتثير صراعا فكريا واضطرابا عقائديا بطبيعة الحال .

وكل هذا ناتج من هذا الوهم الخاطيء بأن الصناعة والنهضة المادية هي التي تغير ملامح المجتمع ، وتفتح آفاق الفكر ، وتمنح الافكار والنظريات الفاضلة ، واننا نحتاج الى أن نتغير ونتطور مع الزمن حتى لا نتخلف عن ركب «المتحضرين» ونتقى تهمة «الرجعيين» .

اننا مهما جمعنا من وسائل وأسباب - نحتاج الى أن نكون أكثر أصالة وتعمقا ، وأكثر ذكاءا وفراصة ، وأكبر صبورا وهدوءا ، في مواجهة هذا السيل المتدفق الفوار ، الذي ينهمر علينا من الغرب ، فنأخذ منه وندع ، ونترك ونختار ، نأخذ الآلات المجردة ، وندع الافكار اللاصقة ، نختار العلوم التطبيقية ونسخرها للرسالة العظيمة التي آمنا بها ، والدعوة التي حملناها .

اننا بذلك نقدم شيئا مهما خطيرا ، في مضمار العلم والثقافة للعالم المعاصر ، شيئا جديدا يسموا على هذه الأفكار والدعوات العصرية كلها ، ونصحح اتجاه الانسانية من جديد لتسير على درب مستقيم لزمان آخر طويل لا يعلمه الا الله .

المنهج الاسلامى للحكم

المنهج الاسلامى للحكم أو للسياسة والاجتماع لا يحتاج الى بحث وتدقيق، بمثل ما يحتاج الى تنفيذ وتطبيق، ولا يحتاج الى تصريحات واعلانات، ومؤتمرات واجتماعات، ودراسات ومناقشات، أكثر مما يحتاج الى اخلاص فى القول والعمل، وايمان راسخ عميق بالمبدأ، واقتناع واف كامل بسمو الهدف، ودافع قوى على الاقدام، ولاء صادق عملى بالاسلام وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

المنهج الاسلامى، منهج مستقل، منهج مختلف، منهج أصيل ليس بينه وبين المناهج الوضعية وجه شبه أو نسب، فبينما المناهج الاخرى أو الديانات السائدة الاخرى، تختلط مع الشعوب البشرية العامة فى سوق المادة والمعدة، وتجتمع معها على مائدة واحدة، وتتمتع معها بملذات الحياة المحرمة بحرية تامة، نرى الاسلام ينفصل عن هذه الشعوب المادية من أول الطريق، احتفاظاً بسماته وخصائصه، وغيره على دين الله واستمساكاً بالعروة الوثقى، وكراهية للمناهج الباطلة والدعوات المزورة الكاذبة، وذلك هو المراد بما جاء فى الحديث الشريف من مخالفة اليهود والنصارى والتشديد على النهى عن متابعتهم ولو فى الأمور العادية البسيطة « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١) » .

(١) سورة النور، الآية ١٥ .

ان هذه الأحكام الدقيقة التي نجدها في كتب الفقه الاسلامي عن الطهارة وآداب الأكل والشرب والدخول والاستئذان ، والكلام ، والحلق والقص والقصر ، ونحو ذلك من أمور قد تبدو أنها لا تتصل بالعقيدة والمبادئ هي نفسها أبلغ دليل على اتجاه الشريعة الاسلامية ونظرة الاسلام الشاملة المتكاملة الى الحياة ، فاذا لم يكن المراد أن يختلف المسلمون عن غيرهم على مسيرة التاريخ ودرج الحياة ، وينفصلوا عنهم لا في العقائد والمبادئ والنظريات العلمية والافكار الثقافية فحسب ، بل يختلفوا عنهم في كل شيء ، ما كانت الحاجة الى كل هذا « اليسار واليمين » في الأكل والشرب والقيام والعود وما كانت الدعوة الى « الوتر » في مثل هذه الامور ، وما كان الاقتضاء الى طريقة خاصة للطهارة والاقتصار عليها ، والاهتمام بالقبلة واحترامها حتى في غير العبادة .

ان أمثال هذه الأحكام والآداب والأمر ، - وهناك كثير غيرها - ليست بدافع الفضول ، أو بدافع التعصب والتزمت ، أو بدافع الحقد والمقت ، انها شرعت للامة الاسلامية بحكمة بليغة وحجة بالغة وهي الحفاظ على هذا المنهج الكريم ، المستقل الفريد ، الاخير الذي تتوقف عليه سعادة البشرية ، ليعيش المسلمون بين مواطنيهم من أبناء الديانات الاخرى أو المناهج السياسية والاجتماعية الاخرى ، كدعاة تتضح ملامحهم بالصدق وتشرق جباههم بنور الايمان وتمتلئ قلوبهم بالسكينه والتقوى « حنفاء لله غير مشركين به (١) » .

وهذا هو السر في الاعداء والتكرار ، والشرح والتفصيل في وصف المؤمنين في القرآن الكريم ، وعد خصائصهم وحسناتهم وفضائلهم ، والغرض من هذا كله أن لا يقع بصر أحد على مسلم حتى يعرفه بأنه مسلم ، يعرف ذلك عن وجهه وعن شمائله وعن طريقته وآدابه ، ولا يحتاج الى النظر في « هويته » أو « بطاقته » والاستفسار عن دينه وعقيدته .

هذه الغاية العظيمة الكريمة هي التي جعلت المنهج الاسلامي للحكم كمنهجه في سائر شئون الحياة والامور العامة منهجا مستقلا ، أصيلا يمشى على قدميه ، ويزاحم بمنكبيه ، وينظر بعينيه ، لافتا للانظار من غير تصريح وعلان ، ناطقا على جدارة الاسلام وخلود الاسلام من غير منطق وكلام ، ودعاية واعلام .

هذا المنهج لا يترك الحبل على غاربه ، ولا يسمح لاي ناحية من نواحي الحياة بأن تكون حرة لا قيد عليها ، بل انه يهيمن - وفق الغاية التي ذكرناها - على جهاز الحكم بأسره ، فاذا أردنا أن نختار المنهج الاسلامي للحكم ، وجب علينا أن نأخذه كله ، نأخذه جملة واحدة ، فلا يجوز لنا أن نأخذ منه ما ساغه الهوى ، أو اقتضته المصلحة ودعت اليه الحاجة بل نأخذه يحذا فيره وبرمته ، ونطبقه على نظام التربية ونظام الاقتصاد ونظام الصناعة .

أما في ناحية التربية فالمطلوب منا أن نضع من الثانوية

الى الجامعة جهازا جديدا لتربية النشء على الطراز الاسلامى ،
وأن نكفر بكل هذه المبادئ والنظريات التربوية والافكار
الجاهلية التى استوردناها من أعداء الاسلام ، كما نستورد
أقلام الحبر ، وهذا الصوغ الجديد ، لا أعنى به التغيير
الشكلى فى المواد المدرسية - رغم أهميتها - بل أريد به تطبيق
المنهج الاسلامى على كل جزء من أجزائه ، ولو كان عاديا بسيطا ،
الى أن يكون جهازنا التربوى كفيلا بتخريج شباب أكفاء ،
يبيضون وجه الاسلام ، ويعيدون مجد الاسلام ، وحتى يعترف
الاعداء بأن جهازنا التربوى فريد مستقل ، لا يستورد
ولا يقلد .

أما نظام الاقتصاد فهو بدوره يحتاج الى سبك آخر
جديد يخلصه من شرور الربا والقمار ، والعقود والمعاملات
التجارية التى لا يسمح بها الاسلام ، ثم انشاء حياة مثالية
ومجتمع مثالى لا يطغى عليه الاقتصاد ، ولا تطغى عليه المعدة
والمائدة ، والتكاثر والتنافس ، والسباق المذهل نحو أهداف
خيالية ، مثل « رفع مستوى المعيشة » .

ان نظامنا الاقتصادى له دخل كبير فى بث الوهن
والضعف ، فى جسم العالم الاسلامى ، فاذا قوم هذا النظام
بمقياس المنهج الاسلامى الصحيح زال هذا الضعف الطارئ
الدخيل ، وعاد كما كان سليما قويا بعيدا عن الشبح المفرط ،
والسمنة الزائدة ، وتحمرت البلاد من هذا التفاوت المالى بين
فئاتها المختلفة وأصبحت فى مأمن من عواقبه السيئة فى
المجتمع ومصير الدولة .

ويأتى دور الصناعة وهي ناحية مهمة فى حياتنا اليوم ، وأقل ما يقال عنها فى هذه السطور هو أن نفرق فيها بين صناعة لازمة ، وصناعة زائدة عن الحاجة ، وبين صناعة نقيمها فى بلادنا وصناعة نستوردها من الخارج ، وأن نركز أكثر قوتنا على ما يسمى APPLIED SCIENCE صناعة تطبيقية مجردة ، هذا النوع من الصناعة هو أنفع للعالم الاسلامى اليوم ، وفى كل هذا التمييز والتطور والتقدم والتأخر نحتاج الى مقياسنا العادل الصحيح ، المقياس الالهى الذى لا يخطئ ولا يتغير .

ذلك هو « المفتاح المفقود » أو ذلك هو المصباح الضائع مصباح علاء الدين ، الذى قرأنا قصته فى ألف ليلة وليلة ، المصباح الذى لا يغنى عنه ألف كتاب وخطاب ، وألف جامعة ومؤتمر .

ان هذا الباب المغلق بيننا وبين التاريخ لا يفتح أبدا ، ولو قدمنا اليه ألف دليل وعرضنا عليه ألف مذكرة ، وألف احتجاج ، انه لا يفتح الا بالاخلاص الكامل ، والتنفيذ الدقيق ، والتغيير العام الشامل فى جميع مرافق الحياة ، ومناهج الحكم ونواحي الاجتماع .

النظام الاسلامى فى معركة الافكار

اذا أردنا أن نواجه الانظمة السياسية المعاصرة بفاعلية أكثر ، وأن نكسب لذلك شبابا لا يميع ولا يذوب ، ولا يسالم الأعداء ، ولا يفتر فى النضال والكفاح ، والجهاد والفداء ، وجب علينا أن نستعمل قوة الاسلام الذاتية فى هذه المعركة ، فان الاسلام لم يأت الا لیسود ، ويحكم ، او يوجه ، وينتصر على الدعوات الاجتماعية والانظمة السياسية التى تزاحمه ، ثم يشق طريقه الى الامام معتمدا على قوته الذاتية ومنهجه الخاص فى السياسة .

هذه القوة الذاتية فى النظام الاسلامى تأوى الى ركنين . .
شديدين : أولهما : الثقة بالاسلام كمنهج الهى تتوقف عليه سعادة الانسان ، وثانيهما : كراهية الانظمة الباطلة (غربية كانت أم شرقية ، رأسمالية أو اشتراكية ، قومية أو علمانية ، شيوعية أو ماركسية) كراهية عقائدية طبيعية ، تمتزج بالنفسية والروح ، والعقل والعاطفة ، واللحم والدم ، وذلك على أساس أن هذه الانظمة تحول دون اقامة النظام الاسلامى ، وتطبيق منهجه ، وتنفيذ شريعته .

فالركن الاول (يعنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على

ما جاءت به الشريعة) يمنعنا من الانسياق مع التيارات الجاهلية ، ويحافظ على ايماننا وعقائدنا ، ولكنه لا يتقدم الى أكثر من ذلك ، والمعلوم أن الجمود لا يؤدي الا الى الزوال ، والمرء الذى يدافع عن نفسه فحسب تخور قواه وتنهار أعصابه فى النهاية حتى يستسلم للعدو ، ولذلك أردفه الاسلام بركن آخر يقوى أوله ويشد عضده ، وهو كراهية الانظمة الجاهلية ، بجميع ألوانها وأشكالها ، وفى جميع عصورها وأدوارها ، ومقت الذين تولوا كبرها ، وحملوا لواءها مقتا شديدا ، وبذل كل الجهد والوقت لاقصائهم عن مسرح القيادة حتى لا يستطيع شرمهم ، ولا ينتشر مذهبهم المادى ومنهجهم الحيوانى فى النوع الانسانى الذى أكرمه الله بالامانة والخلافة ، والنبوة والرسالة ، وشرفه بالايمان والعرفان والحب والحنان .

ان هذا المنهج الاسلامى لا تقتضى به استراتيجىة المعركة والعقل العملى فحسب ، بل انه من غايات الاسلام العظيمه التى نص عليها القرآن ، ولا يتكمل بغيرها الايمان - يقول الله تبارك وتعالى يصف المؤمنين : « والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » الآية (١)

ويقول :

« أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» (١) •

ويقول :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه » الآية (٢) •

ويقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا بآلوانكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر » (٣) •

ويقول :

« كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » (٤) •

وذلك لأن القرآن يريد أن يفرس هذه المعاني في قلوب

(١) المائدة : ٥٤ •

(٢) المجادلة : ٢٢ •

(٣) آل عمران : ١١٨ •

(٤) المتحنة : ٤ •

المؤمنين ويرسخها في أذهانهم حتى لا ينسوا دورهم العظيم
في هذه المعركة ، ولا يؤخذوا على غرة .

أما في الحديث الشريف فقد جاء صراحة :

من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الايمان ، أو كما
قال عليه الصلاة والسلام ، وأوجب على كل مسلم أن يجدد
هذه المعاني في كل عشاء ، فيقول في دعاء القنوت في صلاة
الوتر (وهو واجب لا يصح بدونه الصلاة) : « نخلع ونترك
من يفجرك » وهو أبلغ وأوضح في تنبيه الفكر وإيقاظ الشعور
وإثارة العاطفة .

وجاء في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان
سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه « ما رأيت صلى الله
عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، مالم ينتهك من
محارم الله تعالى شيء ، فاذا انتهك من محارم الله تعالى ، كان
من أشدهم غضبا » (١) .

وقد بات الامر بالعكس في هذا الزمان ، وظل المسلمون
لا يغارون على أنفسهم ، أو لا يغارون على شيء كما حدث أخيرا
وأصبح الاعتبار عندهم أكثر الاحيان بالاراضي والاطمان
لها بالكفر والايان .

(١) عن الحسن بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم (الشمانى

للترمذى) (٥)

وورد في آثار أخرى :

« ومن مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبه
من نفاق » (١) •

« وثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون
الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه
الا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه
كما يكره أن يقذف في النار (٢) »

و « من جاء مع المشرك وسكن معه فهو مثله » (٣) •

الى غير ذلك من آثار كثيرة في النهي عن التشبه بالكفار
والأمر بمخالفتهم ، لا في الافكار والمعتقدات فحسب ، بل
في الآداب الاجتماعية أيضا ، وليس الغرض منها الا أن يتميز
المعسكر الاسلامي عن المعسكر الجاهلي في كل شيء ، ويعرف
موقفه وخطه في معترك الأفكار أو في ميدان النضال •

وفي ذلك حكمة بالغة ورحمة شاملة ، فان هذه المخالفة
لا تمنع الكيان الاسلامي من التميع والذوبان فحسب ، بل
تثير في المسلمين كراهية شديدة لنظام الكفر ، والتمرد
والعصيان ، ورغبة ملحة في تغيير هذا النظام الفاسد ، اقتداء
بسنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم •

(١) صحيح مسلم - كتاب الجهاد •

(٢) متفق عليه •

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٢ •

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (١) وتدلنا على تلك البذور التي تبنذرها في قلوب المؤمنين نحو الجاهلية بأوسع معانيها ، وجميع أبطالها وممثلها .

« كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » (٢) .

فما دمنا لا نؤمن بقراره نفوسنا أن هذه الانظمة السياسية والاجتماعية تعارض اسلامنا على طول الخط ، وتترىص بنا الدوائر ، وتدبر لنا المؤامرات والدسائس ، وتنتهز كل فرصة للنيل من الاسلام ، والضرب على المسلمين ، سواء بالهجمات والغارات ، أو بالارساليات والبعثات ، والمعاهدات والاتفاقات .

ومادمنا لا نؤمن أن هذه الانظمة تعادى - أصلا - رسالة الله وشريعته الكاملة ، وتريد القضاء على من يدعو اليها ، وتعتبر الدعوة الى الله ألد أعدائها وأكبر عائق في سبيلها لا تحدث فينا قوة المقاومة وقوة الهجوم ، ورد فعل حاسم عنيف ينزل بنا حالا في الصفوف الامامية وخط النار .

(١) سورة الكهف ، الآية ٦ ﴿٥﴾

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

ان هذين الركنين بمثابة جناحين للصقر ، فاذا كسر منها جناح ، لم يقدر على الطيران ، وهذان الجناحان هما الحب في الله والبغض في الله ، فاذا استويا عند المؤمن طار بهما ولم يبال .

أما نظرية التقارب والتعايش والمسائلة التي يؤمن بها أو يتظاهر بها - في تعبير أصح - المتغربون والتقدميون ، فهي لا تستطيع أبدا أن تحل مشكلة التخلف والضعف والانحطاط ، وتنتصر في معركة الافكار ، وصراع الانظمة والحركات ، لانها لا تقدر - أساسا - على منع الموجات ، وصد التيارات ، ومواجهة العدو في أرضه ، وعقر داره ، واخزائه وتعريته ، وكشف القناع عن أخطاره ومكائده .

فاذا دخل هذا النوع من الشباب الأعزل في معركة الحياة لم يجد ما يدافع به عن نفسه ، فليس عنده ثقة بذاتية الاسلام ، يحافظ بها على دينه وثقافته ، وليس لديه كراهية ومقت لاعداء الله وأعداء الانسانية ينتصر بها على الباطل ، فيذوب في نظامهم بطبيعة الحال ، كما يذوب الملح في الماء ، وذلك بخلاف أهل ذلك النظام ، فانهم يؤمنون بذاتيتهم ويتعصبون لنظرياتهم ويتفجرون بغضا وعداءا للدعوة الاسلامية والمنهج الاسلامي في السياسة والتربية والحكم «قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر (١)»

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٨ .

فلا بد أن نوسع اطار كراهيتنا لهذا النظام الى حد يمنع ناشئتنا وشبابنا من تقليد هؤلاء « الببغاوات » و « الاقزام فى كل صغير وكبير ، وسواء فى قطاع الأفكار والمعتقدات ، أو فى قطاع المسليات والكماليات ، ونضع حدا على توريد البرامج الفنية ووسائل التربية ، وأسباب الترفيه والتسلية ، فكيف يسعنا أن نتكفف أعداءنا لاسباب تافهة زائدة عن حاجاتنا كالكماليات ، وأمور دقيقة حساسة كالتربية والاعلام ، وهم يترقبون للفتك بنا فى أى فرصة ، ويرقصون فرحا على هزيمتنا فى كل معركة .

ان نظام الاسلام السياسى لا يقوم على مجرد الدعوة ، ولا يقنع بالسلبية بل انه يبث فى أتباعه روح الكراهية والبغض نحو أئمة النفاق ، والضلال والكفر والالحاد ، ودعاة الاباحية والحيوانية ، والشذوذ والجنون « أم تحسب أن أكثرهم « يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام ، بل هم أضل سبيلا » (١) .

ولذلك نجد القرآن العظيم يكثر من ذكر لعن المؤمنين على أمثال هؤلاء بجانب لعنه ولعن الملائكة والانبياء .

والفرق الاساسى بين نظام الاسلام السياسى والأنظمة الأخرى أنه لا يقتنع بالقوة السياسية ولا يحسبها أكبر همه

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤ .

ومبلغ علمه ، ولا يريد مجرد الفوز في الانتخاب والوصول الى مقاعد البرلمان شأن الحركات السياسية وأحزاب اليمين واليسار ، « وأعداء الاستعمار » ، فان هؤلاء لا يمقتون الاستعمار أبدا ، انهم يطلبون وكالة الاستعمار ويطلبون حق التوزيع وحق التمثيل فحسب ، ولذلك تراهم يفرقون بين استعمار واستعمار ، فتارة يساومون هذا وتارة يساومون ذاك ، فالاعتبار عندهم بشروط العقد أو الوكالة ، وحاشا أن يفكروا في مقته وكراهته ، وكيف يمقتونه وقد استعمرت أرواحهم وعقولهم وأفكارهم ، وكيف يكرهونه أو يخاصمونه وقد أخذ منهم ميثاقا غليظا .

أما النظام السياسي في الاسلام ، فانه لا يعادى هذه الأنظمة ولا يصارع المذاهب السياسية والدعوات الجاهلية ليستمتع أهلها بالقيادة ومنافعها ، كما استمتع بها الذين من قبلهم ، ويخوضوا كالذين خاضوا ، ويسيروا على المسلك الذي سلكوه ، ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، بل يعادى هذه الأنظمة ويقاوم هذه الحركات في سائر المجالات والجبهات ، ويخالف أهلها من أول الطريق الى نهاية الشوط . ويمقت احتلالهم الأراضى الاسلامية كما يمقت احتلالهم العقول الاسلامية ويمقت احتلالهم أرواح الشباب وطاقاته قبل أن يمقت نهبهم ثروات البلد وخيراته .

فالذى يؤمن بهذه النظرية ، وبهذا المبدأ ، ويسير على هذا الخط يعتبر مرابطا على الثغر ، يقظا واعيا لكل خطر ، يصبر

على أذاه ، ويصبر على حرمانه من المنافع المادية ، ولكنه لا يصبر على انتهاك حرمت الله ، وتعدي حدوده ونقصان دينه ، وينطق بلسان حاله قبل أن ينطق بلسان مقاله «أينقص الدين وأنا حي ، (١) » .

ويخرج من هذا النظام أكثر قوة وأقوى صمودا ، وأعمق ايمانا ، وأشد غيرة وحماسا ، فلا تجد هذه الانظمة فيه منفذا تدخل به ، وثغرة تتسرب منها ، وضعفا تستغله ، بل تنعكس الآية ويقف النظام الجاهلي (بشقيه الغربي الشرقي) فى موقف الدفاع ويرى فى هذا المؤمن ونظامه الجديد حظرا على مكاسبه وانتصاراته وصولاته فى أرض الاسلام .

ان هذا التحول، تحول المعسكر الاسلامى من خط الدفاع الى خط الهجوم ، واندحار المعسكر الجاهلي الحديث من خط الهجوم الى خط الدفاع ، تحول عظيم ، وهو لا يمكن الا بتحقيق تلك المعانى والمبادئ وارساء نظامنا السياسى على هذين الركنين العظيمين والاستعانة بهذين الجناحين الكبيرين .

انه منهاج لا تقتضى به - كما قلت - استراتيجية المعركة والعقل العملى ، والتحول النفسى فحسب ، به انه فى ذات الوقت من غايات الاسلام العظيمة الكريمة ، التى نص عليها القرآن ، ولا يكمل بغيرها الايمان .

(١) كلمة خالدة باقية ، قالها سيدنا ابو بكر - رضى الله عنه - فى فتنة الردة المشهورة ، ففضى بها على هذه الفتنة .

عاهة الشيوعية

ان عداء الشيوعية للدين وحقدما الشديد الدفين للاسلام قضية معروفة لدى الجميع ، أما ذهابها بأمن الحياة ورخائها وسعادتها ونحسها على موارد البلاد وغناها، وزرعها وثمارها وعلى تجارة البلاد وانتاجها ، وكتبها حرية العمل ، وحرية الكفاح ، وحرية التصدير والتوريد ، وحرية الحياة العائلية والمنزلية وحياة المجتمع ، وانكارهم للمعاني النبيلة مثل حب الاطفال وصلة الرحم ومعاشرة الاخوان ، وفي اختصار العيش على هذه الكرة الارضية كانسان ، فان هذه القضية أو هذا الفصل الاسود الحالك من قصة التنازع الطبقي ، والصراع الحيوانى ، والاستبداد الحزبى ، فصل لم تعرفه البلاد « الغرة » ٠٠٠ « الساذجة » « الآمنة المطمئنة » التى لم تكتو بنارها، ولم تجرب حظها فى هذا «اليانصيب» ، ولا أسرد هذا اللفظ عفوا وجزافا ، فان كثيرا من الناس فى هذه البلاد يتسابقون ويتزاحمون على شراء هذه الآفة والعاهة ، كأنه خير كثير حرموا منه بينما سعد به الآخرون .

فهل هو خير كثير ، أم شر مستطير !؟

ان لنا جارة فى شرق البلاد يقال لها « بورما » وهو اسم معروف ، وعندكم جارات تبنت الشيوعية وافتخرت بها ،

ولا أسمىها ، أما « بورما » المسكينة المنكوبة بالماركسيين هؤلاء - الذين يستعملون أحيانا تعبير التقدمية والثورية والتحررية والعلمانية تقنعا وتسترا ، وتفاديا للصدام المكشوف ، وتغريرا بالشباب الفج - فأحكى لكم قصتها ، ومعذرة الى الثوريين الماركسيين فى درة الخليج التى يحلمون بها ويسيل عليها لعابهم ، والى الشيوعيين المستترين فى مراكز الاسلام وحصونه ومعاقله (وهم فيها أكثر تسترا وتحفظا ومراوغة ونفاقا بحكم الوضع والمنطق والطبيعة) فانها تفضحهم قليلا فى قارة الطريق . لقد كانت هناك تجارة زاهرة للمسلمين فى « بورما » ، واسهام كبير فى صناعة البلاد وبناء الوطن الى جانب خدمتهم للدين ، فتلاشى كل هذا مع انهيار اقتصاد البلاد كنتيجة طبيعية دائمة للثورة الشيوعية وأصبح البلد سجنا كبيرا يعيش فيه الجمهور ، الذى كان يهتف لهؤلاء عالة على فتات الحكم العسكرى الشيوعى وصدقاته ، واليكم اقتباسا مما نقلته « الديللى التلغراف اللندنية » .

كانت « رنجون » عاصمة «بورما» تعتبر من أجمل المدن الاسيوية فى يوم من الايام ، ولكنها فقدت اليوم كل جمالها وبهائها ، وكل أناقتها وروائها ، وأصبحت البنايات الشامخة نموذجا للقمامة والبلى ، أما النظافة فهى كلمة لا مدلول لها ، الأسواق والمحلات التجارية تغلق وتقف من المساء الباكر وتخلو الشوارع من الناس الا الشرذمة القليلة

التي تراها مصطفة أمام دور السينما لمشاهدة الافلام الاجنبية، كما يوجد بعض المشاة في الطرقات عابسين وجوههم وقد كانت هذه الوجوه يرسم عليها الابتسام في ماضى الايام ، انها صورة « بورما » اليوم بعد انتهاء عهد الجمهورية واحتلال عهد الاشتراكية محله .

ويصف المعلق السياسى الحالة الاقتصادية فى البلاد فيقول :

قد انتجت هذه السياسة قلة المواد الاستهلاكية بشكل فظيع ، وتوزع الحوائج الهامة فى محلات تجارية شعبية عن طريق شركة تجارية حكومية والاسعار مرتفعة جدا ، كما يحتاج فى شراء حوائج عادية الى انجاز اجراءات رسمية والذين يضطرون الى شراء هذه الحوائج من غير هذا الطريق ، توفيراً للوقت ، وتخلصاً من المآزق الرسمية ، ويلجأون الى السوق السوداء .

وبما أن الشيوعية فى « بورما » قد قضت على الاحزاب المعارضة، وأمت الصحافة التي تملكها الحكومة الآن، لا يمكن رفع صوت الاحتجاج على جميع هذه الولايات التي يعيش فيها الشعب البورمي، وقد واجه تصدير الرز تأثيراً سيئاً للغاية من قبل الاشتراكية الحديثة فى « بورما » اليوم ، وذلك ما تتركز عليه جل اقتصادية هذه البلاد . وقد كانت « بورما » قبل الحرب العالمية الاخيرة فى رأس قائمة البلدان التي تقوم

بتصدير الرز ، ولكن نسبة التصدير نقصت فيها حتى بلغت اليوم الى نصف ما كان عليه من قبل ، (١) .

هذا ما حدث بجارتنا ، أما ما ما حدث بجاراتكم ففى هذه الناحية بالذات فأرجو أن تتولوا الرد عنها ، وأخاف أن يكون نصيبها أكثر فى الحرمان والحريات المقيدة ، والحرمان المنتهكة ، والدم المهرق ، فضلا عن الانهيار الاقتصادى والتدهور الخلقى .

انظروا الى بعض البلاد العربية الجميلة المؤمنة الآمنة ، ثم تأملوا ماذا كانت وماذا صارت ، اسألوا مروجها الخضراء وحدائقها الغناء ، اسألوا أمطارها وأنهارها ، وثمراتها وغلاتها ، ونخيلها وأعناؤها ، لا تسألوا سوق العلم الذى كسد ، ودنيا القلب الذى خمد ، لا تسألوا حلقات الدرس ، وحلقات الذكر لا تسألوا الوجوه المشرقة بنور الايمان ، والشباب المؤمن ، الغض الطرىء فى الميدان ، فقد شوهتم هذا الوجه الحقيقى الجميل لبلادكم باسم البطون الحاوية والأجسام الضامرة ، باسم الفلاحين والعمال والطبقة الكادحة ، ولكن اسألوا التاجر ، والمعلم والطالب ، والموظف ، والفلاح والحارث

(١) ان مسلمى الهند متصلون ثقافيا ودينيا بمسلمى بورما ، وبينهم صلات وأواصر ، ولهم معلومات عنها بمصادرهم الخاصة فجاء هذا التقرير الأجنبى مطابقا تمام المطابقة بما كانوا يعرفونه ، بل انه لم يصور فظاعة الموقف ، واخفاق الاشتراكية فى هذه البلاد كل التصوير .

هل هو يعرف لذة الحياة ؟ ومعنى الكرامة ؟ ويذوق طعم الحرية والامن العاطفي ؟ هل لا تزال الثمار والحبوب ، والغلات والمحصولات ، تزخر ، وتفيض ، وتتوفر ، كما كانت تتوفر قبل اعصار الشيوعية ولفحاتها ، « فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت » (١) وهل هذه النار شيء آخر غير الجحود والكفران ، والكفر بعد الايمان ، وهل ينعم ابن البلد بخيرات بلده وثمرات سعيه وجهده ، وبركات أرضه وسماؤه ، كما كان ينعم بها قبل دخول الشيوعية ، أو قبل ذاك بكثير في عصور العلم والايمان ، والدعوة والجهاد ، والصدق والاخلاص ويقر بها عينا ؟؟

هل هو يأوى الى فراشه ناعم البال قرير العين ، راضيا مرتاحا ، آمنا مطمئنا ، بين زوجته الوفية وأولاده البارين ، لا يخاف على نفسه من طارق يطلب بطاقة الجنسية والهوية ، أو شبوح يطارده في المنام في صورة مخابرات وبوليس وحكام ، أو رايات حمراء ترفرف - لا قدر الله - على بلاد الاسلام .

ان وطأة الشيوعية أشد وأنكى وأثقل على الذين يطلبون الرخاء والامن والاستقرار لبلادهم ، وهم فيه مخلصون ، من الذين يحرصون على دينهم وايمانهم ، وهم به راضون مرتاحون

(١) سورة البقرة ، ٢٦٦ .

فان نار الشيوعية لا تمس هذه القلوب المؤمنة السليمة
الصادقة ، ولكنها تحرق ظاهر الارض ، انها تحرق فقط
اموالا يكسبونها ومساكن يرضونها وتجارة يخشون كسادها ،
فاحذروا منها بدافع الاقتصاد ومصلحة المعيشة والرزق اذا لم
يرق في عيونكم دافع الدين ، ولم يهكم امر الاسلام والمسلمين

العالم الاسلامى يبحث عن شخصيته

للمعسكر الغربى الرأسمالى شخصية دينية وسياسية واجتماعية يعرفها الجميع ، وللمعسكر الروسى شخصية أخرى مميزة واضحة الاهداف والمعالم ، وللمعسكر الصينى الشعبى شخصية ثالثة يخاف منها المعسكران ، فهل للمعسكر الاسلامى أو للعالم الاسلامى شخصية دينية وسياسية واجتماعية ، يعرفها الجميع ؟ شخصية واضحة الاهداف والمعالم ، بارزة الشعارات والشارات ؟ كلا ! فالامر عندنا يختلف عن هذه المعسكرات المتنافسة ، والكتلات المعاصرة كل الاختلاف ؟ فان شخصيتنا فى الوقت الحاضر شخصية موزعة مبعثرة فيها شركاء متشاكسون ، شخصية مائعة تميل تارة الى هذا وتارة الى ذاك ، لا تتمسك بدينها فتنصر ، ولا تنساق مع الغرب المادى كل الانسياق فتطمئن ، لا تقتنع بما عندها من عقيدة وايمان ، ومنهج وسلوك كل الاقتناع ، ولا ترضى بما عند المعسكرات الأخرى من كفر والحاد ، وعبث وفساد وكل الرضا ، وتحاول التوفيق بين تراثها القديم وبين العالم الجديد ، من غير أن تثق بالاول كبير ثقة ، أو تعرف الآخر عميق معرفة ، فتجمع بذلك بين جهلين ، جهل بتراثها ، وجهل بعالمها ،

ولو قدرت دينها ، وعقيدتها وتراثها حق القدر ، وعرفت
عالمها المعاصر بمشكلاته وأزماته ، وفقره وافلاسه ، وبؤسه
وحرمانه كل المعرفة ، لفازت بالحسنين ، فالحكمة ضالة
المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها .

وأصبح مبلغ هذه الشخصية الاسلامية من رسالتها
السامية وعلمها النافع للانسانية ، الهادى للبشرية ، كلمات
فى كتاب أو هتافات فى خطاب ، أو تسيبحات بين المنبر
والمحراب ، أما خارج هذه النواحي الثلاث فلا تجد هناك
الا شخصية فرنسية أو ايطالية أو صينية .

شخصية واعظ دينى ، ومصلح اجتماعى اذ رأيتها على
المنبر ، وشخصية تاجر ايطالى أو خير هولندى اذ رأيتها فى
البيت أو المكتب أو الديوان .

لا تؤخذونى أيها السادة فهى قصة المسلمين جميعا ، سواء
كانوا فى باكستان ، أو تركيا أو المغرب الاسلامى ، فالعلماء -
رحمهم الله - لهم شخصية مزدوجة ، شخصية الخطيب حين
يصعد المنبر ، وشخصية الموظف حين يقبض الراتب ، والساسة
لهم شخصية مزدوجة شخصية ابن البلد والمواطن الاول
والمناضل البطل حين يواجه الجماهير بكلام فارغ ، وشخصية
السياسى الشاطر حين يساوم فى عرض البلد وكرامة الوطن ،
بل يبيع بلاده أحيانا فى المزاد العلنى ، والتجار لهم شخصية
مزدوجة شخصية الرجل الوادع الرقيق القلب ، وطنى النزعة ،

اسلامى العاطفة ، حين يمد يده باكياس الجنيهاات لبناء المساجد والرباطات ، وشخصية التاجر القاسى الذى لا يبالى بشيوع الحمر بين الفتيات • أو ازدياد عدد المدمنين والمدمنات ، وتخبط الشباب فى حيرة البطالة والسامة والضياع ، اذا كان ذلك باعثا على تضخم ميزانيته ، وازدياد وارده وصادره •

ان شخصيتنا شخصية مستعارة ، استوردناها من الغرب كما استوردنا الغسالات والادوات المنزلية ، وهى شخصية ملونة تجمع بين المزاج الفرنسى ، والطابع الامريكى ، والسمة الانجليزية ، والسلوك الروسى ، وطغت هذه الانواع والالوان على لونه الاسلامى ، وقضت عليه فى بعض الأحيان •

فما هى هذه الشخصية الاسلامية ؟ لندع الحكم فى هذا الأمر للقرآن حتى لا يكون هذا الأمر مثار شبهة أو موضوع مناقشة وجدال •

« وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (سورة الزمر)

أنظر كيف يبت القرآن فى هذه المشكلة بالقول الفصل والحق الواضح المبين «رجلا سلما لرجل »

اذا فتلك هى سمة الشخصية الاسلامية ، وطابعها البارز الشاخص الحى ، الذى تكاد تلمسه بالبتان قبل أن تحسه

بالوجدان ، وما أروع البيان وأبلغ التشبيه حين تبدو حقيقة نابضة يراها كل واحد ، ولو لم يبلغ رتبة العلماء .

ويشرح القرآن هذه الناحية في موضع آخر ، فكأنه يفسر الآية المذكورة تفسيرا ، ويزيد الاجمال ايضاحا وبيانا .
« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » (سورة البقرة) .

والآن انحلت العقدة ، وتذلت العقبة ، وظهرت المعجزة تملئ ارادتها على من يؤمن ومن لا يؤمن !

الشخصية الاسلامية اذا شخصية أصيلة ، مستقلة الخيال والوجدان والعمل والتنفيذ ، تؤثر ولا تتأثر ، تغلب ولا تغلب تعلق ولا يعلى عليها .

اذا تقلدها أحد تقلدها لآخر أيام حياته ، بل لآخر ساعاته وأنفاسه ، اذا قسنا باعتبار الزمان ، وتقلدها في بيته ، ومنزله وديوانه ومتجره ، وعرشه وتاجه ، وراثسته وفخامته اذا قسنا باعتبار المكان .

فهي شخصية واحدة متميزة تجدها متحمسة نشيطة في السوق أو النادي كما تجدها قائمة راکعة في زاوية من زوايا المسجد ، أو ساجدة خاشعة تحت جناح الليل ، وأنظر ما كان جواب القوم حين سألهم هرقل ، وقد دهش بانتصارات المسلمين المتتابعة عن سيرتهم وأخلاقهم ، فقد قالوا : انهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار .

شخصية اختلفت ميادينها وصورها وأشكالها ، واتحدت
نيتها ، وحقيقتها وغاياتها وأهدافها ، فالعاطفة التي تحثها على
النضال والقتال في أطراف النهار هي نفس العاطفة التي تحثها
على الدعاء والمناجاة ، والتضرع والابتهال ، آناء الليل .

والعاطفة التي تحثها على الاعداد الصناعي والتنظيم
الحربي والاستعانة بالتكنية والعلم هي نفس العاطفة التي
تحثها على اصلاح ما بينه وبين ربه ، فهي غاية الغايات ، وسر
الوجود ، وأصل الحياة .

انها ليست شخصية المعتكف في المسجد ، القانع بما
عنده وعند غيره من متاع الدين والعلم والتقوى ، الجاهل
بتيار الحياة وسيلها العنيف وأمواجها الزاخرة الهادرة ، انها
شخصية العالم والمجاهد ، والعابد الزاهد ، والبطل والفارس ،
والحاكم والمسئول ، والقائد والمعلم ، الزاهد فيما عند الناس
من متاع ، والحريص على الهداية والتقوى ، فاذا توجه الى
أسباب التجارة ووسائل الحياة النافعة - لا الاستقرائية
الضارة - لم يتوجه اليها الا بدافع الدين ، ومصالحة الاسلام
والمسلمين ، كما توجه اليها عدد من أغنياء الصحابة ، فكانوا
سبب قوة الاسلام وشوكته .

اننا لا ندعوا الى هجر مرافق الحياة أو ترك استعمالها
فلا تزال الحاجة ماسة الى العناية الزائدة ببعض نواحيها
الهامة ، ولا نعارض الأخذ بالأسباب ، فنصيبنا فيه ضئيل

حقير لا يفي لحاجات الزمن المتطورة ووسائله المتغيرة ، وانما ندعو الى تكوين شخصية اسلامية قوية بارزة تتجلى فى دوائر الحكم كما تتجلى فى دور العبادة ، تتجلى فى البرلمان ، كما تتجلى فى المسجد ، وتتجلى فى اوساط التربية وأجهزة الاعلام كما تتجلى فى كلام الواعظين ، وجهاد المصلحين وجهود الدعاة والعاملين .

وحيثذ يكون العالم الاسلامى كله كتلة واحدة ذات شخصية اسلامية مستقلة ، لا يصنع مؤسسة ، ولا يقيم ادارة ، ولا يقف موقفا الا وهو وفى بمبدئه ، حريص على شخصيته ، محافظ على سماته وملامحه ، متمسك بأهدافه وغاياته ، مسلم فى السلم والحرب ، مسلم فى الغنى والفقر ، مسلم فى الحكم والادارة ، مسلم فى الاعلام والتربية ، مسلم فى الصناعة والعلم ، مسلم فى السياحة والفن .

مراجعة الحساب

لا ينقصنا المال فعندنا منه سيول داخل الصحراء ، ولا ينقصنا الدم فعندنا شباب غض الاهداب يكاد يتفجر دما ، ولا ينقصنا السلاح ، فالأسواق مفتوحة ما دامت الأيدي طويلة والجيوب مليئة، ولا ينقصنا الحضارة والمدنية والثقافة ما دامت أسبابها متوفرة بل فائضة عن حاجتنا .

ولا ينقصنا العروش والتيجان وأنواع الحكم وألوان الجاه والسلطان .

ولا ينقصنا الفنيون والمهندسون والمدرسون والمبعوثون، والدعاة والمرشدون ، ففي مصر وحدها من تلك الأنواع جنود مجندة تصدر كل عام الى البلاد العربية والافريقية المجاورة .

فما هذا الشيء الذى ينقصنا دائما ؟

انما ينقصنا فقط الشعور بفداحة الخسارة وعظم الكارثة والتألم الحقيقى على ضعف المسلمين فى هذا الحين ، وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس .

فهو العامل الوحيد الذى لا يعوض بشيء ، لا بالمال ولا بالعلم ، ولا بالسلاح ، ولا بالذكاء والدهاء ، ان هذه المؤهلات

العلمية والفنية قد تعوض بعضها البعض ، وقد تسد احدهما فراغ الأخرى حين من الدهر ، أما اذا لم نشعر بالحسارة مطلقا ولم نتألم لها بتاتا ، أما اذا لم تتوجع قلوبنا على مصيبة العالم الاسلامي كتوجع المرء الذي أهين في قارعة الطريق ، أما اذا لم تستحى ضمائرنا وأحاسيسنا رغم شماتة الأعداء ، ونكاتهم اللاذعة ، وسخرية الأجانب في الصحف العالمية وهوان أبنائنا وشبابنا في العواصم الغربية ، فان هذا الذهب الفائض في داخل الأرض ، وان هذه الألوان الزاهية البراقة من الحضارة ، وان هذه الأسلحة الحديثة المستوردة من الغرب والشرق ، لا تنفعنا شيئا ، ولو جمعنا بين معونات الكتل السياسية كلها !

اذا قمت بجولة قصيرة بين العواصم العربية الاسلامية اليوم وتجولت في أسواقها العامرة ، وشوارعها المزدهمة ، ورأيت صورتها في الليل ، وجدتها كاملة العدة والعتاد ، كاملة الزينات والمباهج والملذات ، فيها العلم ، فيها الشباب ، وفيها المال ، وفيها الفن ، وعندها المقدسات ، والمشاعر ، والشعائر ، بل عندها الحرم ، وعندها زمزم ، ولكن ينقصها مع كل هذا الذي ذكرناه - ولا مؤاخذة - ذلك الشعور المفقود المطلوب بجراحها وآلامها ، جراحات القلب والروح وآلام الوجدان والضمير .

فما هو الحل ، وأين الطريق ؟

الحل أن « نكهرب هذه الطاقات الحامدة ، الجامدة التي لا روح فيها ولا حياة ، ان هذه القوى والطاقات ، والمواهب والمؤهلات والوسائل والأدوات ، كأسلاك الكهرباء ، فكيف ترى اذا عيننا بالأسلاك ونسينا الكهرباء . »

اننا بوسائلنا الحاضرة نستطيع أن نحقق ما لم يكن بالحسبان اننا بوسائلنا القصيرة التي نزيد بها ونستزيد بها نستطيع أن نصنع المعجزات ونأتى بما يدهش له العقول وتتحير فيه الألباب ، ولكن بالوسائل الحية، الوسائل النابضة المتحركة ، الوسائل « المكهربة » .

ان مواردنا ووسائلنا كثيرة متوفرة يفيض بها العالم الاسلامي كله ، فهنا مال ، وهنا أيد عاملة ، وهنا قرائح ، وهناك علوم ، وهنا عدد ، وهناك ذكاء ، ولكنها مع ذلك لا تؤدي وظيفتها ولا تلعب دورها ، ولا تنفع بلادها وأهلها ، وقد يبدو للرائي أن سببه التفرقة والانقسام ، والوحدة تستطيع - اذا تحققت - أن تحل هذه المشكلة !

وذلك خطأ كبير ، أضلنا أعواما طويلا في متاهة الحيرة والفوضى الفكرية .

فالوحدة هي أيضا لا تتحقق ، ولا تخرج الى حيز الوجود من غير هذا الكهرباء ، من غير هذا العامل الأساسي الوحيد

الذى ذكرنا ، وهو الشعور بفداحة الخطب ، ووخز الضمير ،
وتألم القلب :

والوحدة التى تقوم على أسس صناعية أو خيالية أو على
أغراض سياسية ، ولا يكون وراءها رصيد من تلك الطاقة
المكهربة أو الطاقة المولدة لن تدوم طويلا وتذهب حيث ذهبت
الوحدات السابقة ، لأنها وحدات ساقطة أو وحدات ميتة ،
أو وحدات عرجاء أو وحدات ذات أرجل خشبية لا تستطيع أن
تقوم ، وإذا قامت حيناً ، فلن تستطيع أن تدوم .

فانشروا هذا الشعور بالألم فى بلادكم كما تنشرون
فيها العلم ، ولقنوا أولادكم هذا القلق والتوجع ، والوعى
بالمصيبة العامة والحسارة الكبرى ، كما تلقنونهم مبادئ
الدراسة الأولية فى الروضة والثانوية .

لا ترفهوا عنهم بالبرامج الراقصة المضحكة ، المسلية
السارة ، بل دعوا قلوبهم يعتصرها الألم ، ويخزها الضمير
الجريح ، لقنوهم أنهم أصيبوا فى دينهم ، وشرفهم ، وشبابهم ،
ورجولتهم ، وعليهم أن يغسلوا عن جيلهم هذا العار ، ويعدوا
نفوسهم الأبية للثأر ، والانتصار !

ازرعوا هذه الحبوب الكريمة ، حبوب الغيرة والحياء فى
ترابكم ، واعكفوا على سقيها وريها ، كما تعكفون على حقائق
النخيل والأعنان ، واحفظوا غراسها من كل طارئ ودخيل

وغاصب وناهب ، حتى يستوى على سوقه ، يعجب به الزراع
ليغيظ بهم الكفار !

ان الأفلام ، والصور . والغراميات ، والأغنيات ، سموم
تحرق هذه الرياض والبراعم والزهور ، ولفحات نارية
ستأكلها وتأتى عليها ، وتحيط كل ما صنعناه بعرق الجبين
وكد اليمين فى لمحات وساعات ، قولوا لهم أن يصبروا عن
بعض متعتهم - رغم قدرتهم عليها - حين من الزمن ليجنوا
ثماره الحلوة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، زمنا طويلا وعمرا
مديدا .

دعوهم يتألموا من غير نياحة أو بكاء ، ومن غير يأس
وتواكل ، دعوهم يذوقوا مرارة الخسارة ، ويطلعوا على عمقها
ومساحتها ليعرفوا عظم المسئولية ، ودقة الموقف ، وخطورة
الأوضاع ، ويطلعوا على ما هم مقبلون عليه من ثغرات وفجوات
يملاؤها وفساد شامل كبير يصلحونه ، وزجاج منكسر يلمون
شعثه ، وعصبية جاهلية يقضون عليها ، ووحمات عاز
يغسلونها ، ووجه شاحب كثيب للمسلمين يبيضونه ، ومجد
سليب للاسلام يستردونه .

ان مثل هذه المسئولية لا يمكن أداؤها بالعيشة التى
يعيشها أبناؤنا فى عواصم العالم الاسلامى ، ومعاق العالم
العربى .

ان هذا لا يمكن بتزيين الشبهوات أمامهم بمختلف
صورها وأساليبها ، وأقسامها وفنونها .

انها لا يمكن باللهو البريء واللهو المباح ، فكيف باللهو
الحرام ؟

انها لا يمكن مع الدعابة والفكاهة والهزل ، وحوار
المخرجين الفكاهيين الكوميديين ، فكيف يمكن مع خلع العذار
والخروج على آداب الحشمة والوقار ؟

فالجد لا يقتضى الا الجدد ، وما رأيك فى رجل يداعب أهله
أو يشتغل بالشعر والأدب ، ويحكى الملاح والنوادر ، وهو
فى غمار الحرب ، أو على رأسه سوط الجلاد ، لا بل انه لا
يشتغل بمثل هذه الأمور ، اذا تألم أو توجع على شىء خيالى
قد لا يعود عليه بضرر أو نفع ، تلك هى سنة الحياة وطبيعة
الأحياء .

فلنقف عندها ، ولنراجع حساباتنا ، ولنكشف أوراقنا
حتى نعلم ما صنعناه أمس بجيلنا ، وبلادنا ، وأمتنا ، وديننا ،
وتاريخنا ، وما نحن به غدا فاعلون ؟

الدرس الأول من حرب رمضان

الفارق بين حرب حزيران وحرب رمضان كبير !
انه فارق بارز تراه بالعيان بل تكاد تلمسه بالبنان ،
انه لا يخفى على الحاقد الأعمى فضلا عن البصير الواعى .
هذا الفارق يتخلص فى ثلاثة جوانب :

- ١ - تصحيح الشعارات والأهداف أو تصحيح
المسيرة .
 - ٢ - الروح المعنوية العالية فى الشعب والقوات
المسلحة .
 - ٣ - لذة الثأر والحرص على غسل العار .
ولنقارن - مليا بين معركتين حتى نتوصل الى نتائج
صحيحة بعيدة عن الخطأ والانحراف .
- كانت الشعارات فى حرب حزيران « شعارات جاهلية »
اذا توخينا الايجاز ، أو « فرعونية » اذا وضعنا النقط على
الحروف ووضعنا أصابعنا وبصماتنا على موضع التهمة ونقطة
الداء .

والقصة معلومة لا تحتاج الى اعادة وتكرار ، وقد بدأ حتى بعض الكتاب الثوريين والتقدميين والاشتراكيين يعترفون بذلك بمراى من العالم ومسمع .

أما فى الحرب الأخيرة فقد تغيرت تلك الشعارات والأهداف والهنافات الى حد كبير ، أو تخففت حدتها ، وزالت هيبتها وسلطانها من نفوس الشباب والزعماء والقادة ، والعمال والفلاحين ، وقل استعمال المصطلحات الثورية ، بل هجرها بعض الكتاب واشمأزوا منها ، وحلت الذخيرة الحية محل ذخيرة الكلام ، وغلبت الرزانة ، والتفكير ، والإيجابية على الارتجالية ، والتهور ، والطيش ، الذى اتسم به العهد البائد المظلم .

• وكان الفرق بارزا هائلا فى الروح المعنوية .

فبينما كان الجندى يحارب فى حيزران بروح باردة من غير عاطفة أو حماس ، وكانت القيادة الحربية غارقة الى آذانها فى اللهو والترف ، ومناورات العزل والنصب ، والقتل والاعدام ، أو نائمة تغط فى نوم عميق لم تدرك أمرها ، ولم تتبين رشدها الا فى « ضحى الغد » (١) حين سطعت الشمس على خيانة سافرة ، وأمة مهزولة ، ورؤوس منكسة ، وعيون تستحى من مواجهة أجنبى وضحكة فى وجه مائة مليون عربى

(١) قالها حديد بن الصمة :

أمرتهم امرى بمنعرج اللوى فلم يستبينو الرشد الا ضحى الغد

تقابل دولة صغير مساحتها أقل من مساحة مصر بنسبة واحدا
فى الأربعين (١) وعدد سكانها أقل من سكان القاهرة ، أما فى
جهاد رمضان فقد أثبت الجندى العربى والجندى المصرى
والسورى بوجه أخص بطولته الفئدة وتجرده عن الهيبة
والرعب ، وصموده أمام العدو ، وثقته بالله ، وحنينه الى
النصر ، أو الى الشهادة ، قد غمرت قلبه لذة الثأر ، ودفعته
روح الانتقام الى بذل المهج والأرواح ، وكانت النتيجة أنه
استرد شرفه المفقود ، وكرامته الضائعة ، ولو لم يسترد
أراضيه المفضوبة وحقوقه المهضومة كاملة .

والسؤال الضخم البارز الذى يحمل ألف استفهام :

لماذا وقف هذا الانتصار الرائع الذى أحرزته القوات
العربية المؤمنة فى « سيناء » و « الجولان » عند هذا الحد ،
وكيف تدخلت فيه أبعاد أخرى عكرت نشوة الانتصار بعد ما
طابت ولذت ، وأفسدت ساعة النصر بعد ما حلت وصفت ،
والجواب بسيط :

« على قدر أهل العزم تأتي العزائم » .

ان هذا النصر العسكرى جاء بحساب المد الايمانى ،
ان الرواسب التى ورثناها من زعمائنا « الذين أغرقونا فى

(١) مساحة اسرائيل نحو ثمانية آلاف ميل مربع ، أما مساحة مصر فهى

أكثر من ثلث مليون ميل مربع .

الحزى ظلما وعدوانا « (١) - رواسب القومية العلمانية والاشتراكية والثورية هي التي أفسدت علينا هذا الفتح المبين والنصر الرائع القريب ، اننا لم نتطهر بعد (رغم كل ما نادينا به من تصحيح المسيرة ، والمتغيرات النفسية ، والحوار المفتوح) من علائق هذا « التراث المشئوم » - ولا مؤاخذة - وشوائبه وأكداره وأقداره ، اننا حررنا أنفسنا من بعض ضغوطه أو سمومه ولا شك ، ولكن لم نحرر نفوسنا كلياً من سيطرته ، ونفوذ ، وفتنته .

وصوت القرآن يهتف بنا منذ زمان :

« يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » (٢) .

ان وحدة العرب الرائعة التي كسبت اعجاب العالم كله في هذا الوقت العصيب ، وسلاح البترول الذي كان أقوى وأمضى أكثر من المأمول (وقد كان للدول المصدرة للبترول والسعودية بوجه خاص في هذا المضمار موقف شجاع حكيم يشكر ويذكر) حقائق مكشوفة قد تراها رأى العين ، وقد تنوه بها عن حق ، ولكن هناك - رغم كل ذلك - حقيقة غيبية أخرى فوق سائر هذه الحقائق والاعتبارات ، والقوى والطاقات وتقلبات الهزيمة والنصر ، والمد والجزر ، وتقديرات الخبراء

(١) من تعبير أنيس منصور في جريدة « الشباب العربي » بالقاهرة .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٠٨ .

والعسكريين ، ودسائس المتآمرين الحاقدين ، و صلف
المتكبرين والمغرورين •

انها ارداة الله ، وهى مع المؤمنين الصادقين الصابرين
الذين آمنوا بالله وحده ، وكفروا بالجاهلية القديمة والحديثة
بجميع أنواعها ، وألوانها ، وضروبها ، توكلوا على الله فقطعوا
رجاءهم عن أعداء الله رغم ما تربطهم بهم من صلوات وحاجات
ومصالح ، (والدنيا كلها حاجة وسؤال وعليها أساس
العمران) •

ونحن نرجو أن هذا النصر ستليه - ان شاء الله -
انتصارات أخرى فى سائر المجالات العسكرية والاقتصادية
اذا استقمنا على طريقة الايمان ، والرجوع الى الله ، والاقلاع
عن المعاصى ، والبراءة من كل حول وطول ، والابتعاد عن
الشعارات القديمة التى كانت سبب نكبتنا وذلتننا فى حزيران
عام ١٩٦٧ م •

لقد رجعنا الى الله شبرا ، وأعرضنا عما يسخطه ويجلب
غضبه قليلا ، وأقبلنا اليه نستمد منه العون فى الشدة
والضراء وحين البأس ، وحاربنا بغيره الايمان وعاطفة الايمان ،
وحب الموت ، وكراهية الحياة ، فمنحنا الله ذلك النصر ، وأكرمنا
بالعزة ورفع درجتنا بالشهادة ورفع ذكرنا فى العالم بعد ما
أسأنا الى سمعتنا ولوثنا كرامتنا بأيدينا ، وجلبنا سخط الله
بأفواهنا ، وبنيء كلامنا ، وغرورنا وتبجحنا وسفاهتنا •

فالدرس الأول من حرب رمضان أن نحرر أنفسنا
بصورة قاطعة وجملّة واحدة من أسباب الخذلان وشعاراته ،
وعلائقه وشوائبه ورواسبه ومخلفات فكره ، ونظهر نفوس
أبنائنا وبناتنا منها كما يظهر أجدنا ثيابه من الوسخ
والدنس .

لماذا هذا الاستحياء ولماذا هذا الاحجام يا قوم والى متى !
ان الله معكم ، والشعب العربي المسلم من ورائكم ، والمسلمون
كله جنودكم ، فسيروا على بركة الله وعلى هدى من القرآن
« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ،
وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف اليكم ، وأنتم لا
تظلمون » (١) .

نعم ، ان مجرد الايمان السلبي لا يكفى أبدا .

فلا بد معه من رفض للأوثان الظاهرة والباطنة ، أوثان
الشخصيات والشعارات والضلالات ، ولو راقت الأسماء
وحسنت الواجهات !

ان الاسلام الخليط مع الجاهلية أو الخليط مع الظلم أو
الخليط مع النفاق والشقاق لا يستطيع أن يغير فى الوضع قيد

(١) سورة الأنفال . آية ٦١ .

أنملة ، فقد قال الله تبارك وتعالى يصف هذا الطراز الرفيع من المؤمنين ، الذين أخلصوا دينهم لله ، ويضمن لهم الأمن والايامن والسلامة والاسلام .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (١) .

وبعد هذا الاسلام الخالص ، الاسلام الكامل ، الاسلام القوى ، الاسلام النقى ، الاسلام الحى ، الذى يمشى على قدميه ، ويدفع براحتيه سوف نحتاج الى « تصنيع » تصنيع كامل عام فى سائر المجالات الحربية ، « الممكنة » وقد يقول قائل : هذا محال ، فالحرب حرب العلم ، والغرب متفوق علينا فى هذا المضمار قرونا طويلة ، فكيف نستطيع أن نلاحقه فى سنين وأعوام .

والقرآن قد سهل لنا هذه المهمة الصعبة أيضا بقوله « ما استطعتم » فلم يبق عندنا مجال للعذر ، وموضع للشك والتأويل ، والمكابرة والجدال .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الآية .

ان مثلنا فى هذا كمثل طفل صغير بدأ يحبو ، ويحثو

(١) سورة الانعام . آية ٨٢ .

على ركبتيه ، فيحمله الأب أو تحمله الأم على المشى على رجليه وهو غير قادر عليه ، فيحاول الطفل أن يمشى وتتعرش خطاه ، فيدركه الأب ويمسك بيده بل يضمه الى صدره حبا وحنانا ، ويباركه على أنه فاز في الامتحان ، ومشى كما يمشى الرجال ، فيظن الوالد انه فاز في الامتحان ، ومشى كما يمشى الرجال ، فيظن الولد أنه بدأ يمشى فعلا ، وهكذا أمر هذه الأمة بالنسبة الى ربها ، فلا يكلف الله نفسا الا وسعها ، انه يريد منها فقط أن لا تقصر في الواجب ، ولا تتهاون في العمل ، ولا تدخر وسعا فيما قدرت عليه ، نعم ، انها لا تستطيع الآن أن تصنع المعدات الحربية المعقدة والألكترونية ولكن من منعها من أن تصنع البندقية ، والقنبلة ، والمدفع ، والطائرة ، والدبابة ، وهي ليست في تلك الدرجة من التعقيد ، انما هي تحتاج الى وضع خطة حكيمة مدروسة وسهر وصبر لمدة أيام عن بعض ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، أو في تعبير آخر ، هذا المستوى الرفيع من الحياة ، وأعتقد أن ذلك ليس فوق طاقة بشر ، ولا يخرج عن حدود الامكان ، بل ان الأمة المسلمة مكلفة بها أصلا وراسا وأساسا ، فلا تستطيع أن تتهرب من هذه المسئولية والايثار والتضحية و« الصناعة الحربية » بأي حال من الأحوال (١) .

(١) عن علي رضي الله عنه قال : كانت بيدرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوس عربية ، فرأى رجلا بيده قوس فارسية ، قال : ما هذه ، القها ، وعليكم بهذه واشباهاها ، ورماع إقنا فانها يؤيد الله لكم بها في

ان أبطالنا المغاوير وصناديدنا المشاهير في تاريخ
الاسلام ، حاربوا أعداء كانوا أكثر منهم جمعا وسلاحا ،
وعدة وعتادا ، فانتصروا ، لماذا ؟

الدين ، ويمكن لكم في البلاد .

(رواه ابن ماجه)

انظر كيف فضل الرسول - صلى الله عليه وسلم - سلاحا من صنع
الأيدي العربية على أيدي العدو مع العلم بأن الفرس كانوا متقدمين في
الصناعة الحربية وإشارته بأن الله ينصركم بما تصنعون بأيديكم من آلات
الجهاد ومعداته وينزل عليها بركته ، وإن تضاءلت بجانب سلاح العدو -
ومعداته ، لأنكم تنتصرون بعون الله وقوته ، لا بقوتكم وقوة أعدادكم .

وعن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - يقول : ان الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر
الجنة : صانعة يحتسب في صنعته الحسير ، والرامي به ، ومنبله ، واربوا
واركبوا ، وأن ترموا أحب الى من تركبوا ، كل شيء يلهو به الرجل باطل
الا رميه بقومه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فانهن من الحق .

(رواه الترمذى ، وابن ماجه)

وعنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ستفتح
عليكم الروم ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو باسمه .
رواه مسلم (مشكاة المصابيح كتاب الجهاد « باب اعداد الآلة ») .

وعنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على المنبر
يقول : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، إلا ان القوة الرمي ، إلا ان القوة
الرمي ، إلا ان القوة الرمي (رواه مسلم) وقد فسرنا الزمخشري بكل ما
يتقوى به في الحرب وقال البيضاوى : لعله إنما خصه رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - بالرمي لأنه اقواء ، وتأمل في هذا المعنى من توسع ، وما
فيه من شبه بين سهم أو صاروخ في ضرب الأهداف بسرعة فائقة ودقة متناهية
مع العلم بأن الصاروخ أقوى ما وصل اليه التقدم العلمى في مجال الصناعة

الحربية !!

لأنهم حققوا أمر الله ولم يدخروا وسعا في العدة
للحرب في حدود امكانياتهم ، ان امكانيات العالم الاسلامي
اليوم واسعة ضخمة ، فهو يستطيع أن يحقق بها الكثير ،
بل يجب عليه أن يأخذ بأسباب القوة أكثر مما أخذوا ،
ويصنع أكثر مما صنعوا ، بحكم وسائله وامكانياته ، أما
النصر فهو من عند الله « وما النصر الا من عند الله العزيز
الحكيم » (١) « سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما
أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأوأهم النار ، وبئس
مثوى الظالمين » (٢) •

أما اذا أرقنا الدماء بسخاء وضرينا أروع الأمثلة في
البطولة والفداء ، وما أخذنا للحرب أهبتها ، ولم نصنع
« ما نستطيع أن نصنعه من آليات الحرب ومعداتنا ، فمعنى
ذلك أننا - رغم كل بطولة وتضحية - ما استوفينا شروط
النصر •

ان بلادا شرقية تحررت منذ ربع قرن من الزمان ووصلت
الى مستوى الاكتفاء الذاتى فى بعض الصناعات الثقيلة
والمعدات الحربية الهامة ، وقد استفادت منها فعلا فى معاركها،
فعلينا أن ننفق هذه السيول المتدفقة الفائضة فى جوف

(١) سورة آل عمران •

(٢) سورة آل عمران •

الصحراء(١) . والطاقات البشرية والمؤهلات الانسانية في عواصمنا الكبرى وحقولنا الخضراء في هذا المجال الحيوى الحساس ، ونصنع مشروعا دقيقا لصناعة القاذفات والمدرعات والمعدات الاخرى ، وأعتقد أن ذلك ميسر ، ان شاء الله في زمن غير بعيد ، اذا أخذنا الأمر بطابع الجدية والعمل الصامت الدؤوب .

ان التضحية التي قدمها الجندي العربي في هذه الجولة كبيرة وبسالته في الحرب عظيمة تستحق كل تحية وتقدير ، واكبار واجلال ، وان التناسق الفنى الذى ظهر فى العمليات الحربية يبعث على التفاؤل ، وان دور النفط فى الصفوف الخلفية كان رائعا كبسالة الجندي فى الصفوف الامامية فياليت

(١) نشرت صحيفة « الأوبزرفر » اللندنية بقلم متخصص فى الشئون النفطية فى عددها الصادر فى ٤ تشرين الثانى مقالا خطيرا جاء فيه « أقل التقديرات تدل على أنه سيكون لدى العرب عام ١٩٨٠ ضعف الذهب واحتياطات أرصدة العملة الأجنبية التى تمتلكها الولايات المتحدة ، وهذا التقدير البسيط ، يدل على أن زيادة الفائض العربى سيساوى ربع مجموع الاستثمارات العالمية كلها ، كيف سيوزع هذا الفائض العربى فى أوروبا أو أمريكا أو دول أخرى ، وكيف سيستعمل العرب القدرة المالية المتاحة لهم ، هو الأمر الذى يشغل بال أوروبا ، ويجعلها فى تنافس مع الولايات المتحدة . ترى اليس عندنا مجال لاستثمار هذا الفائض العربى والقدرة المالية الهائلة ؟؟

أضفنا الى ذلك كله جانب « التصنيع » الذي لابقاء لامة بدونه (١) .

وأن تكون الى جانب حقنا فى الأمن والحياة وتلهفنا الى الجهاد والنضال ، والى جانب ايماننا وعقيدتنا ، ودعوتنا وتراثنا ، وقيمنا وأقدارنا ، قوة حربية ضاربة فى حدود امكانياتنا وطاقاتنا ، ووسائلنا ومواردنا ، وهى بالطبع واسعة كبيرة ، وهناك يتغير لنا الموقف ، ويتم لنا النصر ، ونستغنى عن العدو ، ونتحرر عن ضغوط الكتل السياسية ونفوذها ومصالح الدول الكبرى ومؤامراتها « ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله » وهناك يأتى نصر السماء يكمل ما نقص فينا من عدة وعتاد ، ومافاتنا من آلات ومعدات ، ومالم نستطع انجازه

(١) كتب صحفى عربى الأستاذ عبد الله الجابرى يصف دور البترول فى هذه المعركة : « كان سلاح البترول هو الذى حال بيننا وبين الهزيمة ، وكان هذا السلاح هو الذى حمل « كيسنجر » الى الرياض والقاهرة . . . وغدا عندما نصبح أكثر قوة وعندما يتحول بترولنا الى مصانع ومزارع ومعاهد للأبحاث ، ومراكز للدراسات ، ستضى المصلحة الامريكية بان تنال كل حقوقنا . ويتنافس الأمريكيون والصينيون واليابانيون والأوربيون على استقطابنا كشركاء وليس كعملاء ، فى هذه المرحلة لن تكون سيادتنا على أرضنا محل شك ، ولن نطلب ضمانات أمريكية أو سوفيتية بعدم المساس لهذه السيادة كما فعل امبراطور اليابان عام ١٩٤٥ ، فى هذه المرحلة سيعترف بنا كأمة ذات سيادة ، ويطلب منا الاسهام بدور فعال فى حمل عبء القيادة العالمية » .

لضيق الوقت أو لضيق المورد ، أو لضآلة المعونة الخارجية ،
والمساعدة الفنية ولكن الله قادر على جعل الضعف قسوة
والذل عزة ، والهزيمة نصرا وتمكيننا وفتحا مبينا ، كما فعل
بأجدادنا الأولين وأبطالنا الغر الميامين من الصحابة والتابعين
الى محمد الفاتح وصلاح الدين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر
الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » (١) .

(١) سورة الروم .

من وحى الزمان والمكان

المكان : بيت الله الحرام ، ومسجد النبي عليه وعلى آله
وأصحابه الصلاة والسلام !

والزمان : زمن التشريق ، والتهليل والتحميد والتكبير
« ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

فليكن حديث اليوم حديث المجالس والمحافل ، والنوادي
والمجامع ، وليكن ذلك الشغل الحلو الجميل ، الشغل الشاغل
للمسلمين أجمعين ، لأنه حديث الحبيب والقريب ، حديث
الحب ، والوفاء ، والصدق والولاء ، حديث يشحن القلوب
الفارغة ببطارية الايمان ، ويشعل المجامر الخاملة الباردة
بشعلة الحب والحنان ، ويزكي مشاعل النور للمتخبطين فى
ظلام المذاهب والشعارات ، والعصبيات والجاهليات ، مهما
حسننت أسماؤها وراقت ألقابها ، وتنوعت مظاهرها
وأشكالها .

فهذى الليالى كلها أخوات

« ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم »

ولئن رضى الجاحدون، والمنكرون، أو المفتخرون بلقيمات

لفظتها موائد الغرب فان الله لا يرضى لعباده الكفر ، انه
لا يرضى بأن يرى حملة دينه ، والأمناء على رسالته يتطفلون
على فتات الطعام ويقفون كالأيتام على مأدبة اللثام !

ويتكرر الحج كل عام ليجدد ما طرأ على المسلم من بلى ،
ويصلح ما أصابه من زيغ ، وما اعتراه من خلل ، وما لحقه
من نقصان ، وما لصقه من عار ، وما جف فيه من منابع الايمان
واليقين .

انه يقف بنا كل عام أمام بيت الله العتيق ، وفي عتبات
الحرم وفسحات المشاعر ، لتتذكر ما ينسأه العبد المذنب ،
القاصر ، العائر ، المكدود ، في زحمة الحوادث والاشغال ،
وخضم المحيط الهادر من أضواء الحياة وضوضاءها ، وضجيج
الحياة وعويلها ، ولمعان المادة وبريقها ، لتتكشف الغشاوة
عن بصره ، ولتتبين معالمه ومقاصده ومراميه البعيدة في ذلك
الجو المكفهر الملبد بالغيوم ، فيعرفها حق المعرفة ، ويثق بها
كل الثقة ، ثم يعود منها ، - وقد قضى مناسكه وأوفى نذوره -
بايمان جديد قوى غالب لا يعرف الهزيمة والانكسار ، ويواجه
الحقائق المرة و التحديات السافرة ليقضى عليها ويرد كيدها
الى نحرها ، لا ليحنى لها هامتها استصغارا لنفسه ، أو يأسا
من روح الله ونصره ، «فانه لا ييأس من روح الله الا القوم
الكافرون» .

ان الحج لا يحارب تلك الرذائل التي تلاصقت بالنفس

البشرية رذيلة رذيلة ولا يجهد نفسه فى القضاء على علاقتها
منفصلة ، بل يقضى عليها - اذا صحت نية المؤمن وسلمت
طويته - جملة واحدة ، انه يكتسح سائر الاحراش والنباتات
السامة فى النفس البشرية كسيل جارف قوى لا يمنعه شىء ،
ثم يجعلها صالحة للغرس ، والرى والنمو ، والازدهار .
ان الانسان الذى يخمد ، ويتوانى ، ويتقاعس عن العمل
لأجل بيئته الفاسدة ، وشرورها ، أو ينحرف عن طريقة السوى
بشعارات ضالة تأخذ بلبه ، أو يتبع هواه لترفه وتنعمه
بشعارات ضالة تأخذ بلبه ، أو يتبع هواه لترفه وتنعمه يجد في
هذا المكان ما يجدد نشاطه ويقوى همته ، ويصح مسيرته
ويقضى على طغيانه وغفلته ، ويذكر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ،
بل انهم من المجاهدين الصابرين ، الصامدين ، والحج بما فيه
من وقوف وقيام ، وغرام وهيام ، وتنقلات متتابعة ، ورحلات
مضينة وتمثيل لنوادير التضحية والبطولة والفداء ، واستجابة
لهاتف الغيب ، وتلبية لرب البيت ، وخضوع للامر ،
لا يدع له فرصة للراحة والاستجمام ، والقيام فى غيرمقام ،
شأن المحب المتيم الذى كابد الهجر والفراق ، وبرح به الشوق ،
وكاد الحب يأخذ بلبلة ويتركه يهيم على وجهه ، دواؤه أن يلمح
حبيبه ولو من بعيد ، ويسمع حديثه ولو من وراء حجاب ،
ويسمح له بالاطراح على عتبه والابتهاال على بابه ، والنياحة
على نفسه والتلويع بلوعة قلبه وكبده ولو لساعات وأيام
من جملة العام .

ان المسلم اليوم لم يفقد العلم ، ولم يفقد المال ، ولم يفقد

القيادة ولم يفقد النظام - رغم أهمية كل من هذه النواحي -
بمثل ما فقد القلب الولوع الحنون ، القلب المشرق العامر
بالإيمان ، القلب النابض الحي ، القلب الذي يتحرق على
خسارة الروح والضمير أكثر مما يتحرق على خسارة التصدير
والتوريد .

ان هذه المناسك التي يؤديها المؤمن في الحج ، والوقوفات
التي يقفها في حرمة وفي مشاعره ليست أشكالا وطقوسا
مجردة من كل روح ، خالية عن كل معنى ، انها بطبيعتها تبعث
المؤمن بعثا جديدا ، وتمنحه قسطا جديدا من الحياة ، وتنقذه
من أوزار المجتمع المادي الضيق المرسوم الذي عاش فيه زمنا
طويلا ، فألفه ولم يرض عنه بديلا ، كالحشرات التي تألف
الآجام والأحراش والأوحال والجداول والأنهار فلا تريد أن
تخرج من عالمها الصغير المألوف ، فاذا بالحج يحطم سائر هذه
الأغلال والأثقال ، ويهدم سائر الحدود والسدود والقيود ،
واذا هو يقف به - من غير درس طويل وتربية طويلة - في
عالم جديد يختلف عن عالمه القديم الشاحب الكئيب كل
الاختلاف كما يختلف عالم الجنين الصغير عن هذا العالم المادي
الكبير .

ان البيت العتيق هو - في الواقع - محور المسلم الذي
تدور حوله رحي الحياة « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا »
فلهم أن يسبحوا في الأرض ، ويبتغوا من فضل الله ولهم أن

يشتغلوا بما طاب لهم من أشغال ووظائف وأعمال وخدمات
ونشاطات وجهود فى الحدود التى رسمها الاسلام ، ولكن
عليهم أن يلجأوا أخيرا و فى نهاية الشوط الى هذا البيت ،
كالطفل الصغير الشريد الذى يرتقى الى أحضان أمه وكنف
أبيه أو كالعبد الآبق على عتبة سيده ضارعا الى رب البيت ،
نائحا تمرده وعصيانه ، وجحوده وكفرانه ، وغفلته
ونسيانه .

ان التحديات السافرة التى يواجهها المسلمون فى هذه
الأيام تتطلب أن يجددوا صلتهم بالبيت ، لا على صورة تقاليد
جامدة ، وأشكال فارغة ومظاهر جوفاء بل على صورة مصدر
حياة ، ومنبع قوة ، ومعين لا ينضب من تجديد الصلة بالله
والرجوع اليه فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

ان جميع النشاطات التى نزاولها ، والجهود التى نبذلها ،
والمؤسسات التى نقيمها ، والنباتات التى نشيدها ، والجمعيات
التي نؤسسها ، والمخططات التى نصممها ، خطيرة وهامة ،
ونافعة ومباركة ، لا ينكر فضلها ، ولا يستهان بقيمتها مادامت
متصلة ببيت الله الحرام ، ما دامت ترى فيه بقاء حياتها ،
وايمانها ونجاتها ، وما دامت تقوم أساليبها ومناهجها على
هدية ونوره وما دامت تعظم شعائر الله « ومن يعظم شعائر
الله فانها من تقوى القلوب » .

أما اذا غرتنا مظاهر الحياة الخلافة التى تولدت من
استعمال الآلة والأداة ، أما اذا بهرت أبصارنا قلب الذين

كفروا في البلاد ، وبدأنا نطمع فيما آتاهم الله من زخارف
ومباهج وملذات ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم
وهم كافرون .

أما اذا استصغرنا شأن البيت العتيق - لا سمح الله -
وازدريناه ، وفضلنا عليه ما أحدثناه من طوابق وشقق وفنادق
فاخرة ، مجهزة ، مزودة بأحدث التسهيلات ، ووسائل الترف
والنعيم . أما اذا احتقرنا رسالة الحج مقابل نظريات باطلة،
وأفكار سامة ، وآداب فاسقة ، وحياة ماجنة جاءت اليها من
الغرب ، أما اذا أصبحنا نحاكي موضاتهم وتقاليدهم وآدابهم،
وسخافاتهم ونتساقط عليها كما يتساقط الجائع والمحروم
على المائدة ، فمعنى هذا أن صلتنا بهذا البيت العتيق قد
ضعفت ، وأنا بحاجة قبل كل شيء الى أن نجددها ، ونغذيها،
ونحذب عليها ، ونحرسها من كل سوء ، ونتخذ لذلك ما يلزم
من تدابير حكيمة ، واجراءات حازمة ومعالجة دقيقة للقضايا ،
ومراعاة لاثقة بالطبائع والحاجات ، والأذواق والمعارف .

فذلك وحده هو الطريق الامن المضمون الى المستقبل
الزاهر السعيد الذي أصبح حلما لدى الشباب المسلم منذ
زمن بعيد ، فهل يتحقق هذا الحلم وهل تكون حجتنا هذا
العام افتتاح عهد جديد ، ونواة انقلاب في التفكير والميول ،
والرغبات ، والاشواق ! وهل نحن مستعدون لتصحيح مسيرتنا
من الفوضى الى الانسجام ، ومن التخبط في الظلام الى نور
الايمان وعدل الاسلام ؟

حسن البنا فى محراب التاريخ الاسلامى

هذا الاسم الذى دوى فى بلاد العجم وعواصمها ، كما دوى فى القاهرة الزاهرة ودمشق الفيحاء ، واعترف بلمعانه الأصدقاء والأعداء على السواء . هذا الاسم الذى كسب حامله ود الشبان والشيوخ والرجال والنساء فى العالم الاسلامى كله من غير استثناء . . . هذا الاسم الحبيب لا يزال غرة فى جبين التاريخ الحديث .

أجل - أيها الامام الشهيد - قر عينا فى رحاب الخلود فان وراءك جيلا جديدا انشأته على الحب فى الله والبغض فى الله .

جيلا مؤمنا مسلما لا يقف فى أعتاب الرؤساء والوزراء ولائم الملوك والأمراء و لا يبالى بسخط حاكم أو سلطان فى شرع ودين وقضية من قضايا الاسلام والمسلمين ، ولا يخاف فى الله لومة لائم .

«انه فى الصلح والسلم غزال الحمى وفى الحرب والنضال أسد الشرى » .

وهذا الجيل الجديد المثقف الواعى ، القوى الأمين ، الأغر

الأبلج ليس الا مآثرة من مآترك ، وثمره من ثمرات جهادك ،
ونتيجة من نتائج حبك واخلاصك •

ونحن تقدمه - في هذه اللحظة الخالدة - الى روحك
الطاهرة التي ترفرف بأجنحتها الشفافة في عليين فطب عيشا
ونم هادئا مطمئا فان زرعك قد أينع وأثمر رغم الظلم والظلام •
انه قد طال الليل واقترب الفجر وما هي تباشيره قد
بدت في الافق ، ولو أنكرك المنكرون •

انها ضريبة الحب ندفعها اليك - أيها الامام الشهيد -
من وراء البحار راضين مسرورين ، فقد ملأت القلوب ايمانا
وعرفانا ، وملأت الحركة الاسلامية حيوية ونشاطا وحولت
جسمها البارد قلبا ثائرا ، ودما فائرا ، انك أيقظت النائمين ،
ونبهت الغافلين والجاهلین ، وجعلت من أمة هامدة خامدة
أمة كلها حركة ونشاط وعمل وجهاد ، فاذا العالم يرى دعوة
محدودة تنبعث من الاسماعيلية - تلك النقطة الحساسة المباركة
في أرض النيل - ثم لا تلبث أن تعطى أشعتها العالم العربي
كله والعالم الاسلامي بأسره •

وذلك كله يعود الى شيء وحيد •

وهو اتصالك بالله ، وروحك المشرقة ، وقلبك العامر
الكبير ، وتجاربك الواسعة في مجال الدعوة ، وصلتك الشخصية
بالجماهير ، وجمعك بين الدنيا والدين وبين الشدة واللين •

ان سر نجاح الامام الشهيد فى مجال الدعوة هو السر الذى
كشفه القرآن الكريم حين صور جانبا عظيما من حياة النبى
صلى الله عليه وسلم فقال « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا
من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر
فاذا عزمتم فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

وما أحوجنا اليوم الى هذه الناحية الهامة ، ما أحوجنا اليوم
الى الحلم والصفح ، والفجران ، والحب ، والعرفان بالجميل ،
والأخوة الندية العذبة ، و أيم الله انها الناحية الوحيدة
التي فقدناها وفقدنا معها الخير كله والبركة كلها .

كان العدو اللدود والخصم العنيد يأتى حسن البنا لا يريد
به الا الشر ، ولا يضم له الا الكيد ، ثم يعود محبا مأخوذا
بجمال ايمانه ونور وجهه وحسن سريره .

ولا أبالغ اذا قلت : ان مصر لم تجتمع على رجل مثل
ما اجتمعت على حسن البنا ، ولم تحب أحدا مثل ما أحببت
حسن البنا ، ولم يدم حبها لأحد مثل ما دام له ، وكان حبها
له طواعيا لا دعائيا ، وتلقائيا لا صناعيا ، حب ينبع من قراره
النفس ، ولا يفرض عليها من الخارج ، حب تباركه الملائكة
ولا تمسه الشياطين ، وتوحيه نوازع الخير لا نوازع الشر .

هذا الحب السماوى العلوى ، الشفاف ، الطاهر ، العذب
الندى كان نصيب حسن البنا منذ نعومة أظفاره ، وياله من
نصيب !

والسمة الثانية التي امتاز بها الامام هو جمعه بين جوانب مختلفة من الوعي والثقافة كأنه التقت فيه شخصيات مختلفة تمثل وجهات مختلفة وذلك كله فى اطار عام واحد ، اطار الدعوة والجهاد والاخلاص فى القول والعمل ، فكان متضلعا بالروح الدينية عارفا بروح العصر ، خبيراً بمتطلبات الجيل وفراغ النشء الجديد ، واخفاق الحضارة المعاصرة ، وكان عالماً راسخ العلم مرشداً روحياً للاخوان يطلع على مكائيد النفس ومزالقها ، خطيباً ساحراً يأخذ بمجامع القلوب ويملك عنان الكلام ، مجاهداً يبذل جهده ووقته وماله ونفسه فى سبيل الله ، مصلحاً اجتماعياً يعرف الامراض النفسية والادواء الخلقية والمشكلات الاجتماعية ، سياسياً محنكاً لا يساوم على مبدأ ، ولا يؤخذ على غرة ، ويثبت تفوقه على الاقران فى هذا الميدان ، كاتباً بليغاً سهل اللفظ ، غزير المعنى ، حسن الديباجة لا يتكلف فيه ولا يتنمق ، وكان أباً وأخاً وصديقاً فى وقت واحد ، يجد عنده كل حائر شارد اللب حل مشكلته و بلسم جرحه ، وراحة فؤاده ، كأنه أنشط من عقال أو فك من اسار ، اسار الشهوة ، أو اسار الشبهة والوسوسة .

ان داعية وأماماً هذا شأنه لا بد له أن يقود أمة ، ويبنى مجداً ، ويصنع تاريخاً ، ويبتكر أسلوباً جديداً للدعوة يجمع بين الروحية الغيبية الصافية ، والعقل المؤمن النير ، والنموذج العملى الاخاذ ، والسيرة العطرة المنعشة .

وهكذا كان ، فقد هيا الرجل بالتوفيق الالهى الذى حالفه

فى كل وقت وبجهوده المتواصلة ، ورحلاته المتوالية وأعماله الشاقة فى حقل الدعوة واشرافه الشخصى على مكاتب الاخوان وفروعهم ، والاتصال العائلى الوثيق بمشكلاتهم الاقتصادية والروحية معا ، جيلا عرف بنظرة العف ويده النظيفة وقلبه السليم ، وثباته على جادة الحق ، وسمعه وطاعته للمرشد .

لقد بنى أمة فأحسن البناء

والسمة الثالثة : اتصاله برجال قأثر بهم واستقى من معينهم الصافى ، وقد قيد فى مذكراته - كما هو المعلوم - أسماء هؤلاء الرجال وذكر اتصاله العميق بهم وأثنى عليهم اذ وجد عند القوم حلاوة الايمان عندما تدخل بشاشة القلوب ، ذلك الاتصال الذى يمنع الانسان من السقوط فى الهاوية ، ويحفظ من فتن الليل والنهار ، ومن وساوس الصدر ، وشتات الأمر ، ومن شياطين الجن والانس ، ومن ظاهر الحياة الدنيا وزينتها ، ويثبت قدميه عند التهديد والاغراء ، وفى مواقف السلطان والجاه ، وفى السراء والضراء وحين البأس .

هذا السياج المنيع من الاتصال الشخصى - برجال قويت صلتهم بالله ، وخلت قلوبهم من حب الدنيا ، ووصلوا الى مراتب القبول واليقين ، وكانهم رأوا الآخرة رأى العين - حفظ حسن البنا الولد والشباب والخطيب والكاتب والمصلح الاجتماعى والسياسى ومؤسس الجماعة ورائد الدعوة من أخطاء جوهرية يقع فيها بعض كبار الأذكياء وزعماء الاصلاح

حين يترفعون عن الاتصال الشخصي والتربية الدينية ، تأخذهم العزة بالعلم – ولا أقول العزة بالاثم – وكأنهم يقولون بلسان « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » بلى ، وهو كذلك « أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

هذا الاتصال منح حسن البناء قوة تعلو على الأهواء والرغبات في سائر المجالات وفي جميع أدوار حياته ومواقف دعوته وبطولته ، ولكنه لم يقبح في زاوية أو حجرة خالية أو صومعة هادئة بل خرج بهذا الزاد الايماني ، خرج بهذا الوقود ، وبهذه الشحنة الجديدة من الايمان الى ميدان العمل والكفاح .

وهنا يختلف الداعية الامام عن بعض هؤلاء من غير أن يتجنى عليهم أو يلومهم ، لأنه يعرف فضلهم على نفسه ويرى أثر هذا الفضل في قلبه ، ويشعر بقوة ولذة غريبتين عندما يقاوم تيار الفساد ، ويصمد أمام الفتنة والاغراء ، فكيف يستهين بشأنهم وقد أخذ منهم ما أخذ وتزود منهم لغدة ما تزود ، وعرف عندهم لذة روحية لا تساويها لذات الدنيا بأكملها ، انها لذة الحب والايمان ، فمزجها بلذة الجهاد وتحمل الشدائد في سبيل الله وكلمة حق عند سلطان جائر .

وهي ميزة قلما توجد في رجل واحد فاما مرشد روحى لا يعرف الحياة ، واما اجتماعى عامل في حقل الدعوة لا يعرف لذة الروح .

- أما الامام فقد جمع الناحيتين الهامتين فأحسن الجمع .
- وكان عاملا في ذلك بالحكمة القرآنية .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك » .

- ان محراب التاريخ الاسلامي محراب واسع كبير . .
- لا ترى مثله في الحضارات البائدة ولا في الحضارات السائدة ، انه محراب لا يقف فيه الا عظماء التاريخ الاسلامي وأفذاذهم وعباقرتهم وكبار أساتذة الدعوة الى الله والجهاد في سبيل الله بالقلم واللسان والمهج والأرواح .

انه محراب عظيم متنور الأرجاء ، متهلل الوجه ، مشرق السمات والملامح ، محراب يبدأ من خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الاكرمين ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم

وانى على يقين أن مقام امامنا الشهيد مقام كبير في هذا المحراب لأنه حمل هذه الدعوة على اكتافه في هذا الزمن الاخير حينما ظهر الفساد في البر والبحر ، وأصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر .

فهنئنا لك أيها الامام هذا المقام الرفيع .

وهنئنا لك هذا الجيل المؤمن الذي لا يزال على عهدك وطريقك ، وان طال الليل وساد الصمت ، وخيم الظلام .